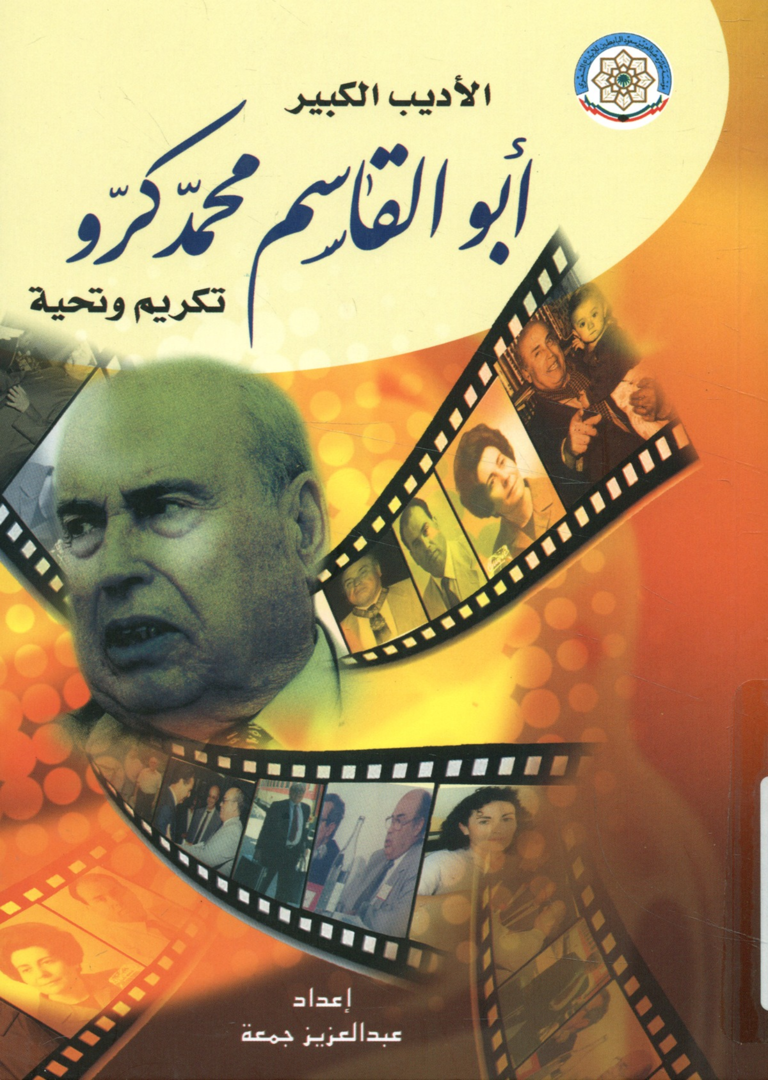

الأديب الكبير
أبو القاسم محمّد كرّو
تكريم وتحية
إعداد
عبدالعزيز جمعة



الأديب الكبير

أبو القاسم محمد كرّو

تحية وتكريم

إعداد

عبدالعزيز جمعة

الكويت

2008

راجعـــه الباحثان بالمؤسسة

عبدالعزيز محمد جمعة

محمود البجالي

الصـف والتنـفيـذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميـم الغـــلاف

محـمـد عبدالوهاب

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

1961. 928 مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

أبوالقاسم محمد كرو: تحية وتكريم/ إعداد: الأمانة العامة للمؤسسة . ط1. – الكويت: المؤسسة، 2008

376 ص : صور: 24 سم

ردمك: 7 – 49 – 72 – 99906 – 978

1 – أبوالقاسم محمد كرو 2. الأدباء التونسيين

أ – العنوان ب – مؤسسة جـائزة عبدالعزيز سـعود البـابطين للإبداع الشعري. الكويت (ناشر)

ردمـــــك: ISBN : 978 - 99906 -72 - 49 - 7

رقم الإيداع : Depository Number: 127 / 2008

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـــــر

جمع الأستاذ الكبير أبوالقاسم محمد كرو عدة صفات جعلته يتبوأ مكانة مرموقة في عالم الأدب والثقافة بل وصنع الثقافة والريادة فيها. وكان رسول المغرب العربي الكبير بكامله لا رسول تونس فحسب، إلى المشرق العربي، في وقت كان وطننا العربي في أربعينيات القرن الماضي يمور بحركات التحرر في مشرقه ومغربه، فكانت معظم أقطار المشرق قد نالت استقلالها بشكل أو بآخر. وكانت بنيتها التعليمية في معظمها غير واقعة تحت وصاية الدول الاستعمارية أو توجيهاتها وأوامرها وسياساتها التي كانت تصب في صالح استمرار الاستعمار.

من هذا المنطلق - إضافة إلى صفات شخصية طموحة وخلاقة في شخصه - يمَّم أبوالقاسم وجهه شطر المشرق، واطلع على أحواله، ونهل العلم من دار المعلمين العالية في بغداد، بدءًا من العام ١٩٤٨ ذلك العام الذي شهد أكبر النكبات العربية المعاصرة.

لم يعد أبوالقاسم إلى تونس خالي الوفاض بل نال الشهادة العالية، وكانت فترة دراسته، وقبلها فكرة توجهه إلى المشرق العربي، بداية ريادة له في هذا المجال، فكانت السنين الأربع التي قضاها في العراق، من أخصب سنيِّ عمره المديد بالنضال في كل معانيه: نضال لاستكمال الدراسة، ونضال ليبين حقائق الأوضاع المؤلمة في أقطار المغرب العربي، وكان خير ممثل للمغرب العربي بعامة ولوطنه تونس بخاصة في المشرق، فلم تخمد له جذوة، ولم يهتز له يقين بعدالة قضية تونس وبقية أقطار المغرب، وبقي محاربًا في سوح النضال بقلمه ولسانه وفكره وقدرته التنظيمية طوال فترة وجوده في المشرق، ونقل هذه الجذوة وهّاجة حارة إلى تونس وما جاورها.

لقد أحب أبوالقاسم المشرق ونافح عنه بقلمه وعلمه، بقدر ما عشق المغرب ونافح عنه بكل غالٍ ونفيس، ولما عاد إلى تونس ثابر وبكل جهد وجد وعلو همة على خدمة ثقافتها وتاريخها وأدبها وشعرائها والمبرزين من أبنائها قديمًا وحديثًا، كما هو مبين في سيرته التي تتصدر هذا الكتاب.

وكان من حسن حظ هذه المؤسسة ويمن طالعها ولصدقية أهدافها وتجردها عن الإقليمية والمصالح الفردية، أن استعانت بالأستاذ الكبير أبي القاسم محمد كرّو ليكون مديرًا لمكتبها في تونس والأقطار المغاربية، وكأن القدر قد هيّأ هذا العملاق الثقافي الكبير ليكون على ميعاد مع مولد هذه المؤسسة، فأفادت من غزير علمه، ومن تمرسه الواسع بالشؤون الثقافية مشرقًا ومغربًا، مما كان له أكبر الأثر في التعريف بالمؤسسة وأهدافها ونشرها في المغرب العربي الكبير.

ونزولاً عند رغبته في التقاعد رغم تمسكنا به، قبلت منه المؤسسة ما اقترحه لنفسه من رغبة أكيدة في الركون إلى الراحة التي يحتاج إليها في هذه المرحلة العمرية، وعزاؤها باقٍ في ما قدمه الأستاذ الكبير لها من خدمات بنفس الروح والمنهج الذي اختطه قبل الالتحاق بها منذ بداياتها.

وإذ أستذكر بكل التقدير ويستذكر معي مجلس أمناء المؤسسة وكل العاملين ممن التقوا أبا القاسم أو عايشوه، نستذكر معًا، أفضال هذا المناضل الثقافي الفريد، ندعو له بالعمر المديد المقرون بالصحة والسعادة.

ونرى هذا الكتاب التكريمي أقل واجب ممكن تأديته نحو من جمع عشق جناحي الوطن العربي الكبير، فكان سفير المغرب في المشرق برهة، ثم سفير المشرق في المغرب بعد ذلك وإلى يومنا، وبذلك يكون شخصه الكريم أوضح مثالٍ على وحدة هذا الوطن وتكامله.

لقد حرصنا على استكتاب مجايليه وتلامذته وأصدقائه من كافة أرجاء الوطن العربي، حتى يكون الكتاب وعاء وفاءٍ لرجل وفيٍّ يستحق الوفاء والإجلال والتكريم.

والله ولي التوفيق...

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت 23 محرم 1429هـ

الفاتح من فبراير 2008م

****

ترجمة ذاتية

لمحات عن حياته وأعماله العلمية:

- أبوالقاسم محمد كرّو.
- من مواليد مدينة قفصة (الجنوب الغربي من الجمهورية التونسية) عام ١٩٢٤.
- حصل على الإجازة في الآداب العربية (دار المعلمين العالية) بغداد ١٩٥٢، ثم المرحلة التحضيرية من الدكتوراه - في جامعة الجزائر ١٩٧٥.
- من مؤلفاته: له أكثر من ستين كتابًا مطبوعًا وعشرين مخطوطًا.
- من المؤلفات التي اشترك فيها ٣٣ كتابًا.
- له من المؤلفات الصغيرة: ٨ كتيبات.
- له أكثر من مائة دراسة وبحث، نُشرت في كتب مشتركة وفي المجلات التونسية والعربية.
- له حوالي ألف حديث إذاعي وألف مقالة منشورة في الصحف والمجلات التونسية والعربية.

المهام الوظيفية العامة:

- أستاذ بمعاهد التعليم ببغداد وطرابلس وتونس مدة عشر سنوات (١٩٥٢ - ١٩٦٢).
- مكلف بإدارة الآداب بوزارة الثقافة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٤.
- مدير المركز الثقافي التونسي بطرابلس (ليبيا) من ١٩٧٤ حتى ١٩٧٦.
- مدير عام الدار العربية للكتاب من ١٩٧٦ حتى ١٩٧٧.
- رئيس دائرة الملتقيات بوزارة الثقافة من ١٩٧٨ - ١٩٨٢ ثم ١٩٨٥ - ١٩٩٧.
- مدير المركز الثقافي التونسي بطرابلس (ليبيا) من أكتوبر ١٩٨٢ إلى ١٩٨٥.
- مستشار لوزير الثقافة بمرسوم رئاسي (مايو ١٩٩٢).

المجالس الإدارية:

- شغل العضوية في مجالس إدارية لجمعيات ودور نشر عديدة أهمها: الشركة القومية للنشر والتوزيع (١٩٦١ – ١٩٦٣م)، والدار التونسية للنشر (١٩٧٤ – ١٩٧٧)، والدار العربية للكتاب (١٩٧٤ – ١٩٧٧)، وجمعية حقوق المؤلفين (١٩٧٢ – ١٩٧٤).

الهيئات العلمية:

- عضو مراسل لمجمع اللغة العربية في القاهرة من ١٩٧٢.
- عضو مراسل لمجمع اللغة العربية في الأردن من ١٩٨٠.
- عضو مراسل للمجمع العلمي العراقي من مارس ١٩٨٩.
- عضو مراسل لمجمع اللغة العربية بدمشق من ١٩٩٣/٦/٩.
- باحث في مركز البحث الجامعي بتونس (١٩٧٣ – ١٩٧٥).
- عضو اللجنة الاستشارية العليا لمعهد المخطوطات العربية (١٩٧٧ – ١٩٨٩).
- عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم (من سنة ١٩٨٨) (مقر الجمعية معهد التراث العلمي العربي – جامعة حلب).
- عضو مجلس الأمناء لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري (من مارس ١٩٩٢ – إلى نهاية ١٩٩٧).
- مدير مكتب مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في تونس وأقطار المغرب العربي من سنة ١٩٩٢ – إلى ٢٠٠٦/١٢/٣١ حيث استقال لشيخوخته.
- عضو مجلس أمناء جائزة الشاعر حسن فقي التابعة لمؤسسة معالي الشيخ أحمد زكي يماني الثقافية من سنة ١٩٩٣.

الجمعيات الثقافية:

- أسس وترأس جمعية شباب ابن منظور بقفصة (١٩٤٥ - ١٩٤٨م).

- ساهم وأشرف على ملتقياتها العلمية (١-٢-٣-٦-٨).

- كاتب عام جمعية الثقافة العربية ببغداد (دار المعلمين العالية) (١٩٥٠ - ١٩٥٢).

- عضو برابطة الأدب الحديث - القاهرة ١٩٥٤.

- عضو نادي القلم - تونس ١٩٥٥.

- عضو مؤسس وعامل في اتحاد الكتّاب التونسيين من ١٩٧٠.

- عضو بالجمعية التونسية للتاريخ والآثار.

- عضو الجمعية التونسية للمعجمية العربية (تونس) من ١٩٩٠.

- الرئيس الشرفي لجمعية صيانة قفصة (تونس) منذ سنوات.

المؤتمرات العلمية والأدبية:

- شارك في عديد المؤتمرات الأدبية والثقافية والعلمية، وهي تزيد عن المائة ومن أهمها:

- مؤتمر الأدباء العرب بدمشق ١٩٥٤.

- حلقة توحيد الأرقام في البلاد العربية - تونس ١٩٦٣.

- حلقة توحيد الشهور القمرية للبلاد العربية - تونس ١٩٦٣.

- مؤتمر أدباء المغرب العربي - طرابلس ١٩٦٩.

- المؤتمر الثامن للأدباء العرب - دمشق ١٩٧١.

- مهرجان السياب الدولي في البصرة عام ١٩٧١.

- مهرجان المربد الثاني - البصرة ١٩٧٢.

- المؤتمر التاسع للأدباء العرب - تونس ١٩٧٣.

- ملتقى الفكر الإسلامي - الجزائر ١٩٧٣.

- ملتقى المفكرين العرب في القاهرة - سبتمبر ١٩٧٣.

- ملتقى الذاتية الثقافية والضمير القومي (داخل المجتمع التونسي) - تونس ١٩٧٤.

- المؤتمر الحادي عشر للأدباء العرب - طرابلس ١٩٧٧.

- مؤتمر دولي حول إسهام تونس في الحضارة الإنسانية بمناسبة مرور ٢٨ قرنًا على تأسيس قرطاجة ١٩٨٦.

- المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا - مايو ١٩٨٨.

- مؤتمر حول المغرب العربي - آفاق ٢٠٠٠. افتتح في فاس وختم في طنجة ودارت جلساته في رحلة بحرية على الباخرة مراكش (سفينة الوحدة) انطلاقًا من طنجة ورجوعًا إليها ومرورًا بمراسي ومدن الجزائر - تونس - طرابلس ١٩٨٩.

- مئوية ميلاد طه حسين - تونس ١٩٨٩/يناير ١٩٩٠.

- أيام دراسية عن شخصية وفكر عبدالله كنون - طنجة، فبراير ١٩٩٠.

- مؤتمر دولي حول طنجة في التاريخ المعاصر (١٨٠٠ - ١٩٥٦) - طنجة أكتوبر ١٩٩٠.

- ملتقى دولي حول التراث المغربي الأندلسي (التوثيق - القراءة) - كلية الآداب - تطوان - أبريل ١٩٩١م.

- الندوة العالمية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب، انعقد في غرناطة بإشراف جامعتها وجامعة حلب.. مارس/ أبريل ١٩٩٢.

- أكثر من مائة ندوة ومؤتمر أدبي أو علمي أو قومي أو وطني بتونس والبلاد العربية والأوروبية.

إضافات:

- أقيمت على شرفه حفلات تكريم عديدة زهاء عشرين حفلة في تونس والبلاد العربية أبرزها اثنتان كبيرتان جدًا: إحداهما قام بها «نادي القلم» عام ١٩٥٤ بفندق «سان جورج» إثر عودته لتونس بعد غياب دام سبعة أعوام.

- والثانية: حفلة تكريم الجامعة التونسية (كلية الآداب) بضاحية: (منوبة) عام ١٩٩٩ بحضور ممثل الرئاسة وإشراف وحضور وزير التعليم العالي الدكتور المرحوم الدالي الجازي وخطابه التكريمي العميق؛ ودامت الحفلة بحضور الوزير أربع ساعات.

- تُرجمت بعض أعماله للفرنسية والإنكليزية والإسبانية والروسية والألمانية.

- متزوج وله ثلاثة أولاد.

- حاصل على: وسام الجمهورية (الصنف الثالث) ١٩٦٩، ووسام الاستحقاق الثقافي (الصنف الأول) ١٩٨٩، ووسام الجمهورية (الصنف الثاني) ١٩٩٠م، وجائزة الدولة التقديرية في النقد ١٩٩٠، والجائزة المغاربية للثقافة سنة ٢٠٠٣، وبالإضافة إلى جوائز وميداليات عديدة.

- حصل في شهر جوان من العام ٢٠٠٨ بمناسبة اليوم الوطني للثقافة على الصنف الأكبر من وسام الجمهورية التونسية.

- المراحل النضالية والوطنية (١٩٤٢ - ١٩٦١م) يوجد مجملها في كتابه «حصاد العمر» مجلد ٦ - القسم الأخير.

المؤلفات:

- ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي - بغداد ١٩٥١.
- الشابي: حياته وشعره - بيروت ١٩٥٢.
- كفاح وحب - بيروت ١٩٥٢.
- حصاد القلم - القاهرة ١٩٥٤.

- كفاح الشابي، أو الشعب والوطنية في شعره - بيروت ١٩٥٤.
- دفاعنا نحن - تونس ١٩٥٥.
- نداء للعمل - تونس ١٩٥٥.
- التعليم التونسي، بين الحاضر والمستقبل - تونس ١٩٥٥.
- شوقي وابن زيدون في نونيتيهما - تونس ١٩٥٦.
- العرب وابن خلدون - تونس ١٩٥٦.
- هيئة الأمم المتحدة - تونس ١٩٥٦.
- صوت الجزائر - تونس ١٩٥٦.
- الشهيد أحمد رضا حوحو - تونس ١٩٥٧.
- الطاهر الحداد - تونس ١٩٥٧.
- حديث رمضان - تونس ١٩٥٨.
- شخصيات أدبية (من المشرق والمغرب) - تونس ١٩٥٨.
- خير الدين التونسي - تونس ١٩٥٨.
- دروس التاريخ - ج١ - تونس ١٩٥٩.
- دروس التاريخ - ج٢ - تونس ١٩٦٠.
- هتاف للجمهورية - بيروت ١٩٦١.
- آثار الشابي وصداه في الشرق - بيروت ١٩٦١.
- كرياكة: شاعر الغناء والمسرح - تونس ١٩٦٥.
- دراسات عن الشابي - تونس ١٩٦٦.
- ابن هانئ الأندلسي - تونس ١٩٦٧.
- الشابي من خلال رسائله - بغداد ١٩٧٠.
- محمد الخضر حسين - تونس ١٩٧٣.

- عصر القيروان - تونس ١٩٧٣.
- مستدرك الفهرس التاريخي للمؤلفات التونسية - بيروت ١٩٨٨.
- طريق النهضة - تونس ١٩٨٩.
- كلمات إلى الشباب - تونس ١٩٨٩.
- دراسات في التاريخ والتراث - تونس ١٩٩١.
- من أعلام تونس في الثلث الأول من القرن العشرين - تونس ١٩٩١.
- دراسات عن تاريخ قفصة وأعلامها - تونس ١٩٩١.
- نثر الشابي ومواقفه من عصره - تونس ١٩٩٤.
- الشابي في مرآة معاصريه - بيروت ١٩٩٤.
- رسائل حول الشابي - بيروت ١٩٩٤.
- دليل الباحثين عن الشابي - بيروت ١٩٩٤.
- الشابي: صور وكلمات - بيروت ١٩٩٤.
- شعراء المغرب للشابي (تحقيق) - بيروت ١٩٩٤.
- حصاد الكفاح (٣ جـ) - بيروت ١٩٩٨.
- أعلام منسيون - بيروت ١٩٩٨.
- شاعرات عراقيات - بيروت ١٩٩٨.
- في الشعر والشعراء - بيروت ١٩٩٨.
- دفاعًا عن الثقافة العربية - بيروت ١٩٩٨.
- مواقف إسلامية - بيروت ١٩٩٨.
- مدن وأعلام - بيروت ١٩٩٨.
- كتب ومؤلفون - بيروت ١٩٩٨.
- محاضرات ومقالات لم تنشر - بيروت ١٩٩٨.

- قضايا وردود - بيروت ١٩٩٨.
- محطات في حياتي - بيروت ١٩٩٨.
- همس الحب (مع الترجمة الفرنسية) - بيروت ١٩٩٩.
- عبقرية الحداد - بيروت ١٩٩٩.
- الشهيد الحبيب ثامر - سوسة ١٩٩٩.
- عبدالوهاب البياتي - سوسة ٢٠٠٠.
- طه حسين والمغرب العربي - بيروت ٢٠٠١.
- حوار وشعراء - بيروت ٢٠٠١.
- سليمان الحرائري: (رائد تونسي) - بيروت ٢٠٠١.
- ابن منظور: مؤلف لسان العرب - بيروت ٢٠٠٢.
- الأميرة نازلي فاضل: رائدة النهضة في مصر وتونس - بيروت ٢٠٠٢.
- أبعاد الأب جان فونتان - بيروت ٢٠٠٢.
- أبحاث ومقالات - بيروت ٢٠٠٢.
- أحمد التيفاشي القفصي - بيروت ٢٠٠٤.
- شعراء قفصة الإسلامية - تونس ٢٠٠٤.
- تراجم قصيرة - تونس ٢٠٠٤.
- ذكرى ابن خلدون - تونس ٢٠٠٦.
- مدن وأعلام تونسية (منقحة ومزيدة) - تونس ٢٠٠٧.

معد للطبع:

- وفيات وصور معاصرة.
- مسيرة حياة.. (ذكريات).
- شهادات ورسائل (كتاب تكريمي).

- من رسائلهم (نشرت حلقات كثيرة منه في تونس).
- هكذا عرفتهم (نشرت حلقات منه في كتبه الأخيرة).
- خلفيات حول كتبي (نشرت حلقات منه في تونس).
- كشاف مقالاتي (نشرت حلقات منه في تونس).
- المغاربيون في معجم السفر (تحقيق).
- مغاربيون في دستور الأعلام لابن عزم التونسي.
- رسائل مرتضى الزبيدي (تحقيق).
- أعلام من قفصة (جملة كتب متلاحقة).
- إسماعيل الصفائحي (وما يقتضيه حال الزمان).
- الأميرة نازلي فاضل (في الصحافة التونسية) (١٨٩٩ - ١٩١٤).

موسوعات ألفها أو شارك فيها:

- موسوعة الشابي، ط١، ١٩٩٤، (٦ مجلدات) وط٢ (١٩٩٩) (١٢ مجلدًا).
- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، ط١، الكويت ١٩٩٥، (في ٦ مجلدات)، وط٢ الكويت ٢٠٠٢ (٧ مجلدات).
- موسوعة حصاد العمر في ٦ مجلدات ٣٤٠٠ ص، ط ١٩٩٨.

كتب اشترك فيها ببحث:

- ذكرى الرصافي (جماعة من المؤلفين) - بغداد ١٩٥٠.
- ذكرى الشابي وأحمد أمين (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٥٥.
- تاريخ قفصة وعلمائها (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٢.
- علي مصطفى المصراتي (نجم الدين الكيب) - طرابلس ١٩٧٣.
- دراسات في اللغة والأدب والتاريخ (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٤.
- دراسات في اللغة والحضارة (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٥.

- الذاتية الثقافية والضمير القومي (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٧٧.

- التعريف بالأدب التونسي (رضوان إبراهيم) - تونس ١٩٧٥

- محمد الصباغ بأقلام النقاد والأدباء (جماعة من المؤلفين) - الدار البيضاء ١٩٨٠

- الإسلام والأمة الوسط (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨١.

- ساعة صفاء (ن. د. مع؛ م. ح. س) - تونس ١٩٨١.

- دور التعريب في تطور اللغة العربية (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨٤.

- مظاهر الحضارة في تونس (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨٤.

- قضايا في النثر العربي المعاصر (أ. ط. و ج . خ) - سيول ١٩٨٥.

- دليل الكتاب التونسي (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٨٦.

- أمة اجتمعت في إنسان (جماعة من المؤلفين) - سوسة ١٩٨٩.

- عبدالله كنون بين التكريم والتأبين (ع. العشاب) - طنجة ١٩٩١.

- طنجة في التاريخ المعاصر (١٨٠٠ - ١٩٥٦) (جماعة من المؤلفين) طنجة ١٩٩١.

- أبحاث وأعلام: عبدالله كنون (جماعة من المؤلفين) - المغرب ١٩٩١.

- سفينة الوحدة المغاربية (جماعة من المؤلفين) - فاس ١٩٩٢.

- الإمام محمد الخضر حسين (جماعة من المؤلفين) - دمشق ١٩٩٢.

- أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا (جزآن) (جماعة من المؤلفين) - حلب ١٩٩٢.

- مئوية ميلاد طه حسين (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٩٣.

- التراث المغربي والأندلسي (جماعة من المؤلفين) - الدار البيضاء ١٩٩٣.

- عبدالله كنون: شخصيته وفكره (جماعة من المؤلفين) - المغرب ١٩٩٤.

- آثار الشيخ محمد النخلي (ابنه. والساحلي) - بيروت ١٩٩٥.

- محمد بن تاويت الطنجي (إعداد: أحمد الطريبق) - طنجة ١٩٩٨.

- سعيد أبوبكر (جماعة من المؤلفين) - تونس ١٩٩٩.
- أبوالقاسم كرو تكريمه بإهدائه مكتبته (جماعة من المؤلفين) - بيروت ١٩٩٩.
- علي مصطفى المصراتي بأقلام عربية: إعداد عبدالله مليطان - طرابلس الغرب ٢٠٠١.
- عبدالعزيز السريع: تكريم وتحية - الكويت ٢٠٠٢.
- عبدالكريم غلاب: ضوء يشرق من المغرب (جماعة من المؤلفين) - بيروت ٢٠٠٣.
- ابن الطواح (جماعة من المؤلفين) - بيروت ٢٠٠٤.

نشريات أخرى:

- محمد الحليوي - ط. تونس ١٩٧٨ - ٣٢ ص.
- محمد المرزوقي (بالاشتراك) - ط. تونس ١٩٨١ - ٣٢ ص
- الهادي العبيدي - ط. تونس ١٩٨٥ - ٣٢ ص
- ناجية ثامر - ط. تونس ١٩٨٨ - ٤٠ ص
- الهادي المدني - ط. تونس ١٩٩١ - ٤٠ ص
- صور تاريخية - ط. تونس ١٩٩٢ - ٤٨ ص
- محمد اليعلاوي - ط. تونس ١٩٩٢ - ٢٤ ص
- محمد اليعلاوي (تكريم واحتفاء) (جمع كلمات التكريم وقدّم لها وشارك فيها) - ط بيروت ١٩٩٣ - ٨٦ص.

سلسلتان جديدتان:

● الأولى - روّاد منسيون:

- سليمان الحرائري (أول صحافي تونسي بباريس ق ١٩م ط ٢٠٠١).
- ابن منظور (مؤلف لسان العرب) - ط٢٠٠٢.
- الأميرة نازلي فاضل (رائد النهضة في مصر وتونس) ط ٢٠٠٢.
- أحمد التيفاشي القفصي (أول موسوعي عربي) ط ٢٠٠٤.

● الثانية: أعلام من قفصة:

- الشيخ الطيب قلنزة (وأرجوزته برواية قالون).

- صالح محمد كرو (اصطلاحه: طغرى الاستقلال)

- المهدي بن الناصر: (نشيد الحرية...)

- رجب العجمي الشاعر (يمجد انتصارات تركيا).

- شعيب الحريفشي (وكتابه الروض الفائق..)

- آل ابن عقيبة: (بين الشعر والتصوف).

****

القسم الأول

شهادات في أبي القاسم كرو

في هذا القسم وردت الشهادات وفقًا
للترتيب الألفبائي دون أية اعتبارات أخرى

أبوالقاسم كرّو في محراب الثقافة العربية

أ. د. إبراهيم السعافين(*)

عرفت الأستاذ (أبوالقاسم محمد كرّو) من كتبه قبل أن أراه رأي العين في أول جلسة عقدها مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في تشكيلته الثانية في مطلع عام ١٩٩٥ في القاهرة، وكان اسمه قد اقترن بقوة باسم شاعر تونس الكبير (أبوالقاسم الشابي)، وقد خلّف تراثًا من الإنتاج الفكري والثقافي والأدبي الغزير الذي يشهد له بسعة الاطلاع والبحث والانخراط في قضايا الأمة وهمومها والبحث عن آفاق مستقبلها، وعلى انشغاله بشاعرنا الكبير، واهتمامه بالمنجزات الثقافية والفكرية والأدبية في قطره الصغير، فقد انشغل بهموم الأمة التي كانت شغله الشاغل، مما جعله يخوض في سبيلها المعارك التي ولّدت جدلاً خصبًا بينه وبين الخصوم.

والذي يعرف الأستاذ كرّو عن قرب لا يحتاج إلى وقت طويل ينفقه لكي يزيل الحواجز الاجتماعية والنفسية، فما أن تجالسه أول مرة حتى تألفه ويألفك وتصبحا صديقين حميمين، فالرجل يتميز بالبساطة والرهافة والكبرياء، ويتميز بالصدق والأريحية والكرم والشهامة، ومن أحب الأشياء إلى نفسه أن تنتدبه لعمل يستطيع القيام به، إذ سرعان ما يلبي الطلب في حماسة وطلاقة وجه، وأذكر أن أستاذنا وصديقنا الراحل إحسان عباس كلفني، بعد أن اتفقنا – إحسان عباس وشقيقه الصديق الراحل بكر عباس وأنا – على إعادة تحقيق كتاب الأغاني، الحصول على بعض نسخ مخطوطة الكتاب من دار الكتب المصرية، وذكر لي اسم الدكتور أيمن فؤاد السيد، الذي كانت تربطه بوالده صداقة قديمة، وكنت، حتى ذلك الوقت، لم ألتقِ الصديق أيمن فؤاد السيد، وحين ذكرت

(*) أكاديمي وناقد أردني من مواليد الفالوجة عام ١٩٤٢ يعمل في جامعة الإمارات العربية المتحدة، له العديد من المؤلفات، عضو سابق بمجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

الأمر للأستاذ (أبوالقاسم كرّو) أبدى استعدادًا منقطع النظير وأصر، على أن نزور دار الكتب والوثائق المصرية سويّاً، وبالفعل قدمني إلى الدكتور أيمن السيد، وقضيت المهمة حسب الأصول المرعية في الدار.

وكان الأستاذ كرّو يحتفي بأصدقائه، دائم السؤال عنهم مثلما كان موضع الحفاوة منهم أيضًا، فطبيعته الاجتماعية لا تعرف الانعزال أو الانطواء، فما رأيته إلا مقبلاً على الناس، تقطر عباراته بالدفء والمودة والأنس والمرح الجميل. وقد استطاع في فترة عمله في المؤسسة أن يقيم صلات قوية تقوم على الاحترام والتقدير والحماسة بين المثقفين والأكاديميين والمبدعين في مغرب الوطن والمؤسسة؛ مما أدى بالتالي إلى تقوية الصلات والروابط العميقة بين مشرق الوطن ومغربه، فـ (أبوالقاسم كرّو) محب ينشر طاقة الحب بين من يتصل بهم ويتصلون به، فكان خير سفير للثقافة المغاربية في مشارق الوطن العربي الذي ينتمي إليه أبوالقاسم بكل جوارحه.

يعد الأستاذ (أبوالقاسم محمد كرّو) من أعلام الفكر والثقافة في تونس والوطن العربي، وقد ارتبط اسمه، كمّاً، باسم شاعر تونس الكبير «أبوالقاسم الشابي»، إذ كانت دراسته الصادرة في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي «الشابي حياته – شعره» وتوالت دراساته عن الشابي «دراسات عن الشابي» و«كفاح الشابي» و«آثار الشابي وصداه في الشرق»، ولقد جاءت موسوعته «آثار الشابي» في ستة مجلدات، وكأن (أبوالقاسم كرّو) سخَّر حياته لخدمة هذا الشاعر العربي الكبير الذي أصبح مفخرة عظيمة لتونس، وقد عبَّر عن هذا الاعتزاز حين قال: «إن الشابي لتونس كالمتنبي للعراق، وكالمعري لسوريا، وجبران للبنان وشوقي لمصر.. إنه بدء تاريخ وقاعدة مجد.. ستظل الأجيال تذكره في هالة من التمجيد والإكبار.. ما بقيت الحياة وكان للإنسان تاريخ وضمير».

ويعبر الأستاذ كرّو عن هذا الإعجاب بشاعر تونس الكبير بعبارات مفعمة بالتقدير العظيم الممتزج بالحب والامتنان لمن كتب اسم تونس في سجل الأوطان التي أنجبت عباقرة الشعراء، إذ يقول مفاخرًا ومباهيًا بشاعر تونس الخالد: «كيف يمكن أن يموت من علَّمنا

اغاني الحياة، وأنار طريق الحياة بالشباب والحبِّ والنضال، لا والف مرّة لا، إن الشابي لم يمت يوم ٩ أكتوبر ١٩٣٤ وإنما ولد من جديد».

ويمكن القول إن الأستاذ كرّو قد كرّس حياته للكتابة عن الشابي والاهتمام بإنتاجه باعتباره شاعر تونس بل شاعر المغرب الاكبر في الثلث الأول من القرن العشرين وربما لعقود كثيرة تالية، وقد مكّنت شهرة الشابي وذيوع اسمه في المشرق العربي بانتسابه إلى جامعة أبولو ولا سيما بالنشر في مجلة أبولو لباحثين متحمسين لهذه الظاهرة الشعرية الشابية لأن يجند قلمه في خدمة أدبه، والانطلاق إلى غاية ربما أبعد وهي إنصاف مغرب الوطن العربي من مشارقه، إذ كان المغرب يعاني من تجاهل أو جهل بحقيقة إنجازاته الفكرية والثقافية، وكأنه كان إذ ذاك يقع في دائرة الهامش في مقابل المركز الذي كان يقع بصورة خاصة في مصر والشام. يقول في كلمته الاحتفالية بالشابي التي عنوانها «ما يجب نحو الشابي»: «عندما زرت جناح العرب الشرقي، وتعرفت إلى إخواننا فيه، وعشت بينهم سنوات عديدة، لمست مقدار الغموض والأخطاء التي تكتنف كل شيء يصل لهم عنا. عن المغرب العربي كله. بكل سكانه، وبكل ما فيه من ألوان الحياة، وأنواع التاريخ، وطبيعي أن يدفعني انتسابي إلى مغربنا العربي واعتزازي بذلك الانتساب إلى أن أحاول إزالة ما يمكن إزالته من ذلك الغموض وتلك الأخطاء[1]، ويبدو أنه كان لا يستثني من المشرق العربي طرابلس الغرب آنذاك، وهو يعترف بحب الناس في المشرق «في بغداد ودمشق وعمان والقدس وبيروت والقاهرة وطرابلس الغرب وغيرها من المدن العربية» وسؤالهم بشوق عن أحوال المغرب ولاسيما الشعراء والأدباء «ليمنع به وحدة الأمة العربية»، فيعزو ذلك إلى ما صنعه الستار الحديدي الذي فرضه الاستعمار.

ولعل ما كان يحزُّ في نفس الأستاذ كرّو أن أبا القاسم الشابي هو الشاعر الوحيد الذي عرفه الأدباء في الشرق «ولكن أكثرهم لم يكن يعرف إلا اسمه وبلده، وأبياتًا من شعره، وعندي عشرات من الرسائل والمقالات التي كتبت عنه، أو جاءتني من أصحابها

(١) أبوالقاسم كرو، دراسات عن الشابي، ط٢ الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٤.

حوله.. وكلها تدل على مقدار الغموض الذي يحيط بحياته وشعره.. بل إن الغموض والخطأ عنه، عن حياته وأدبه.. ما يزالان موجودين إلى اليوم رغم صدور عدد من الكتب عن حياته وشعره(١) ويستشهد في هذا الصدد برسالة من الأديب الكبير ميخائيل نعيمة يشير فيها آنذاك من أنه لا يكاد يعرف من شعر الشابي غير بيته ذائع الصيت:

إذا الشـــعب يومًـــا أراد الحـــيـــاة

فـــلا بدَّ أن يســـتـــجـــيب القـــدر

وقد بين الأستاذ كرّو، وهو يتأمل إهمال تراث الأدباء والشعراء ما يجب أن تقوم به اللجنة التي ستعنى بتراث الشابي، فالأستاذ كرّو بين أنه لا يخشى موت الأدباء والشعراء ولكنه يخشى أن يضيع تراثهم ويذهب مع الريح.

وليس هدف ما سقناه هنا هو الحديث عن حضور الأدب والثقافة في المغرب العربي في مشرق الوطن العربي، بقدر ما هو بيان لحماسة الأستاذ كرّو للتعريف بالثقافة والأدب والفكر في مغرب الوطن وتكريس جهده الدؤوب في هذا المنحى النبيل، ولعل ما أعرفه شخصيّاً – وأنا واحد من جيلٍ تربى على المنهاج الأردني في التربية والتعليم – من شعر أبي القاسم الشابي يزيد على أصابع اليد الواحدة وكان شعره متداولاً بين أيدي تلاميذ المدارس، ولعل دورة أبي القاسم الشابي التي عقدتها مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في مدينة فاس بالمملكة المغربية عام ١٩٩٤، وما صاحبها من طبع المجلدات التي تتناول ديوانه ونقده ورسائله وصوره، وما كتب عنه، وكان للأستاذ كرّو الدور الفاعل في التحضير والإعداد، أرضت الرغبة الدفينة في أعماقه واستجابت لطموحه في التعريف بهذا الشاعر العربي الكبير، وشدَّت من روابط الألفة والمحبة والفهم المتبادل بين أبناء الوطن العربي الكبير الذي كان الأستاذ كرّو من دعاة وحدته وقوته ومنعته.

---

(١) كرو، دراسات عن الشابي ص٨٣.

وإذا كانت نشأة (أبوالقاسم كرّو)، قد بدأت نشأة قومية، فقد درس في دار المعلمين العالية ببغداد وأصهر إلى لبنان، فإنه ظل يفخر بوطنه تونس أشد الافتخار، وقد عزا ما كان لطه حسين من فضل إلى الشيخ عبدالعزيز جاويش الذي يتحدر من أصل تونسي، وليس غريبًا أن تجتمع في شخصيته الوطنيةُ والقومية، فهو محب لوطنه تونس عمل على خدمة ثقافتها بكل ما أوتي من طاقة، ومن يقرأ مقدمة كتابه «عصر القيروان»، تلفته تلك الحماسة المتقدة للمغرب عامة ولمدينة القيروان خاصة، تلك التي حفل تاريخها بالأمجاد المتعاقبة من خلال ما سطره زعماؤها وقادتها وشعراؤها وأدباؤها ونقادها ومفكرّوها من صفحات مضيئة في تاريخ العرب والمسلمين، إذ يقول في المفتتح: «لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة من مدنه، ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الإسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي أربعة قرون كاملة، ابتدأت على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة[1] ليذكر أسماء المعز لدين الله الفاطمي والمعز بن باديس الصنهاجي، وابن هانئ الأندلسي وابن رشيق والحصري القيرواني وابن شرف وغيرهم.

وهو في هذه الحماسة النادرة للبحث في ثقافة مغرب الوطن العربي والعمل من أجل نشرها وذيوعها لا ينسى قضايا وطنه العربي ويكرس نفسه في خدمة أمته العربية، ولعل المعركة التي أثارها كتابه «العرب وابن خلدون» حول اتهامه طه حسين بالتعصب والإقليمية ينبع من هذه النزعة القومية، بغض النظر عن صحة التأويل ودقة الاستنتاج. ولعل تأثره بساطع الحصري من الدلائل المبكرة على اتجاهه القومي الممتد من أمد طويل.

لقد أغنى (أبوالقاسم كرّو) المكتبة التونسية والمغربية بمؤلفاته وبحوثه التي تناولت كثيرًا من حقول الثقافة والمعرفة، فقد كان غزير الإنتاج تسنده حماسة متقدة، ظهرت في المهمات الثقافية التي قام بها في غير موقع، وفي المؤسسات والجمعيات والمجامع والهيئات التي رأسها أو كان عضوًا فيها محليّاً وقوميّاً وفي الصلات الممتدة مع نخبة من أعلام الأمة وفي المؤتمرات المحلية والقومية والعالمية التي شارك فيها، كل ذلك بإيمان منقطع النظير وبعزم لا يلين.

(١) أبوالقاسم كرو، عصر القيروان، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، د. ت ص٥.

وقد سلم الأستاذ أبوالقاسم محمد كرّو أخيرًا إلى مؤسسة الأرشيف الوطني التونسية أرشيفه الخاص في شكل هبة تامة دون مقابل ومن دون شرط. وتتضمن هذه الهبة مخطوطات أصول مؤلفاته ومراسلاته وعدة كتب ومقالات منشورة إلى جانب ٧٤ بكرة من الميكروفيلم تحتوي على نسخ من مخطوطات نادرة ونصوص أصيلة بخط عدد من أدباء تونس قدمت في حفل تأبين الشاعر (أبوالقاسم الشابي)، وتم تجميع هذه المادة على قرابة ستين سنة.

وإذا كان أبوالقاسم كرّو ينتمي بكل صدق وإخلاص إلى الثقافة العربية الإسلامية فإنه حاول أن يعرِّف بالثقافة والفكر والإبداع في تونس وسائر أقطار المغرب والأندلس، مصورًا عناية الكتّاب والنقاد والمبدعين بأدب المشرق، متابعًا أدباء الأندلس في إنحائهم باللائمة على أولئك الذين لا يرون إلا صورة الأدب المشرقي، فنرى الأستاذ كرّو يضع نصب عينيه أبا القاسم الشابي، ويلفت النظر إلى أعلام الثقافة المغربية في القديم من مثل الحصري وابن رشيق وابن خلدون إلى جانب أعلام الأندلس الكبار.

وليس من شك في أن جهود (أبوالقاسم محمد كرّو) تستحق التكريم، وقد سعت جهات متعددة لتكريمه، فنال لقاء ما يستحق الأوسمة والجوائز وحفلات التكريم اعترافًا بمكانته وتقديرًا لخدماته الجليلة في حقول الثقافة والفكر والمعرفة، فقد حصل عام ٢٠٠٣ على الجائزة المغاربية للثقافة.

وإذا كان من كلمة تقال في هذا المجال فإن كتابه «حصاد العمر» الذي يقع في عدة مجلدات أسهمت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بدعم نشرها، يضع أصابعنا على مكمن الأمل والألم عند الأستاذ (أبوالقاسم كرّو)، يقول الأستاذ كرّو في هذه المقدمة: «يضم (حصاد العمر) المقالات وبعض الكتب والكتيبات التي نشرتها في حياتي من عام ١٩٤٦ حتى الآن والتي لها علاقة مباشرة بموضوعه.. وهو في الدرجة الأولى كفاحي من أجل استقلال تونس أولاً.. والمغرب العربي ثانيًا.. ووحدة العرب ثالثًا»[1].

(١) أبوالقاسم كرو، حصاد العمر، ط١، دار المغرب العربي، تونس ١٩٩٨.

وهو يرى أن هذه الأهداف التي وضع من أجلها هذا العمل، وكل أعماله التي نشرها من قبل، أصبحت تزداد بعدًا بدل أن تقترب أو تتحقق، إذ يعترف وهو الذي كرّس حياته مناضلاً في سبيل وطنه والمغرب العربي والأمة العربية، أن آماله لم تر النور، فهو وإن اعترف بأن أحد أهدافه العامة في الحياة قد تحققت وهو استقلال وطنه تونس، وأن هدفين لم يتحققا هما وحدة المغرب ووحدة الأمة العربية، فإن جوهر الكلام يشير إلى أن الهدف الأول لم يتحقق هو الآخر أو ظل منقوصًا في الأقل، لأنه يرى أنه لا استقلال لوطن عربي بمعزل عن وحدة عربية منيعة تقف سدًا منيعًا في وجه الغزاة والطامعين.

أطال الله عمر الأديب الكبير الصديق (أبوالقاسم محمد كرّو)، ومتعه بالصحة والسعادة، وحقق آماله، وجعل ثمار جهوده دانية في وقت ليس ببعيد.

****

في معنى الانتماء

أ. أنس الشابّي(*)

خلال سبعينيات القرن الماضي عندما كنت طالبًا، وقعت بين يدي بعض مقالات الأستاذ أبي القاسم محمد كرو التي قرأتها، فأعجبني أسلوبه الطلي في الكتابة واليسر في انتقاله بالقارئ من فكرة إلى أخرى ومن معنى إلى آخر ووضوح العبارة وحسن اختيار موقعها، وأذكر أني سألت الوالد رحمه الله عنه، فأجابني بأنه من نبهاء الزيتونيين الذين ارتحلوا إلى المشرق للدراسة، وأنه عاد إلى تونس ولم يجد حظّه فيها.

تلك هي أول صورة ارتسمت في ذهني قبل معرفة الرجل ومعاشرته، بقيت منذ ذلك الوقت متابعًا لما ينشر الأستاذ كرو وكنت أراه في باب سيدي عبدالسلام. وهو في طريقه إلى بيته يقود سيّارته البيجو (٥٠٤).

وفي سنة ١٩٩٠ ألحقت للعمل بوزارة الثقافة في عهد الأستاذ أحمد خالد الذي عينني في العديد من اللجان. بعضها كان الأستاذ كرو عضوًا بها، وقد مكنتني الجلسات التي كنت أحضرها صحبته من معرفة أكثر بالرجل إنسانيّاً وعلميّاً. ذلك أن تساؤلات كانت تراودني حول الأسباب التي لأجلها يهمّش الأغزر معرفة ويطرح جانبًا الأثرى تجربة، في حين يصعَّدُ الأدنى والأقلّ والأحطّ.

ولماذا لم يبق الأستاذ كرو سوى سنة واحدة على رأس الدار العربية للكتاب رغم أنه صاحب خبرة في النشر والكتابة؟

ولماذا لم يكلّف إلا بوظائف هامشية تخللها إبعاده إلى طرابلس مديرًا للمركز الثقافي بها؟

للإجابة على هذا السؤال تجدر بنا العودة إلى:

١ - طبيعة النظام الثقافي والتعليمي الذي أرساه الرئيس بورقيبة في تونس بعد الاستقلال: وهو نظام يقوم على ربط تونس بالغرب وبفرنسا تحديدًا، خصوصًا على

(*) كاتب تونسي متخصص في الشؤون الإسلامية.

مستوى اللغة، وقد كلّف بهذه المهمة أحد عتاة المسخ محمود المسعدي الذي ألغى التعليم الزيتوني وقضى على نحبه إما بالإبعاد إلى دواخل الوطن أو بالتكليف بوظائف ثانوية، ولم يسلم من ذلك حتى المنتسبون للحزب الدستوري الحاكم[١].

كما همشت اللغة العربية وانحصر تعليمها في بعض المواد التي تقوم على التلقين كالنحو والصرف والعروض والتربية الإسلامية، أما المواد التي تربّي في الانسان ملكة النقد والبحث والمقارنة والموازنة فقد كانت تدرّس بالفرنسية.

بجانب هذا عمل النظام يومها إلى نحت شخصية الزعيم الأوحد والمجاهد الأكبر والمحامي الأول، وذلك عن طريق إغفال ذكر المناضلين وتهميش الأدوار التي قاموا بها والتهوين من شأن الشخصيات التي قدمت وهو أمر – في تقديرنا – لا يرفع قيمة الزعيم بورقيبة ولا يضيف له شيئًا بقدر ما يسيء إليه وينبئ عن جهالة المحيطين به ممّن كلفوا بالإشراف على الأجهزة التربوية والثقافية والإعلامية.

٢ – طبيعة المشروع الثقافي للأستاذ أبي القاسم محمد كرو الذي بشّر به، وروّج له، وهو مشروع نقيض لمشروع بورقيبة الذي أشرنا إليه أعلاه، هذا المشروع يقوم على ركيزتين:

أولاهما – الدفاع عن اللغة العربية وإشاعة استعمالها والترويج لها والإصرار على ذلك واستغلال كل المنابر أيًا كانت حدود تأثيرها، فعبر آلاف الأحاديث الإذاعية وآلاف المقابلات والمقالات وعشرات الكتب استطاع الأستاذ كرو أن يكون في طليعة الذين حافظوا على جذوة الانتماء الحضاري المتمسك بالهوية الوطنية والذاتية التونسية فـ«عداوة بورقيبة للعروبة والعرب لا أقبلها ونددت بها، ولعلي الوحيد في الإذاعة أيام كنتُ منتجًا بها أستخدم كلمة العروبة والعرب والعربي»[٢] كما ذكر الأستاذ كرو في حديث له.

ورغم أن النظام البورقيبي كان في عز قوته إذ خرج منتصرًا على صالح بن يوسف وحقق الاستقلال واستطاع القضاء على ما كان يسميه مؤامرات ضده، فإنه لم يتمكن من بناء شخصية وطنية متزنة وهو ما سيظهر لاحقًا في تيارات سياسية وإيديولوجية بعضها

---

(١) مذكرات المناضل علي المعاوي: نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس ٢٠٠٧.

(٢) حصاد العمر، ٦، ١٨٤.

وصل إلى حد استعمال العنف والإرهاب وذلك لأن الشعوب التي تريد أن تبني شخصيتها الوطنية لا تبنيها على هذه الاعتبارات المتحولة والزائلة، بل تبنيها على الثوابت ومن الثوابت اللغة الوطنية[1] لهذا السبب بالذات تتنزّل الأهمية التاريخية لصدور سلسلة (كتاب البعث) في إطار التأكيد على الهوية الوطنية.

كتب المؤرخ الثبت محمد الصالح المهيدي في مقال له مؤرخ في ١٥ ماي ١٩٦٣ ولم ينشر للآن، وعثرنا عليه في أرشيفه بدار الكتب الوطنية متحدثًا عن ظروف نشأة (كتاب البعث): «.. كان جماعة نادي القلم ومن بينهم المطوي وكرو في حاجة إلى مجلة ينشرون على صفحاتها ما تجود به أقلامهم بعد توقف (الندوة) عن الصدور، لكن جماعة النادي انضم إليهم مدرسون تخرجوا من معاهد فرنسية وجمعتهم زمالة التعليم في مدرسة العلوية الثانوية بتونس، وكان من بين هؤلاء محمد المزالي وكان هؤلاء الأخيرون يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم أجدر من الزيتونيين بالقيام بمهمة التأليف والطبع والنشر، إلى جانب ذلك كانوا يدعون أيضًا بأن الزيتونيين الذين تخرجوا من المعاهد العالية بالشرق ليس لهم من المؤهلات حتى في ميدان التعليم ما يجعلهم يقفون إلى جانبهم في الميادين التربوية والثقافية، لذلك تسلل المدرسون في صف النادي بزعامة المزالي وقرروا أن ينشئوا مجلة شهرية، أما قضية إصدار الكتاب الشهري فقد عدلوا عنها لأن أحد أعضاء النادي قال في جلسة من الجلسات التي عرض فيها المشروع على الجماعة وهو الأستاذ كرو أن باستطاعته أن يقوم بالمشروع وحده مهما كلّفه ذلك، وكان من نتيجة هذا التسلل بروز مشروعين كل واحد منهما له استقلاله، أحدهما بروز مجلة الفكر بداية شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ واستقلّ بها المزالي. وثانيهما بروز (كتاب البعث) الذي قام على كاهل الأستاذ كرو وحده حيث صدرت الحلقة الأولى منه في نفس التاريخ الذي صدر فيه العدد الأول من مجلة الفكر.

ومن الجدير بالملاحظة أن العدد الأول من (كتاب البعث) صدر في ظرف تستعد فيه البلاد لنيل سيادتها حاملاً عنوانًا هو في الأصل شعار الخطوة الأولى لبناء دولة الاستقلال فـ«نداء للعمل» وإن كان عنوان كتاب إلا أنه كذلك عنوان يؤشر على طبيعة المهام

---

(١) حصاد العمر، ٦ / ١٥٩.

الواجب إنجازها في مرحلة تاريخية يستعد فيها الشعب للأخذ بيده مقاديره بنفسه وهو ما دأب النظام الجمهوري الجديد على تسميته بالجهاد الأكبر.

ولا يفوتني في هذا الإطار الإلماع ولو بإيجاز إلى ما يفصل بين البعث الحزب والسياسة والبعث الكتاب والمضمون، فرغم أن للأستاذ كرو سابقة الانخراط التنظيمي والتأسيسي في حزب البعث، إلا أن السلسلة التي أسسها وحملت نفس الاسم لم تكن ملفقة ولا مروجة لمفاهيم وأطروحات إيديولوجية.

والناظر في قائمة كتاب (البعث) ومنشوراته التي بلغ عددها ٣٧ مؤلفًا يلحظ بجلاء أنها تناولت فنونًا ومعارف شتى (التاريخ، النقد الأدبي، الاقتصاد، القانون..) بأقلام كتّاب مختلفي المشارب الفكرية والانتماءات السياسية: (الطاهر معز، عثمان الكعاك، منير شماء، محجوب بن ميلاد، محمد المزالي، أحمد رضا حوحو، سليمان مصطفى زبيس، محمد المرزوقي..) تناولوا فيها كبرى المشاكل المطروحة إلى الآن على مجتمعاتنا: (المرأة، الديمقراطية، العلاقة مع الآخر: فرنسا مثلاً، الانتقال إلى المرحلة الصناعية، ضبط المفاهيم وتحديدها منعًا لانتشار البلبلة وأوهام السوق..) بعد بناء مغرب عربي لحمته الثقافية وسداه التنوع.

لكل ما ذكر نرجح أن (كتاب البعث) يستمد تسميته من جذره الثلاثي (ب. ع. ث) الذي يعني من بين ما يعني، الإيقاظ والحمل على الفعل وحل العقال والهبّة والاندفاع والنهوض والتواصي وهي دلالات تجد لها ما يسوغها في السلسلة ومنشوراتها.

ولعل دراسة أكاديمية حول هذه السلسلة وظروف نشأتها ومضامينها وكتابها.. كفيلة بتمكيننا من رؤية أدق وأشمل لتاريخنا الثقافي.

لم يتوقف نشاط الأستاذ كرو في ميدان النشر باللغة العربية عند حدود السلسلة المشار إليها، بل أصدر مجلة «الثقافة» التي لم تكتب لها الحياة، لأن صاحب مجلة الفكر بما كان يمتلك من سلطة سياسية وقرب من أصحاب القرار حارب كل المجلات الثقافية، واستعمل كل الحيل والألاعيب للقضاء عليها بحيث لم يبق في البلاد سوى مجلته هو فقط، ومن النوادر أن الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم حاول إصدار مجلة ثقافية، إلا أنه لم يُمكّن من ذلك بعد توزيع العدد الصفر منها.

ذاك هو الوضع الذي كان عليه النشر الثقافي في بلادنا وتلك هي الظروف التي كان الأستاذ كرو يتعامل معها للمحافظة على اللغة العربية التي هي قاطرة الهوية الوطنية والذاتية التونسية.

وثانيتها إشاعة الانتماء للوطن وذكر رجاله. فالوطن ليس قطعة من التراب، بل هو جماعة بشرية بالأساس ترتبط فيما بينها بوشائج نسجها التاريخ وصاغها الرجال، لذا فالروح الوطنية ليست علَمًا يرفع ولا نشيدًا يغنى ولا قصيدًا يتلى، بل هي الارتباط الوثيق بصانعي تاريخه والحاملين عبء النهوض به والمنافحين عن ذاتيته والمدافعين عن مصالحه، هذا الارتباط وسمّه إن شئت الالتحام لا يتأتى إلا بواسطة الإشادة بذكر كل من قدّم عملاً صالحًا للوطن وكل من ساهم في إحياء روح الانتماء والاعتزاز بأهله.

في هذه الرؤية لم يتوقف الأستاذ كرو عن التعريف بالمغمورين من أبناء الوطن وإحياء ذكرهم بنشر المقالات والكتب عنهم، ولا عجب في ذلك إن وجدناه أول من كتب كتابة علمية عن الطاهر الحداد الرائد المغبون، وهو فضل يذكره له الباحث المرحوم نور الدين سريّب الذي ذكر في مقاله أن أول من عرفه بالحداد هو الأستاذ كرو[1].

وقد تتالت الدراسات لتتناول أهم رموز النهضة الفكرية والاجتماعية في تونس كخير الدين باشا وعلي الورداني والخضر حسين وعبدالرزاق كرباكة وسليمان الحرائري وابن منظور والتيفاشي والحبيب ثامر.. وغيرهم، وبالطبع لم يغفل الأستاذ كرو مسقط رأسه قفصة وأعلامها فخصّها وخصّهم بدراسات تندّ عن الحصر.

ويهمنا في هذا الإطار الإشارة إلى نقطتين:

أ - عناية الأستاذ كرو بأبي القاسم الشابي حيث نشر عنه موسوعة في ستة مجلدات هي حصيلة أربعين سنة من الجمع والبحث والجهد المتواصل الذي لم يترك شاردة ولا واردة عن الشاعر المذكور إلا أشار إليها وأوردها.

---

(١) تاريخ المجتمع المحلي وثقافته، الجنوب التونسي نموذجًا دورتا ٢٠٠٠ - ٢٠٠١، ندوة تحت إشراف د. سالم لبيض، منشورات اللجنة الثقافية المحلية بجرجيش، ٢٠٠٣ ص ٥٤..

وللحقيقة فإن هذه الموسوعة إن كان مركزها ابو القاسم الشابي فإنها لا تخصّه وحده، بل هي موسوعة عن الحياة الفكرية والثقافية في تونس في النصف الأول من القرن العشرين لا غنى عنها لأي باحث أو دارس.

ب – الاهتمام برواد النهضة الفكرية في المشرق العربي وتأثيرها في المدرسة التنويرية التونسية. ولعل دراسة الأستاذ عن (نازلي هانم) تتنزل ضمن هذا التصور فقد كانت هذه الأميرة قطب الرحى في صالونها في مصر، حيث نبتت أهم الأفكار التي ستلعب دورًا أساسيًا في الحياة السياسية والثقافية، وحملها رواد من جُلاّس صالونها كقاسم أمين ومحمد عبده وسعد زغلول... وهي كذلك في تونس لما قدّمت وتزوجت خليل بوحاجب ابن المصلح الكبير سالم بوحاجب وأحد أعضاد خيرالدين باشا، فقد جمعت الأميرة المصرية في صالونها في تونس البشير صفر وعبدالجليل الزاوش وعلي بوشوشة وعبدالعزيز الثعالبي والطاهر ابن عاشور.. أي أنها أثّرت في المجموعة التي عنها صدرت جرائد كالحاضرة والتونسي.. وغيرهما وأسّست جمعية الشبان التونسية والحزب الحر الدستوري التونسي وروّجت لإصلاح التعليم الزيتوني.

وهو في بحثه هذا يثبت لكل ذي عينين أن فصل تونس عن إطارها الحضاري واللغوي والتاريخي ليس إلا حرثًا في الماء ومآله إلى زوال طال الزمان أو قصر لأن: «العروبة ليست هدفًا استراتيجيًا ولكنها موجودة في الشعور وفي الفكر»[1].

أما غزارة الإنتاج ودقته وتنوعه قد يعجز المرء عن الإحاطة به ولكن كلمة الوفاء ضرورة أخلاقية وسياسية عرفانًا بالجميل لمن استطاع بقلمه وبلسانه أن يحافظ على السند العلمي في هذه الأرض الطيبة.

قال الشيخ الطاهر القصار في وصف حال من لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا.

والمرءُ تَرْفَعُ ذكرَه آثارُهُ
فيعيشُ بين مُمجِّدٍ ومعظّمِ

****

(١) حصاد العمر ٦/ ١٠٦.

هذا الرجل

أ. د. خليفة محمد التليسي(*)

هذا الرجل النبيل، هذا الأستاذ الكبير، هذا الصديق العزيز ربطتني به صداقة كريمة نبيلة توشك أن تبلغ في عمر الزمن نصف قرن، وجمعتنا هذه الصداقة الكريمة النبيلة على أجمل ما يجتمع عليه الأصدقاء من الود والصفاء والإجلال والتقدير المتبادل، وإني لأرجع اليوم بالذاكرة إلى بدايات هذه الصداقة وامتداداتها وما ترتب عليها في حياتنا الثقافية العربية، فأجد أنه قد تحقق لنا ولهذه الثقافة مكاسب كبيرة وعديدة يحتاج المرء في استعراضها والتذكير بها إلى دراسة مطولة يستدعي فيها الذكريات المشتركة، فلا تكفي فيها كلمة قصيرة خصصت أصلاً للتحية والتقدير.

وأدير بصري في الرقعة الواسعة التي هي الوطن العربي شرقيّه وغربيّه لأجد شخصية تشبه شخصية أبي القاسم كرّو في ما تحدد لشخصيته من خصائص، وما عرف به من صفات ثقافية، فلا أرى أحدًا ممن عرفت قد توافرت له هذه الخصائص التي تمثلت في مرجعيةٍ ثابتة راسخة لا ينكرها عليه أحد في التاريخ الثقافي التونسي قديمه وحديثه، ثم تنتقل هذه المرجعية وتتوسع وتجد امتداداتها وصلاتها وجذورها في التاريخ الثقافي المغاربي قديمه وحديثه، ثم تنتقل هذه المرجعية إلى دائرة أوسع هي دائرة علاقاته وصلاته الشخصية المباشرة بالحركة الثقافية العربية في قديمها وفي حديثها الذي تتحرك فيه، في إطار من الوشائج والصلات والعلاقات الثقافية الشخصية بأعلام الفكر والأدب والشعر وكل ما يتصل بشؤون الثقافة العربية في العصر الحديث. هذه الأطر الثلاثة التي تحركت فيها بطلاقة وسماحة شخصية أبي القاسم كرو فصنعت له هذا الحضور المشهود المذكور بكل تقدير واعتراف وإجلال من جميع من عرفوه وتحركوا معه وبرفقته في هذه

(*) اكاديمي ليبي من مواليد مدينة طرابلس عام ١٩٣٠ يكتب في مجالات الشعر والقصة والترجمة والنقد والتاريخ. له مؤلفات ودواوين شعر عديدة.

الدوائر الهامة. فهو في هذا الباب شخصية فريدة حقًا استطاع أن يوفق بنجاح نادر بين اهتماماته بالمغرب العربي واهتماماته بالمشرق العربي وهو أمر لم يتحقق إلا لقلة قليلة يأتي في طليعتها بلا جدال أبوالقاسم كرو.

عرفت الرجل في أول لقاء لنا بطرابلس بعد عودته من العراق متخرجًا من دار المعلمين العليا التي جمعته في رحابها إلى كثير من أعلام الحداثة الشعرية العراقية. وقد عمل الأستاذ أبوالقاسم كرو مدرسًا في مدارس طرابلس الثانوية. وكانت طرابلس في تلك الفترة تعجُّ بالمناضلين التونسيين الذين اتخذوا منها قاعدة لعملهم السياسي والنضالي لتحرير تونس. وكانت قضية استقلال تونس وبلدان المغرب قضية رئيسية شاغلة للأذهان والوجدان، باعثة على العمل الوطني، وكان واضحًا لدينا أن الأستاذ أبوالقاسم كان منخرطًا في العمل السياسي إلى جانب العناصر الوطنية التونسية التي اتخذت من طرابلس قاعدة لعملها. وكان إلى جانب هذا العمل الوطني الذي يقوم به في حماس كبير ونكران للذات يقوم بنشاطه الثقافي المعتاد في التعريف بالحركة الثقافية التونسية.

وكان في عشقه للشابي ومتابعته لمريديه والعاشقين له قد علم بأن هناك شابًا اسمه خليفة التليسي كان قد ألقى عن الشابي في سنة ١٩٥٠ في الموسم الثقافي الذي نظمته رابطة المعلمين حينذاك محاضرة عن الشابي، داخلة في إطار التعريف بهذا الشاعر وإذكاء الحماس لقضية تحرير المغرب العربي التي كانت الشغل الشاغل لنا كبلد مجاور. وكنت قد التقيت وحدي بشعر الشابي للمرة الأولى وأنا فتى في مطالع الشباب، فيما وقع في يدي من أعداد مجلة أبوللو كانت موجودة بمكتبة الأوقاف إلى جانب قصائد أخرى حصلت عليها من بعض المجلات المصرية والتونسية مثل الهلال والرسالة ومجلة الثريا التونسية وجريدة الأسبوع التي كان ينشرها نورالدين بن محمود. وقد جمعت لدي مجموعة من القصائد حفظت بعضها حفظًا في الذاكرة مثل إرادة الحياة وصلوات في هيكل الحب والنبي المجهول ونشيد الجبار، فكانت من نتيجتها تلك المحاضرة التي مثلت انطلاقتي الأدبية الأولى وأسست للعلاقة الوجدانية بيني وبين تونس الحبيبة، كما كانت الهيكل الذي

أقيمت عليه من بعد دراستي المعروفة باسم «الشابي وجبران» وقد جمعنا حب الشابي وتقدير عبقريته في مناسبات عديدة منها أربعينية الشابي التي شاركت فيها بدراسة عن (الشابي ناقدًا) وخمسينية الشابي التي أعلنت فيها رأيي المعروف في قضية الشعر العربي في بلاد المغرب العربي وقلت فيها إن الشابي هو أول من أسكن الشعر في بلاد المغرب العربي.

وقد كان الشابي على الدوام محورًا رئيسيًا في أحاديثنا الأدبية. ولم يحدث في تاريخ الأدب العربي الحديث ولا القديم أيضًا أن تخصص أديب واحد في شاعر واحد يعكف عليه يدرسه ويتتبع تراثه وآثاره وأعمال الدارسين له من عرب وأجانب كما فعل الأستاذ أبوالقاسم مع سميه الشاعر أبي القاسم الشابي، وهذه ظاهرة حضارية متقدمة على عقلية بعض المتخلفين الذي يرون في مثل هذا التخصص محدودية في الأفق.

وهو أمر لا يحسن تقديره، إلا من يعرف أن التخصص في فرد أي فرد عبقري، هو تخصص في الكيان الفكري الشامل الذي أنتجه بعصوره المتقدمة عليه، وعصره الذي يعيش، وأثره في العصور التالية له، وهو أمر قد يتجاوز أحيانًا عمر الفرد الواحد وجهد الفرد الواحد، ومن هنا نكرر القول بأن جهد أبي القاسم الأدبي النقدي التاريخي البيبلوغرافي يفوق جهد المؤسسات المتخصصة التي لن تقوم به إلا بتكاليف باهظة ولجان إتكالية.

وقد توج هذا الجهد بذلك العمل الموسوعي الذي ضم كل أعمال الشابي الشعرية والنثرية ورسائله وبعض ما كتب عنه، وبيبلوغرافية علمية نادرة شاملة نشرتها مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وكان من وراء هذا العمل الضخم أبوالقاسم كرو الذي أقام نصبًا تذكاريًا في المكتبة العربية للعبقرية الشعرية التونسية ممثلة في أبي القاسم الشابي العظيم. وهذا العمل وحده يدل على نضال أبي القاسم كرو والمكاسب التي يحققها لتونس من وراء تمثيله لها في الساحات العربية ويستحق فيه بصدق انحناءة تقدير من كل التونسيين المنصفين المقدرين لجهود هذا الرجل المحب

المخلص في حبه ووفائه لبلاده. وأشهد أني ما جلست إليه مرة وما سمعته متحدثًا أو محاضرًا، إلا وكان التعريف بتونس وحركتها الثقافية وأعلامها هو شغله الشاغل، وقد رأيته في أكثر من مناسبة يفتح الصدر ويفسح المجال ويعرف بأعمال وإبداع بعض من لا يلتقي معهم فكريًا، ولكن تونسيته وديمقراطيته وتقديره للحرية الفكرية تكسبه هذه الرحابة التي يتمتع بها في التعامل مع كافة التيارات والاتجاهات.

لقد كان الشعراء القدامى يعيشون في رواتهم الذين يروون عنهم بما يحقق لهم الامتداد والتواصل والخلود، ولولا الدور الذي قام به الرواة كذاكرة شعرية حافظة، لما وصل إلينا هذا الرصيد الحضاري الضخم. وقد قام أبوالقاسم كرو بدور (الحافظ) لتراث الشابي. وقد كان الشابي محظوظًا في أبي القاسم كرو الذي أحبه وأخلص له بصورة لم تتحقق لأي شاعر عربي معاصر، فقد عاش إلى جانب الشابي شعراء عرب كبار وبعضهم مات مثله في غضارة الشباب مثل فوزي المعلوف ولكن أحدًا لم يُعنَ بهم عناية أبي القاسم كرو بشاعره الخالد العظيم.

ولم يقتصر جهد أبي القاسم كرو على التعريف بالشابي والعناية بتراثه، فإنَّ سجلَّ مؤلفاته يكشف عن شخصية ثقافية متعددة الاهتمامات، متنقلة بجدية ومنهجية بهذه الاهتمامات إلى أعلام النهضة الحديثة وأعلام الثقافة التونسية، إلى اهتمام بالتراث القديم وتحقيقه ودراسات لغوية ومشاركات متعددة مختلفة لا تقع تحت الحصر معروفة للجميع، إلى مشاركات إبداعية ومتابعات فكرية للواقع المعاصر في تونس يكشف عن عقلية متحررة تعيش عصرها في غير تزمت ولا انغلاق تأخذ عنه وتعطيه في غير ما عقد أو أحكام مسبقة تصده عن التفاعل مع التيارات الفكرية الحديثة. على أن هذا الجهد التأليفي المتعدد الجوانب والاختصاصات لا يكفي وحده في الحكم على شخصيته، ولا بد للمنصف من أن يذكر بأن الجهد العظيم الذي قام به أبوالقاسم كرو فردًا، أي وحده، تعجز عن القيام به مؤسسات من ورائها الدعم المعنوي والمال الوفير. لقد كان أبوالقاسم كرو في نظر المنصفين لجهوده، المقدرين لها مؤسسة ثقافية وحده في نهوضها بأعباء التعريف

بتونس الثقافية في الداخل والخارج والدفاع عن الوجود الثقافي العربي فيها وفي المغرب العربي. ويومَ تُنصِفُ هذه الأمة رجالَ الثقافة وتقدر معنى النضال في سبيل الثقافة العربية، فإن مكانًا في الصدارة ينتظر أبا القاسم كرّو بحق وجدارة وكفاءة نادرة.

اقول لن يتحقق له حجمه الكامل إلا باستحضار ذلك الجهد النشيطي الضخم الذي قام به أبوالقاسم على الساحة التونسية ثم الساحة العربية، والذي يتمثل في ذلك النشاط الثقافي العام الذي قاده أو شارك فيه او كان أحد منظميه، من مؤتمرات وندوات ومحاضرات وملتقيات يعترف له الجميع فيها بقدرته التنظيمية الفائقة، يضاف إلى ذلك تلك الدائرة الواسعة من العلاقات التي تهيأت له بسبب هذا النشاط مع أعلام الأدب والفكر العربي المعاصر في الوطن العربي، فليس هناك بلد عربي لم يعرف لأبي القاسم كرو مشاركة له في نشاط، وما من علم أدبي أو فكري إلا وقامت له صلة به، وأقدر أنه يتوافر في مكتبته على عديد من رسائل أعلام العصر إليه، وهو يذكرنا بأعلام النهضة العربية الحديثة في علاقاتهم الحميمية الودية التي تبدو عبر المراسلات والزيارات الأمر الذي افتقدته البيئات العربية الحديثة. وما من شك في أن هذه المراسلات إضافة إلى الذكريات تجعل من أبي القاسم كرو سجلاً ثقافيًا ضخمًا لا بالنسبة إلى تونس وحسب، بل وللبلدان العربية قاطبة. وليس من المبالغة في شيء، ولا من الإفراط في المجاملة أن تقول إنه جاءت فترة لم يكن المثقفون يعرفون تونس إلا من شعر الشابي العظيم، ومن جهود أبي القاسم كرو في التعريف بهما معًا أي بالشابي وتونس. وإذ كان من طبيعة الأشياء أن تشعر الأجيال الجديدة بقدرتها على تجاوز الأجيال القديمة وأن تسعى الآن لرفع أعلام تونس الثقافية في كل مكان، فإن من طبيعة الأمور أن لا تنسى أولئك النفر الذين عملوا لكي يضعوا خطوها على الطريق القاصد وهيأوا لها المكان الذي يمكن أن يركزوا فيه أعلامهم عالية خفاقة.

وفي هذا الباب فإن تقديرًا خاصًا ينصرف إلى أبي القاسم كرو، هذا التونسي المغاربي العربي الإنساني الذي يتطابق عمله التأليفي مع نشاطه وتنشيطه، ليصب كله في

مصب واحد هو خدمة الثقافة العربية والغيرة عليها وتوثيق صلة الأجيال بها واحتضان مواهب هذه الأجيال من رجالية ونسائية. وفي هذا الباب تبرز شخصية أبي القاسم كقوة دفع واحتضان لهذه المواهب التي أخذ بيدها من حيث المشاركات أو التشجيع على النشر، وله تلاميذ في كل مكان يذكرون فضله عليهم ورعايته لهم.

أما علاقته بليبيا فقد كانت وما تزال من أقوى العلاقات. ويحفظ له أدباء ليبيا ومثقفوها أجمل الذكريات عن الفترات التي أقامها بينهم سواء في الفترة الأولى التي وفد فيها على ليبيا مدرسًا في مدارسها الثانوية أو الفترات التالية التي عمل فيها مديرًا للمركز الثقافي التونسي، وقد كانت فترة قيامه على هذا المركز من أحفل الفترات بالنشاط الثقافي وقد كانت شخصية أبي القاسم كرو شخصية محورية يجتذب إليها المثقفين. وقد كانت صداقاته وحدها كافية لأن تملأ المركز بالمترددين عليه المداومين على نشاطه كما شغل الأستاذ أبوالقاسم منصب المدير العام للدار العربية للكتاب لمدة سنة، وكان عضوًا بمجلس إدارتها لمدة سنتين في المرحلة الأولى، كما كان عضوًا في لجنة المفاوضات من أجل إنشائها، فهو مشارك فعال في التأسيس لهذه الدار التي ما تزال قائمة كمؤسسة ثقافية فريدة ومشتركة بين البلدين.

وقد كان أبوالقاسم رفيقًا لي في المرحلة الأولى من بناء الدار، كما كان رفيقًا لي في أكثر الاجتماعات والمؤتمرات والملتقيات والندوات واللجان المشتركة التي كانت تعقد بين البلدين، كلما اتجهت النية إلى التعاون والتنسيق الثقافي، فهو في هذا كله من أصدقاء العمر ورفقاء الخندق الواحد.

إن أبا القاسم كرو قيمة ثقافية عالية وشخصية أدبية راقية، وباحث موضوعي جاد، ومسؤول ملتزم، وهو رجل يمثل أقصى درجات الانضباط فيما يلقى عليه من مسئوليات أو فيما يأخذ على نفسه من التزام، إلى قلب ودود يفتح نفسه لكل الناس، وذهن منفتح يعي عصره ويعيش في واقعه، وعقلية مستنيرة فيما تتصدى له من قضايا اجتماعية تبدو في كثير من مقالاته التي يرصد فيها الواقع الاجتماعي التونسي، أو العربي، وهو إلى جانب

ثقافته العربية الطاغية على تكوينه، يحفظ للثقافات العالمية مكانها من نفسه، ويتفتح عليها في غير خوف ولا عقد ولا تحفظ ويدرك من جوهرها الحضاري ما لا يدركه الذين يلوكون بعض الكلمات الأجنبية يدارون بها جهلهم، وهو في ذلك يلتزم النهج الذي التزمه شيخه الصغير الكبير أبوالقاسم الشابي.

ماذا أقول؟ كان بودي أن أتناول جانبًا واحدًا من جوانب شخصية هذا الصديق، فوجدتني مأخوذًا بالحديث الشامل عنه، آخذ شخصيته وأعماله جملة واحدة، وأنا واثق من أي جانب تأخذ في شخصيته المتعددة إنما تنتقل فيه من الجانب الغني إلى الجانب الأغنى وأنت في جميع الأحوال الرابح الغانم.

ألم أقل لكم في بداية المقال أني أقلب بصري في هذه الساحة العربية لأجد صدرًا موشحًا بالأوسمة كصدر أبي القاسم في معاركه ونضاله واستماتته وانخراطه والتزامه بقضايا الثقافة العربية فلا أرى أحدًا. ربما وجدت من ينافسه على صعيد الاهتمام المحلي، كأن يهتم العراقي بالعراق والسوري بسوريا والمصري بمصر والليبي بليبيا، أما أن تجد هذه الشخصية في احتضانها لتاريخ الحركة الثقافية العربية في حديثها خاصة كهذا الاحتضان الذي نلقاه عند أبي القاسم والذي يوفق فيه ببراعة نادرة بين اهتمامه بتونس ثم بلدان المغرب، وبلدان الساحة العربية، فأنا لم ألتق به في غير هذه الشخصية النادرة التي هي شخصية أبي القاسم كرو. لقد كان أبوالقاسم تونسيًا كأجمل وأعرق ما تكون الصفة التونسية، كما كان مغاربيًا بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى، وهو فوق هذا وذاك عربي بأكثر ما تعني كلمة عروبة من أصالة وجذور عريقة.

وفي سيرة أبي القاسم كرو أمثلة من العصامية والقدرة على تجاوز الظروف الصعبة في سبيل التكوين الثقافي وبناء الشخصية يصح أن توضع نموذجًا لكثير من الشباب، يتأسون بها في كفاحهم من أجل تحقيق شخصيتهم وتأكيدها، ولو عكف الأستاذ أبوالقاسم على كتابة سيرة ذاتية، لقدم لنا عملاً يضاف إلى أعماله الأخرى ليكتمل إطار الصورة التي عاشتها هذه الشخصية متشابكة ومتداخلة ومندمجة في أحداث عصرها

السياسي والثقافي والفكري والأدبي في الدوائر الثلاث التي تحركت فيها شخصيته الثقافية أي التونسية والمغاربية والقومية، وما من شك في أنه يتوفر على ذخيرة كبيرة من الذكريات التي تكون مادة حية لهذه السيرة، فما من أديب أو مفكر عربي مرّ بتونس إلا وكان لأبي القاسم كرو معه لقاء وحوار، وما من أديب أو فنان من هؤلاء إلا ووضع في ميزان أبي القاسم كرو بما يعطيه حقّه من التقييم، فلم يعرف عنه الانبهار بالأسماء اللامعة قدر انبهاره بالعبقريات اللامعة والمواقف المتألقة والشخصيات النادرة في علمها وسلوكها. وخزينته من الصور الذهنية والفوتوغرافية عامرة تسعفه بأن يقدم إلينا عملاً من أعماله الفائقة وإنا لمنتظرون.

أطال الله في عمر الصديق العزيز ومتعه بالصحة والعافية، وشكرًا على ما قدم لنا جميعًا من أعمال جليلة. يذكرها أحبابه وتلاميذه بعرفان عظيم، وتحية من القلب إلى هذا الرجل الكبير القلب.

****

أبوالقاسم محمد كرو
ذلك الفتى العربي: شهادة صديق

أ. د. زكي الجابر(*)

إذن هو مِثْلُنا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويعشق، إنه ذلك الفتى المطوق بياسمين تونس، يطوف أبهاء دار المعلمين العالية ببغداد، يحمل كتبه، ويستمع، ويناقش إنه مثلنا. إنه حديثنا.. وحديثهن.

لقد كان أبوالقاسم محمد كرو مِثْلنا، ولكنه مختلف. هو مِثْلنا في الهم العربي، والعمل السياسي، وتذوق الأدب، ولكنه يختلف بقامته الفارهة وبثقافة آتية من هناك تحمل رذاذ المتوسط، وإيقاعات أبي القاسم الشابي.

واعتركتنا دار المعلمين العالية طلابًا يافعين نحلم بصناعة مستقبل عربي يتسع لأحلام المتعبين ويحيلها خبزًا وورودًا وقصائد. وإذا ما تساءلت عن هذه الدار فأجيبك إنها تلك التي تمخضت عبقريتها عن عبقريات بدر السياب ونازك الملائكة وسليمان العيسى وعبدالوهاب البياتي.. وكانت «ساعة يوم الإثنين» فيها مشهودة حيث ينتصب على منصة قاعتها العريضة صفوة أهل الفكر يطرحون آراءهم للنقاش والمساءلة في جو يختلط فيه لهيبان: الحماس السياسي والحماس الأدبي. وفي هذه الدار ولدت جمعية الثقافة العربية، التي كان من أقطابها أبوالقاسم محمد كرّو.

ولم تكن تلك الجمعية غير تجمع عربي قومي، ينتمي إليها ويتفاعل في أنشطتها ومعها أولئك الفتية الذين تشغلهم قضايا العرب في مشرق الوطني الكبير ومغربه، أولئك الذين يعيشون تطلعات الجزائر وتونس وفلسطين وغيرها من أقطار العرب. وما هذه التطلعات إلا تشوقاتهم ونضالاتهم لتحقيق الوحدة العربية، والتخلص من التبعية والعيش تحت رايات الكرامة والعدالة الاجتماعية.

(*) شاعر وكاتب وخبير إعلامي عراقي.

لقد كان أبوالقاسم محمد كرو في المعركة يمسك بيده جمرة العشق العربي، ويتردد على جريدة «اليقظة» المسائية البغدادية، يحمل إليها نشاطات الشباب القومي العربي الفكرية والسياسية لتُسطَّر على صفحات تلك الجريدة لتتناقلها بعد ذلك الألسنة في مقاهي بغداد ومنتدياتها، ومن ثم إلى التجمعات العربية الوحدوية في كل أرجاء الوطن العربي وخارجه.

وإذا ما قلت إن أبا القاسم كان في المعركة، فإنني أعني في الصميم منها لا حواشيها وأطرافها. أما مَثَله الذي يسير في كينونته مسرى الدماء، فقد لقنه عن أستاذه الدكتور محمد مهدي البصير، لقد حرم الله البصير نعمة البصر، ولكن وهبه نفاذ البصيرة، وصدق السريرة، وحاسة الذوق الأدبي الرفيع، والإلقاء الجميل، وبهذه الصفات المتميزة انغمر في ثورة العشرين العراقية ضد الإنجليز، فكان شاعرها وخطيبها وقائدًا من قادتها. وفي كتابه «خطرات» ذهب إلى القول بأن من السهل أن تكون شاعرًا ممتازًا، أو أديبًا بارعًا، وسياسيًا ماهرًا، ولكن من الصعب أن تكون رجلاً. لقد لقن أبوالقاسم ذلك وعاشه، فكان رجلاً بكل ما تحمل الرجولة من معاني المروءة والشهامة والإيثار والثبات على المبدأ والدأب على النضال والصبر على الشدائد.

لست أنسى ذلك اليوم الذي كان فيه على أبي القاسم محمد كرو أن يلقي محاضرة عامة عن أبي القاسم الشابي حين وافاه النبأ الفاجع، نبأ وفاة والده بتونس. فلم يستطع الاحتمال، وهو الأديب المرهف، السيطرة على مشاعره، فدفن رأسه بين كفيه في حديقة «الدار» ليخفي دموعه التي لم تكن تخفى على أصدقائه وأحبابه. وظل على هذه الحال ساعات الصباح وشطرًا من المساء حتى إذا حان وقت المحاضرة، ارتشف دمعه، ومسح وجهه وارتقى المنصة بكل حيويته ورونقه ليحاضر لمدة تجاوزت الساعتين متحدثًا عن حياة الشابي وشعره مستشهدًا مترنمًا بأكثر من قصيدة لم تكن قد طرقت بعد آذان متتبعي الشعر التونسي في العراق. ولقد كان للمحاضرة صداها وجدواها، حتى انك لا تجد بعد ذلك أحدًا من متتبعي الأدب وعشاقه إلا وهو يردد بعضًا من رائية الشابي: «إذا الشعب

يومًا أراد الحياة...»، أو داليته: «عذبة أنت كالطفولة...» أو سينيته: «أيها الشعب ليتني كنت حطابًا...» وربما لم يكتف البعض بترديد السينية مع نفسه، بل هتف وغدا على تهيؤ لكي يهوي بفأسه على الجذوع!

لقد كانت جمعية الثقافة العربية مدرسة قومية عربية وكان كاتبها العام، ذلك الفتى أبوالقاسم محمد كرو، يعكس إيمانه بأمته ونضالاته من خلال أنشطتها، ومن خلال ممارساته بين صفوف الشباب العربي. ولقد تقدم السن بذلك الفتى ولقيته خلال الثمانينيات في تونس فوجدته كما عهدته في تلك الجمعية في الخمسينيات يحمل الهم ذاته، ويحلل مشكلات الأمة بما اكتسب مع السنين من حكمة التجربة، ودقة التبصر، ورشادة القراءة. وما أعجبني فيه هو أن الحماس ما زال ذلك الحماس وما زال ماسكًا على جمرة العشق العربي. وإلى كل ذاك فقد وجدته وعلى محياه ذلك الإقبال على الحياة، وعلى ثغره تلك الابتسامة الساخرة. لقد كان أبوالقاسم مثلنا.. ويختلف عنا.. واختلافه كان وسيظل مثار حديثنا.. وحديثهن، وإني لأراه من بعيد يهمس إلينا وإليهن قول شاعر إنسان:

لا تسألوا عمّن حبيبي بينكم   فإذا سألتم، كلكم أحبابي!

****

ليست رسالة وداع!..

أ. شوقي بغدادي(*)

ليست رسالة وداع يا أبا القاسم، فلأنت في حنايا الوجدان كما نسمة الحياة، لا تتخلّى عن نزهتها في جنباتها حتى يهمد الجسد همدته الأخيرة. أتذكرك الآن كما أتذكر طفولتي وشبابي.. فما أبعد، وما أحلى!..

دعني إذن أحدث الناس قليلاً عنك كما عرفتك، أنا الدمشقي، وأنت التونسي، فكيف صار والتقينا؟.

في أوائل الخمسينيات أو في أول عام منها تحديدًا كما أذكر وكنت وقتئذٍ ما أزال طالبًا على مقاعد كلية الآداب قبل تخرّجنا بعام على ما أذكر، وصلتني رسالة من بغداد، ولم أكن أعرف أحدًا فيها معرفة شخصية، فقرأت أول ما قرأت اسم المرسل وكان: «أبوالقاسم محمد كرّو». وكان العنوان: الدار العليا للمعلمين – العراق – بغداد. فمن كان صاحب هذا الاسم الغريب؟!

قرأت الرسالة، فإذا صاحبها طالب تونسي يتخصص في الدار العليا للمعلمين في بغداد، يقول لي فيها إنه قرأ بعض كتاباتي في الصحف والمجلات – اللبنانية على الأغلب مثل مجلة «الآداب» المعروفة والتي بدأت بالنشر فيها شعرًا وقصصًا قصيرة وأنا بعد طالب جامعي – ، فقرر مراسلتي بهدف إنشاء علاقة مودة وصداقة بين طالبين عربيين نشيطين؛ واحد من دمشق والآخر من تونس – وانسجامًا مع أفكاره القومية العربية كما فهمت فيما بعد.

لم أعد أذكر محتويات تلك الرسالة بالتفصيل غير أنني أذكر أفكارها ومشاعرها الأساسية التي كانت تعبر بوضوح عن شخصية إنسان طيب، مثقف، طموح، ذي روح قومية أصيلة.

(*) شاعر سوري من مواليد بانياس عام ١٩٢٨، له العديد من الدواوين والمؤلفات، وفاز بعدد من الجوائز منها جائزة أفضل ديوان عام ١٩٩٨ من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

كانت الرسالة بالنسبة لي آنذاك مفاجأة طريفة مُبهجةً تدعو إلى الاعتزاز حقًا، فأجبته عليها برسالة مماثلة. وهكذا نشأت صداقة من بعيد لبعيد بين طالبين لا يعرف أحدهما الآخر معرفة شخصية، وكانت بداية لعلاقة نادرة بالفعل كنت معتزًا بها كل الاعتزاز.

وبعد أقل من عام حدثت المفاجأة التالية حين أخبرني صديقي التونسي «أبوالقاسم محمد كرو» أنه قادم إلى دمشق ضمن وفد من زملائه وزميلاته بدعوة من جامعة دمشق. وحضر الوفد فعلاً، وتلاقينا، ويا له من لقاء!.

كان أبوالقاسم محمد كرو كما تخيلته من حيث المضمون، بل ومن حيث الشكل أيضًا، شابًا أسمر اللون، ممتلئ الجسم قليلاً، لطيفًا، دقيقًا في تعامله مع الناس يفهم آداب السلوك الاجتماعي - أصول الأتيكيت - جيدًا ويصر على تطبيقها في كل مجال وبخاصة على المائدة عند الأكل والشرب، بل لقد كان ينتقد غيره من الزملاء الذين لم يكونوا يراعون هذه الأصول تمامًا، كان واضحًا أنه شخص جدِّي، مجتهد، متتبع لأمور الثقافة والسياسة في الوطن العربي كله حتى لقد بدا لي أكثر نضجًا مما كنت أتصوره، وبالتالي أكبر سنًا مما كان عليه فعلاً.

قضينا إذن معًا فترة إقامة الوفد العراقي في دمشق، وزرنا معًا معظم معالم المدينة التاريخية والشعبية، فازددت معرفة وإعجابًا به، وحين طلب مني الأستاذ المشرف على النشاط الجامعي عندنا آنذاك وكان اسمه على ما أذكر الدكتور نعيم اليافي - المشاركة في الحفل الخطابي ممثلاً عن طلاب الجامعة بقصيدة من نظمي وافقت على الفور. وكنت وقتها شاعرًا معروفًا في الأوساط الجامعية، وخارجها بعض الشيء، وحين خلوت إلى نفسي للكتابة أذكر أن شخص صديقي التونسي كان الأبرز في خيالي الشعري وبخاصة في أبياتها الأولى:

في فـــؤادي نزلتَ اكـــرمَ زائرْ
يا اريجًـــا من مـــاء دجلةَ عـــاطِرْ
فـاسْــتَــرحْ يا اخي ووسِّـــد ضلوعي
سُـــمرةَ الخَـــدِّ وائتــلاقَ المحــاجــر

انفضتَ الغبارَ، أم ليس في ثو
بكَ شيءٌ منه كان لم تُسافِر
وكان لم تغيّر الناس فينا
وكانْ في دمشق نفسَ المناظِر
وكانَّ الصحراءَ لم تكُ إلا
جَنّةً، والطَّريقَ نزهةُ عابر

حتى لكأنني كنت في هذه الأبيات أتوجه إلى شخص بعينه، بل حتى ليمكن القول إنه ما كان ممكنًا إنجاز تلك القصيدة بهذه السهولة في أقل من يومين، وبتلك الروح الحميمة المؤثرة لولا تلك العلاقة الفريدة من نوعها التي كانت تربطني بأحد أفراد ذلك الوفد الشقيق ألا وهو: أبوالقاسم محمد كرو. والطريف في الأمر كما أراه الآن أن ذلك الصديق كان تونسيًا، وليس عراقيًا، ومنذ تلك الأيام تعلمت بفضل تلك العلاقة الجميلة ميدانيًا كيف نحس ونفكر بعمق أننا عرب بقدر ما نحن سوريون مثلاً أو تونسيون أو عراقيون..

سافر الوفد، وعاد أبوالقاسم إلى جامعته في العراق، غير أن حرارة المحبة ظلت تدفىء وتؤنس قلبيْنا عبر رسائلنا المتبادلة، ثم عرفت فيما بعد أنه عاد إلى بلاده بعد تخرجه للعمل هناك، ثم فاجأني بإهدائي نسخة من ديوان أبي القاسم الشابي «أغاني الحياة» المنشور عام ١٩٥٥ بسبب معرفته أنني كنت من محبي شعر الشابي والمعجبين به من دون أن يكون لدي ديوانه. ثم وصلتني بعدها بعض الكتب التي صدرت في تلك الأيام ضمن سلسلة ثقافية أصدرها أبوالقاسم تحت اسم «كتاب البعث»، وكانت كتبًا طريفة مثيرة بالنسبة لزمانها، ويومًا بعد يوم عرفت أن أبا القاسم يواجه بعض الصعوبات في بلاده بسبب أفكاره القومية، وأن سلسلة (كتاب البعث) قد توقفت عن الصدور، غير أن أبا القاسم لم يتوقف عن متابعة نشاطه الثقافي بأشكال متنوعة بين التأليف والتحقيق والمحاضرة ولم نلتق بعدها إلا بعد ما يقارب العشرين عامًا حين زرت تونس لأول مرة في حياتي عام ١٩٥٤ على ما اذكر ضمن وفد الكتّاب السوريين المشاركين في أول مؤتمر للكتّاب العرب يعقد في تونس.

هناك التقيت من جديد بالصديق الذي صار قديمًا، وفاجأني مرة أخرى بأنه هو الذي روّج قصيدتي التي كتبتها مستلهمًا الأحداث العتيقة التي جرت في تونس خلال معارك التحرير من الاحتلال الفرنسي في أواسط الخمسينيات وكنت قد نشرتها وقتئذٍ ولم أكن واثقًا أنها وصلت إلى تونس، فإذا بي أعرف أن أبا القاسم محمد كرو قد طبع القصيدة إياها على الآلة الكاتبة وسحب عليها عددًا من النسخ وزعها على بعض معارفه كي يساعد في التعريف بي للقراء التوانسة الذين لا يعرفونني، ومن جديد لمست روح الوفاء لدى ذلك الصديق الأصيل وأدركت أن علاقتي به لم تضعْ سُدًى بالرغم من السنين الطويلة التي مرّت على افتراقنا.

عدت إلى تونس بعدها زائرًا أكثر من مرّة، وكان بعض تلك الزيارات قد تم بفضل التدخل الشخصي لأبي القاسم لدى المراجع المسؤولة. وفي كل زيارة كان أبوالقاسم يتعمد أن يشير إلى قصيدتي المسماة «تونس» والتي تبدأ بهذين البيتين:

من هنا المحُـهـا خـضـراءَ غَـشّـاهـا الدّمُ

ضـجّـةٌ، يـعـتـصـرُ الأرضَ صـداها الملهِمُ

وبعدها صرنا لا نتلاقى إلا في بعض المؤتمرات الثقافية العربية التي كنا ندعى إليها معًا، أو حين كان يزور دمشق في مهمة من المهمات الثقافية الكثيرة التي كان أبوالقاسم يملأ بها حياته دون كلل أو ملل كما يقولون.

وحين زرت تونس في أواخر العام الماضي ١٩٩٦ بدعوة من كلية آداب – منوبة في العاصمة، خابرته هاتفيّاً فرد عليّ مرحبًا ولكن بلهجة حياديّة جدًا فاستغربت لهجته، وصمته عن الاتصال بي في فندقي، وحين عدت إلى دمشق وصلتني بعد فترة قصيرة رسالة صغيرة منه يشرح لي أسباب عدم اتصاله بي معتذرًا عن تقصيره بسبب مرضه «القاتل» إذ تعمد ألا يخبرني بالحقيقة حتى لا يفسد عليّ إقامتي على حد قوله!..

يا إلهي!.. لكم تأثرت من تلك الرسالة الصغيرة الموجعة!.. هكذا إذن يا أبا القاسم.. لقد أردت أن تُعاني وحدك وألا تخبرني بذلك حتى لا تفسد عليّ إقامتي.. وأية إقامة هذه وأنت تعاني ما تعانيه من عذاب وأنا لا أعرف شيئًا ولا أسهم بمواساتك!..

✡✡✡✡

هذا هو «ابوالقاسم محمد كرو».. الإنسان الذي وهب حياته لخدمة الثقافة العربية على وجه العموم، والتونسية على وجه الخصوص، وكان دائمًا مثالاً للثقافة في العمل، والنظام والمثابرة بالرغم من كل المتاعب والمصاعب التي كانت تعترضه وما اكثرها!. ويكفيه فخرًا انه أول من نشر كتابًا هامًا عرف فيه بالشاعر التونسي الموهوب «أبي القاسم الشابي» مع مختارات من شعره ونثره تحت عنوان: «الشابي: حياته وشعره» والذي ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤، أي قبل صدور ديوان «أغاني الحياة» بعام كامل – صدر ذلك الديوان عن «دار الكتب الشرقية» في تونس وطبع في مصر ونشر سنة ١٩٥٥ – ثم توالت كتبه حول الشابي مثل: «كفاح الشابي: الشعب والوطنية في شعره» والذي صدر عام ١٩٥٤ أيضًا، وتوّجت أخيرًا هذه الجهود في إسهامه الكبير بتحرير وإنجاز المجموعة الكاملة لإنتاج «الشابي» وطباعتها كأجمل ما تطبع به المجلدات في موضوعات أخرى متنوعة وعشرات المحاضرات التي قدمها على المنابر الثقافية العربية المختلفة وكان فيها دائمًا صاحب الهم الوطني والقومي العظيم، والتوجه الثقافي الأوسع والأعمق!

✡✡✡✡

ها أنذا الآن أستعيد ذكراه كما رأيته لأول مرة في دمشق قبل ما يقارب النصف قرن، شابًا دمثًا، أنيسًا، حاضر الابتسامة، مهذبًا دقيقًا في كل ما يصدر عنه من حديث أو سلوك، وفيًا لأصدقائه، محبًا لهم، كما هو للقضايا الكبيرة التي شغل بها حياته.

أستعيد هذه الذكرى، عبر شريط السنين الطوال، وقد هَرِمنا معًا، واقتربت نهايتنا، دون أن نحقق ما راودنا من أحلام جميلة، وما نذرنا له انفسنا من طموحات كبرى، فأقول لنفسي: ترى.. هل ضاعت إذن حياتنا سدى؟.. فإذا بي، وأنا أتذكر ما أتذكر أجيب بارتياح: ابدًا.. لم تضع حياتنا سدى.. ولنا أسوة بجميع الحالمين عبر التاريخ الذين

كرسوا وجودهم لتحقيق تلك الأحلام دونما جدوى كبيرة، ولكي أقول لصديقي أبي القاسم: المهم أيها العزيز هو أن يكون الإنسان منسجمًا مع نفسه فيما يفكر فيه ويؤمن به ويعمل له، فيحترم الحياة حقًا لديه ولدى الآخرين فلا يدع للكسل واليأس واللامبالاة منفذًا إليه يبدد قواه، ويشل همته عن العمل عن إنماء الحياة وازدهارها، لديه ولدى الآخرين سواء أخفق أم نجح في تحقيق ما كان يصبو إليه.. ولقد كنت يا أبا القاسم محمد كرو بالتأكيد واحدًا من هؤلاء الحالمين المكافحين العاملين دونما توقف، ولهذا فإن حياتك لم تكن هباءً فلقد ملأتها حتى الحافة بكل ما هو مفيد ومخلص وجميل.. وهذا كافٍ.. مدّ الله في عمرك ووقاك من كل سوء!.

****

أبوالقاسم محمد كرّو والشابي

أ. د. صلاح الدين بوجاه(*)
رئيس اتحاد الكتاب التونسيين

يعود اهتمام الباحث أبي القاسم محمد كرو بالشاعر أبي القاسم الشابي إلى منتصف القرن الماضي، ويبدو أنه أجمل الإشارة إلى ولعه بدراسة آثار سميِّه الشاعر في «مقدمة الطبعة الثانية» الواردة في مستهل كتابة الموسوم بـ «دراسات عن الشابي»[1] الصادر عن الدار العربية للكتاب. فبعد إلماحه إلى صدور الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٦٦، وتأكيده حاجة القراء إليه، واهتمام وزارة الثقافة بالاحتفال بالسنة العالمية للشابي (١٩٨٤)، يتولى ضبط بحوثه السابقة في شعر الشابي:

أ - الشابي حياته وشعره.

ب - كفاح الشابي أو الشعب والوطنية في شعره.

ج - آثار الشابي وصداه في الشرق.

د - دراسات عن الشابي.

ثم يورد هذه الإشارة في آخر المقدمة: «وغايتنا دائمًا حفظ هذه الدراسات من الضياع والإهمال.. وهي المبعثرة بين عديد الصحف والمجلات المفقودة النادرة... وجعلها ميسرة للقراء في كل حين. ومن خلال ذلك نواصل العمل الذي بدأناه منذ سنة ١٩٥٢ لإظهار عبقرية الشابي وصداه في العالم. وفي هذا وذاك إثراء لرصيد تونس الأدبي واعتزاز بأفذاذها وأبنائها الخالدين»[2].

---

١ - ابوالقاسم محمد كرو، دراسات عن الشابي، الدار العربية للكتاب، طبعة جديدة (١٩٨٤) تونس.

٢ - ابوالقاسم محمد كرو، المرجع السابق، ص٤٣ مقدمة الطبعة الثانية.

(*) اكاديمي واديب تونسي من مواليد القيروان عام ١٩٥٦ يراس حاليًا اتحاد الكتاب التونسيين. له العديد من المؤلفات.

يُوقفنا ما تقدم على جُملةٍ من الاستنتاجات: أولها أننا فعلاً إزاء ولعٍ بشخصية الرجل وبإنتاجه، وثانيها أن كرّو قد تولّى النظر في هذه المسائل مرات متعاقبة، وثالثها أن غايته تتمثل في حفظ هذه الدراسات من الضياع والإهمال، ورابعها أن سنة ١٩٥٢ كانت المناسبة الأولى التي بدأ فيها كرو تصديه لدراسة آثار الشابي... إثراء لرصيد تونس واعتزازًا بأفذاذها.

فالغايات شخصية وأدبية ووطنية، وفي هذا تأكيد لتنوع أسباب البحث في آثار الشابي من ناحية، وفيه إشارة إلى تنوع جوانب شخصية الباحث من ناحية أخرى. لهذا يعنينا ههنا أن ننوه صراحة بجميع هذه الجوانب، إذ تسهم في بناء شخصية الباحث الذي نتوق إلى الظفر به في خضمِّ التجاذب - السائد اليوم - في بداية الألف الثالثة للميلاد - بين رصانة المناهج الجامعية المبالغ فيها، وتهافت الدراسات الصحفية، والملاحظ من خلال شخصية أبي القاسم محمد كرو أن الجيل السابق على جيلنا يمدنا بنماذج متوهجة من الأدباء والنقاد المجدين القادرين على الجمع بين رصانة البحث الجامعي، المحترم لمرجعياته، وحيوية العمل الصحفي الباحث عن التألق، وكم نحن في حاجة اليوم إلى هذه الصفات حتى نستأنس بها في أعمالنا المستقبلية، ونعمل بالاستناد إليها على خلق ملامح جديدة للباحث الذي نريد.

وعليه فإن تأملنا للكيفية التي ركّز تبعًا لمقاييسها (كرو) نظره في الشابي يمكن أن تضيء عديد النواحي في شخصية كرّو الأدبية، وتسهم في إماطة اللثام عن شطر من سمات أدباء النصف الثاني من القرن العشرين، لهذا فإننا نعدُّ غايتنا مزدوجة، ونحملها أعباء إضاءة الشابي وكرو في الوقت ذاته!

ونرغب في نهاية هذا التمهيد أن نُعرج من جديد على تعلق كرو بالشابي، وقد تجلّى في مقالة له بعنوان: «قصة حبي للشابي» وهي مقدمة بسطها كرو بين يدي الأمسية المنظمة في بيت الشعر ١٩٩٨، يقول: «حبي للشابي بدأ عام ١٩٤٣، وهو يزداد كل يوم عن

سابقه.. بدأت كتبي عنه عام ١٩٥٢، وهي تبلغ اليوم أحد عشر كتابًا[١]، وقدمت وأشرفت على جميع كتبه، ومنها ديوان: «أغاني الحياة».. وأضفت إليها كتابًا جديدًا هو «نثر الشابي».. أما الكتب المتعلقة به والتي نشرتها أو قدمت لها، فهي أكثر من عشرة كتب.. وبينها كتابان لصديقه محمد الحليوي[٢]».

نستنتج من هذا كله أن الشابي قد تحول عند أبي القاسم محمد كرو من مجرد «موضوع بحث» إلى هم ملازم، وهاجس دائم، ومسألة من المسائل العامة التي لا حياد عنها، حتى لكأنه قد غدا قضية القضايا وهاجس الهواجس، وإننا لندرك جيدًا أن صاحبنا قد وزع اهتمامه على كثير من الأدباء، من بينهم في هذا الكتاب الذي نحن بصدده:[٣] نازك الملائكة، وزكي أبوشادي، وأحمد أديب مكي، والشاذلي عطاءالله، وجمال حمدي، ومحمد المنوني، ومحمد الفاضل بن عاشور، وحمد الجاسر.. فعل وقع هذا، لكن التركيز في أمر الشابي وشاعريته قد اتخذ شكل الظاهرة الوطنية العامة التي تجمع بين الدواعي الشخصية والاقتضاءات العامة.

ولعل تركيزه الحديث في أمر أبي شادي انطلاقًا من الشابي يؤكد ما ذهبنا إليه. فالشابي قد أدى إلى أبي شادي (مثلما أدى به إلى الحليوي)، وأبوشادي قد أدى به إلى ابنته صفية التي دأب على مراسلتها سنوات طويلة، وهي في أمريكا دون أن يراها: «ما زالت الرسائل بيني وبين ابنته صفية مستمرة رغم أنني لم أرها – مثل أبيها – وهي تقيم في أمريكا منذ أكثر من خمسين سنة»[٤].

١ – وهي على التوالي تبعًا لورودها في كتاب «حوار وشعراء» لأبي القاسم محمد كرو (دار المغرب العربي، تونس، سبتمبر ٢٠٠١: الشابي حياته وشعره/ كفاح الشابي/ آثار الشابي وصداه في الشرق/ دراسات عن الشابي/ الشابي من خلال رسائله/ نثر الشابي/ الشابي في مرآة معاصريه/ رسائل حول الشابي/ صور وكلمات/ شعراء المغرب/ اكثر من مئة مقالة منشورة/ اربعة كتب مخطوطة.

٢ – أشرف على طبع كتب الشابي: اغاني الحياة – الخيال الشعري عند العرب – مذكرات رسائل الشابي – نثر الشابي.

٣ – أبوالقاسم محمد كرو، حوار وشعراء.

٤ – المقال السابق ضمن الكتاب السابق.

إن الأمر قد بات ولعًا جارفًا وحبّاً ملأ صاحبنا جميع أقطار نفسه – مثلما يقول أجدادنا – حتى بدا إقبالاً جارفًا لا إمكان لرده!

نسجل هذا، ونؤكد أن الواحد من الباحثين اليوم، في مستهل هذه الألف الثالثة، إذا ما تصدى لدراسة موضوع، أكد – أولاً وأساسًا – أنه لا علاقة شخصية له به، متوهمًا أن العلم الموضوعي يتطلب ذلك، ويقتضي نفي أية علاقة بموضوع الدراسة. وهذا من أوضح النقائص التي اغترفنا من معين النقد الأجنبي، رغم أن تودوروف وجينات[1] (حتى نكتفي بهؤلاء) كثيرًا ما خصصا المطولات للغوص في دراسة المواضيع، أو الظواهر، أو الأشخاص المحبوبين من قبلهم، أو ذوي الوشائج والصلات بهم!

لهذا بات الواحد منا اليوم يستنكف من التعرض للشاعر المعاصر له، ويتعالى عن الخوض في أدب من يعرف، ويتجنب ذكر أبناء موطنه، وهذا نموذج نجنح إلى التوقف عنه بعض التوقف، حتى نقارنه بنموذج أديبنا (أبو القاسم محمد كرو) لأن الظواهر تعرف بنقائضها أكثر من جلائها بنظيراتها، ذلك أن كرو اليوم من النماذج النادرة في ساحتنا الثقافية، وهو الباحث المندفع نحو مواضيع دراسته اندفاعًا، المنفعل بها انفعالاً، وهو الناقد الجامع بين صرامة المنهج الجامعي ومرونة البحث الصحفي السريع نسبيًا. لهذا نجزم ههنا بأنه يمثل النموذج الأمثل لها ننتظر من ساحة ثقافية تحترم أصولها ومبادئها وتسير، ونسير بالعاملين في كنفها نحو المزيد من التطور.

وندرك جيدًا أنه لا توجد مقاييس مضبوطة، فتوفيق بكار – مثل – أستاذ من أساتذة الجامعة التونسية بارز، وكذا صالح القرمادي، إلا أنهما قد أثبتا تخطيهما للسياج الجامعي، فغاصا في دوائر النقد الثقافي وعبر المجال الفاصل بين النقد الرصين والنقد السريع، وبلورًا منهجًا وسطًا يستند إلى خلفيات معرفية ومنهجية وتطبيقية إجرائية شتى.

لهذا فإنه يعنينا ههنا أن نلح على أن هذا النموذج الذي ينتمي إليه الأستاذ كرو، بل الذي انتمى إليه من أوسع أبوابه العربية، يعد بالنسبة إلينا من «الدوافع العليا» نحو تطوير الثقافة التونسية والإسهام في تطوير الثقافة العربية على وجه العموم.

---

١ – من ابرز العلماء الموثوقين الحجج في سياق النقد الجامعي اليوم.

من خلال انغماس الباحث في موضوع عمله، وعبر الصلة بين أبي القاسم وسَميِّه، انتبهنا إلى إننا إزاء برهة إيجابية جدًا من بُره النقد التونسي، ومن مجالات الإضافة والإبداع فيه.

ونكاد نستخلص هنا أننا - من خلال نظرة انثروبولوجية محايدة - إزاء طقس شعائري عميق يكشف عن بحث بعض الفواعل القادرة على الابتكار عن الفعل المغيِّر في المجتمع عبر ساحته الثقافية.

لهذا فإننا مع أبي القاسم محمد كرو، مثلما ألمحنا إليه أعلاه، إزاء ذات وطنية (في المعنى التونسي والعربي) تتوسل بالأدب للفعل في المجتمع، وبلورة مفهوم جديد للهوية.

وحدها هذه النماذج قادرة على إتيان الفعل ونقيضه والعمل داخل السياج وخارجه في نفس الوقت. لهذا نؤكد إننا إزاء «نموذج لتكريس الانتماء»[1] واضح جلي يخدم الثقافة التونسية خدمته لنفسه وللشابي.

فأبوالقاسم محمد كرو قد خاض في كل المواضيع المنبثقة عن ظاهرة أدبية ثقافية اجتماعية وطنية اسمها أبوالقاسم الشابي. لهذا فإنه تناول أدبه، كما نظر فيما كتب حوله، تناوله لرسائله وتعليقاته النثرية المختلفة.

فلعلنا نُدعَى هنا إلى التأني لدى شطر من ظاهرة التناول هذه التي تتخذ أحيانًا شكل ما يستعصي على التناول! فلنشهد أننا إزاء عملية من عمليات التماهي بين مستويات متراكبة:

١ - ذات أبي القاسم كرو.

٢ - ذات الشابي.

٣ - إبداع الشابي.

---

١ - انظر «تطور شعائر تكريس الانتماء»، كريس نايت: الجنس واللغة كمسرحية إيهامية، ضمن «تطور الثقافة»، ترجمة شوقي جلال. القاهرة ١٩٩٩، المجلس الأعلى للثقافة.

٤ - نقد أبي القاسم كرو.

وغير خفيّ عن الحصيف أن جميع هذه المستويات يمكن أن تستقطب دوائر أخرى إضافية تؤثر فيها وتنتج عنها.. محدثة نوعًا من التراشح العميق الذي يجعل من مادة البحث وموضوع البحث والباحث كيانًا واحدًا شاملاً.

وهذا يدفعنا إلى المزيد من التريث عند بعض المسائل الجانبية في سياق العلاقة التي تشد الباحث إلى موضوع بحثه، ومنها خاصة:

- تماثل مجال الحركة: توزر وقفصة وبلاد الجريد/ تونس العاصمة.

- الرومنسية والوطنية مركبٌ واحد جامع.

- رفض الاستعمار والدعوة إلى كسر القيود، والتعلق الوجداني بالشرق.

- الجمع بين الثورية، والكلمة الرقيقة الموحية.

إن الذاتي والموضوعي يتفاعلان في خضم واحد من المد والجزر حتى نكون حيال مزيج رائق من الآراء والأحاسيس والمواقف. يقول سلامة موسى في هذا الباب: «الذين يقرؤون الشاعر التونسي الشابي لا يعجبون بشعره فقط، ولكنهم يحبونه، فقد عاش حياته القصيرة وهو في آلام المرض وانتظار الموت، ولكنه لم يهن، فإنه تحدّى القدر وأصر على أن يحيا حياته، واعتقادي أنه لو أن الشابي ظل حيّاً بيننا إلى الآن لكان أعظم شاعر في الأقطار العربية[1] ، هذا هو ذاته إحساس أبي القاسم محمد كرو، وهذه هي آراؤه في أبي القاسم الشابي.

هكذا ننتبه إلى إمكان استخلاص استنتاجات جلية من مضمون ما يكتبه الناقد عن الشاعر، كما يكون في إمكاننا الخروج بمستخلصات أوضح عن الناقد من خلال الكيفية

١ - ابوالقاسم محمد كرو أورد هذا الشاعر ضمن كتابه «آثار الشابي وصداه في الشرق، دار المغرب العربي تونس، خريف ١٩٨٨ ص٥٦.

التي يتصدّى بها للنظر في إنتاج الشاعر وشخصيته، خاصة إذا ما انتبهنا إلى أن ذلك تخطى الخمسين سنة واتخذ شكل التلازم والتماهي.

هذا ما نقف على حقيقته من تسليط كل من كرو والشابي أحدهما على الآخر استقراءً للنقد والشعر في آن واحد. ويبدو أن هذه الصورة التقريبية لا يمكن أن تكتمل إلا بالعودة إلى بعض الإشارات الواردة في كتاب كرو الموسوم «بحوار وشعراء» والتي يمكن اختزالها في النقاط التالية:

- ولادته ونشأته في مدينة قفصة، مع ما يحف بها من خلفيات حضارية قديمة وحديثة.

- إيمانه بأن تقدم العرب منوط بالتقدم العلمي.

- اعتباره أول من ألف كتابًا حول الشابي.

- اهتمامه بـ «التحقيقات» إن كلياً أو جزئيًا.

عدم تمييزه بين النضال الأدبي والنضال الوطني.

ومنتهى ما يمكن أن نقول هو أن الشابي عالَمٌ رحبٌ فسيح، كلما ازددت فيه انطلاقًا ازددت اكتشافًا وإعجابًا. وأحسبُ أن الأمة العربية، على اختلاف شعوبها وأقطارها، ستظل مبهورة بشاعرها العبقري لدى أجيال طويلة قادمة، بل إنني أزعم بأنها ستزداد مع الأيام اكتشافًا له وإعجابًا به واعتزازًا بنبوغه وأدبه»[1].

هكذا نهتف في شأن الشابي مجارين قولة كرو الشهيرة لدى مفتتح مصنَّفه المهم حول صدى الشابي في الشرق، لكننا نروم أن نهتف بالكلام نفسه في شأن ناقدنا الكبير المستجيب إلى تلك الاقتضاءات العامة التي نشأت في ذهننا عن الناقد الحقّ، وكم هم قليلون هؤلاء في بلادنا في الوقت الحاضر، إلا ما اعتبرنا أساتذة الجامعة في الأدب نُقادًا، وأساتذة الفلسفة فلاسفة، بينما البون شاسع بين هؤلاء وأولئك.

---

١ - ابو القاسم محمد كرو، آثار الشابي وصداه في الشرق، دار المغرب العربي، تونس، ١٩٨٨.

فصاحبنا القفصي ينتمي إلى قلة نادرة من المخلصين «للساحة الثقافية» بأكثر دلالاتها سعة وانفتاحًا، وقد ذكرنا أعلاه بعلمين من أعلام هذه الفئة وهما بكار والقرمادي، ويمكن أن نُلحّ مجددًا على اعتبار أبي القاسم محمد كرو، وكذا أبي زيان السعدي من بين أعضائها البارزين. ونشهد الله على أن ما نقول هو خالص لوجهه تعالى لا نروم منه جزاء ولا شكورًا، كما أننا لا نرغب أن نثير به سجالاً في هذا المحفل أو ذاك. فهو مجرد كلام للحقيقة، للحقيقة كما نراها ونريدها، وكم هي نسبية متغيرة.

لكن بغيتنا أن تكون لبلادنا التونسية ساحتها الثقافية التي تفخر بها بعيدًا عن جمود الجامعة وتذبذب الجرائد السيارة وحركيّتها المبالغ فيها!، لهذا فإن هذه الصفحات مجرد تحية نرفعها إلى أب الأدباء التونسيين الناقد، عضو المجامع اللغوية العربية العديدة، سَميِّ الشابي، أبي القاسم محمد كرو.

****

تكريم قلم وتتويج حياة
(مفاتيح شخصية)

أ. د. عبدالحميد عبدالله الهرّامة(*)

يكتسي تكريم الأستاذ الكبير (أبو القاسم محمد كرو) أهمية خاصة، آتية من كونه نمونجًا مميزًا في الحركة والعطاء، والألفة، والاعتداد بالذات، وقد صبغت هذه الصفات جل فترات حياته، وكانت مفاتيح شخصيته ذات المداخل المتنوعة، وقد رأيت أن يكون تكريمي للرجل عبر هذه المفاتيح المميزة لشخصيته.

فأما الحركة فهي المفتاح الأول لحياة هذا الرجل المناضل، والأديب الرحالة، والعالم السائح في سبيل أهدافه بروح لا تهدأ، ونفس لا تجنح إلى السكون والدعة، ولا ينتقض ذلك حتى عندما يكون السكون مطلبًا جسميًا أو ضرورة عملية، فقد بدأت هذه الحركة منذ أن ضاقت قفصة، وهي المدينة الجنوبية الصغيرة بطموحاته وآماله، بالرغم من أنها مسقط رأسه المحبب إلى نفسه، فقد غادرها إلى مدن أخرى، ولم تقتصر الرحلة على الحاضرة التونسية العامرة، بل طالت بغداد ثم طرابلس اللتين عاش فيهما فترات من الزمن طويلة نسبيًا جعلته بعضًا من أهلهما، وحفظتا في ذواكر أجيالهما أبهى الذكريات وأصفى الصلات مع فتى قفصة الأديب وعالمها الظريف.

كان في بغداد طالبًا يلتقط أزهار الشرق وثماره، مذكرًا بزمن الرحلات العلمية التي ما فتئ علماء الغرب الإسلامي يعتبرونها غاية سامية في مراحل تكوينهم العلمي حتى عهد ليس بالبعيد، وفي طرابلس كان معلمًا لا يقتصر على أداء واجبه في استيفاء المنهج وتعليم مقرراته، بل كان يبث من روحه ما يحرك الهمم نحو قضاياه الكبرى وفي طليعتها قضية وحدة أمته واستقلالها.

(*) أكاديمي وناقد من الجماهيرية العربية الليبية من مواليد ١٩٥٠، له عدد من المؤلفات.

ولم تكن بغداد ولا طرابلس نهاية المطاف ولا غاية الحركة الدؤوبة لهذا الرحالة المثابر، وكم كنت أتمنى أن يكون بين كتبه الكثيرة كتابًا مستقلاً عن رحلاته القيمة، فهي في معظمها لقاءات مع مفكرين وأدباء وعلماء وفنانين يعرف عنهم الأستاذ أبو القاسم كرو الكثير، وربما لا يعرف كثير من القراء عن بعضهم غير أسمائهم.

وهكذا فإن الرحلة في حياة أبو القاسم كرو كانت مغنمًا فكريًا له وللآخرين، حلّ بها في مختلف الحواضر العربية وخارجها، ووطد علاقاته الثقافية والإنسانية مع أشهر أعلام القرن الماضي، وكان ضيفًا على أنديتهم الفكرية من خلال العديد من المؤتمرات والندوات التي كان يُدعى لها ويشارك فيها.

أما المفتاح الثاني لشخصيته فهو العطاء، ويكفي أن تقف على قائمة مؤلفاته الطويلة لتجد قلمًا لا يسكن إلى الراحة على مدى رحلة العمر الطويلة - بإذن الله - وفي عطائه مساحة كبيرة للوطن التونسي، والمغرب الكبير، وللأمة العربية وتراثها وأعلامها، وتاريخها، فضلاً عن الخواطر والإبداعات والقضايا النقدية، والمراسلات الأخوية، والمقالات التكريمية، والكتابات التوثيقية التي جعلت للأعلام في مؤلفاته نصيب الأسد.

ويسوق مفتاح الألفة في حياة الرجل إلى مدخل مهم في حياته الناجحة، فقد كان به محبوبًا ومقربًا من الذين عرفوه عن كثب، رجلاً ودودًا، مواصلاً، وحفيًا بأصدقائه على كثرتهم، حتى ليظن كل واحد منهم أنه الأقرب إلى شخصه والأثير إلى نفسه، ولم يقوَ طبع الحدة الناجمة عن الجدية والصرامة في حياته أن يفلّ من قوة مشاعر الألفة لدى الرجل، أو أن يجعل ظلالاً في علاقاته مع الآخر، فهو واضح في التفريق بين هذا وذاك.

وأهم مكونات شخصيته الأليفة روح النكتة وحضور البديهة، وما زلت أذكر لحظات جميلة جمعتني به في مدينة زليطن الليبية قبل أكثر من ست عشرة سنة بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات، حيث كان يتحلق حوله الشباب والكهول في الأمسيات الثقافية خارج أعمال المؤتمر، وكان فيهم كتاب وأدباء من ليبيا وخارجها، يأنسون إلى ما يتحفهم به من الطرائف والفوائد، ويسعدون غاية السعادة بملحه وغرائبه التي يؤديها بطريقة مميزة تضفي عليها نكهة إضافية من الإمتاع والمؤانسة وحسن الترتيب.

أما مفتاح الاعتداد بالذات والاعتزاز بالانتماء، فيمكنك أن تقرأه في آثاره، وتشعر به في حياته، وهو ليس ظاهرة سلبية في شخصية الرجل الذي حول هذا الاعتداد إلى أعمال علمية موثقة، ومواقف نضالية بارزة، وآراء وأفكار خاصة قد تخالفه في بعضها، ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه قدرته على الدفاع عنها والتشبث بها، فالاعتزاز بالذات عنده لا يهمل الأنا ولكنه يتجاوزها إلى كل ما ينتمي إليه من وطن وأمة وتراث وأصدقاء، وليس ما بذله من أجل استقلال تونس وتمجيد أعلامها، وما قدمه للمغرب العربي الكبير، وما أسداه لأمته العربية من فكر وتضحية إلا دليلاً على قوة الانتماء وإيجابيته، وفي كتابه النفيس «حصاد العمر» أمثلة كافية للبرهنة على هذا الذي نقول، كما أن في قوله «ليس عندنا طه حسين ولا توفيق الحكيم.. ولكن عندنا عشرات من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم بحجم تونس والمغرب العربي»، إفصاحًا ظاهرًا على ذلك الاعتداد بالمنتمى، وهو لا يقول ذلك اعتباطًا، ولكنه يعني أسماء بعينها في تونس والمغرب العربي من أمثال الطاهر ابن عاشور وعبدالحي الكتاني وعبدالحميد بن باديس وأبي القاسم الشابي وأحمد رفيق المهدوي وغيرهم، وهم كثر.

لقد جمعتني بالرجل لقاءات كافية لمعرفته عن قرب مفكرًا جيد الحوار، وإنسانًا لطيف المعشر، وذاكرة مسعفة، وبديهة حاضرة، لقيته في طرابلس، وزليطن، وتطوان، والدار البيضاء، فحفرت في ذاكرتي عنه تلك الانطباعات عن الروح التي تجمع الإمتاع بالفائدة، والتي انعكست في عمله من خلال الحيوية التي أضفاها على المركز التونسي في طرابلس فتحول برئاسته إلى أهم منتدى ثقافي في هذه المدينة البيضاء، وجمع فيه ما لم يجتمع في منتدى آخر من أطياف المثقفين على اختلاف انتماءاتهم وتنوع ثقافاتهم، وعرَّف من خلاله ببعض أدباء تونس وعلمائها فربط بذلك أواصر المودة والأخوة التي كانت تحتاج إلى وثاقه الأمين.

والآن وبعد هذه الرحلة الطويلة تشتد الحاجة إلى هذه الشخصية الوافرة العطاء والحيوية الحضور، والمتنوعة العلاقات، ويحين مع ذلك وقت التتويج الذي استحقه منذ زمن بعيد، ولكي يكون للتكريم معنى أكبر من مجرد الاحتفال والثناء، ينبغي أن نقرأ ما

كتبه من جديد قراءة تدبر وفهم، أو قراءة درس ونقد حتى نعطي الرجل حقه من الثناء القائم على البينة والبرهان، وأن نعود إلى الرسائل التي تبادلها مع أعلام عصره، فهي تكتنز بذخائر من المعلومات والملاحظات القيمة في تقييم التاريخ الثقافي والتعريف باهتمامات أصحابها وأساليبهم في التعبير عنها، وتلك غايات تحتاج إلى همة شباب الباحثين وحصافة فكرهم.

والله الموفق..

****

مناضل أدّى دوره في الحياة بنجاح وامتياز

(كلمات اعتراف بالجميل، إلى رجل عظيم سنبقى نحبه ونذكره..

خدم الوطن والأمة.. ونفع الناس.. هو الأستاذ الجليل أبوالقاسم محمد كرّو)

أ. عبدالسلام لصيلع(*)

الحديث عن الأستاذ أبي القاسم محمد كرو يطول ولا يتوقف.. لأسباب كثيرة، في مقدمتها أن الرجل قامة طويلة وشخصية فذة في عالم الفكر والبحث والأدب والتربية والاجتماع.. أنصاره من أصدقائه وتلاميذه يحبونه.. وخصومه من حساده ومن الذين يخالفونه في الآراء والأفكار يهابونه، وهو في الحقيقة طيب القلب وجِدِّي وصارم أمام من يعرفهم ومن لا يعرفهم.. هكذا هي طبيعته.. وهكذا هو مزاجه.. عليك أن تستمع إليه جيدًا لتفهمه.. وإذا فهمته.. أحبك.. واحترمك وقدّرك.. وكسبت ثقته وأصبحت من جلاسه ومريديه.

هذا «الأستاذ» مسيرة كبيرة من الكفاح والمعاناة والصبر والقوة والعزيمة والإرادة والنظام والانضباط.. في حياة حافلة بالحركة والنضال والنشاط والعمل منذ طفولته.. كل ذلك جعل منه إنسانًا «حديدياً» في مجتمع عربي خامل وجامد.. وفي أمة عربية ضحّى بشبابه من أجلها.. عرف السجن والمنفى في سبيلها، وأفلت من المشنقة أكثر من مرة بسبب إيمانه بحريتها وتقدّمها ووحدتها.. قارع الاستعمار القديم والجديد.. وتطوّع للدفاع عن فلسطين في بداية وعيه القومي العربي المبكر إثر حصول النكبة.. ورغم مرارة الواقع العربي المتردي في كامل مراحل تاريخه.. لم ييأس الأستاذ أبوالقاسم، ولم يعرف الإحباط، وبقي في حجم طموحاته الكبيرة.. واحتضن قلمه منذ أكثر من ستين سنة مناضلاً ثقافياً

(*) صحفي وشاعر تونسي من مواليد بنقردان عام ١٩٥٠، يشرف على الملحق الثقافي لجريدة الحرية. له عدد من الدواوين.

ومفكرًا مستنيرًا مدافعًا عن أمته العربية العظيمة وعن قضاياها العادلة، ومحرِّضًا الشباب العربي على الصمود والمقاومة ومواجهة الأعداء والانتصار لعروبة أمته وهويتها.. معجبًا بروح الثورة في أشعار الخالد أبي القاسم الشابي حيث كان أول من عرَّف به وبقصائده مشرقًا ومغربًا.. وأصبحت كتاباته معروفة في كل الأقطار العربية.. وأصبح الثائر القومي العنيد.. والأديب المبدع.. والباحث الوفي لتراث الأجداد ولآثار الأعلام.. والمؤرخ الأمين.. والمحاضر المقنع.. صاحب المنهج الذي لا يتخلَّى عنه في الحياة والمجتمع.

لقد كنت محظوظًا بأن تعرّفت إلى الأستاذ أبي القاسم محمد كرّو في سنوات شبابي الأولى.. كنت أقرأ له وعنه في صحافة تونس في نهاية الستينيات.. وعندما دخلت الجامعة في دراستي العليا كنت أحضر بعض الملتقيات والندوات الأدبية والثقافية التي كان يشرف عليها.. في بداية السبعينيات.. وكان مكتبه في اللجنة الثقافية الوطنية في تونس العاصمة مقصد الأدباء والشعراء والجامعيين والإعلاميين والباحثين والطلبة.. كان المكتب يعجّ بهم.. وكنت واحدًا منهم.. إلى أن توطَّدت علاقتي به، وأصبحت أتردد على مكتبه باستمرار لأجد لديه الجريدة والمجلة والكتاب.

وأشهد أنه كان يساعد كلَّ من يقصده.. تدخَّل لفائدة كثيرين في الحصول على عمل.. وشخصياً استفدت منه كثيرًا.. وتعلَّمت منه الكثير.. وأعترف له بالجميل والفضل.. وجدته داعمًا ومساندًا لي في تونس وفي خارجها.. وخاصة عند هجرتي في شهر يوليو/ جويليه ١٩٧٤، ولا أنكر أنه فتح لي الطريق وذلل أمامي الصعاب.. وشجعني على مواصلة الكتابة الأدبية والنشر في بداياتي.. نعم.. تعلمت الكثير منه ومن نصائحه وتجاربه التي دوَّنها في مجلداته التي تثري حاليًا المكتبة العربية، وتجمع أعماله التي ستبقى شاهدة على عصر مضطرب عاشه هذا «الأستاذ» العلم الفذ وتابع أحداثه بحلوها القليل وبمرِّها الطاغي.. ونراه ملحمة إنسان غير عادي قاوم الظلم والظالمين في كامل حياته.. لم ينحنِ ولم يطأطئ رأسه.. مستلهمًا من التاريخ قيم الحرية وكفاحات الشعوب ضد العبودية والاستغلال.. وليس ذلك بغريب لأن أبا القاسم محمد كرو – مثل أبي القاسم الشابي –

ابن بار من أبناء الجنوب التونسي.. تشبع بأصالته وامتلأ بحضارته.. حضارة الجنوب التي علمتنا الصبر والحرية والشهامة وعزّة النفس والكرامة والوضوح والصراحة والالتزام بالحقّ والحقيقة والجرأة والتضحية والصدق وغيرها من القيم المقدسة والمبادئ النبيلة.

ونعم.. أفاد الأستاذ أبوالقاسم محمد كرّو غيره بلا حدود.. وقابلوه بالجحود واللؤم ونكران الجميل.. ولكن الذين لا ينكرون فضله أكثر وأكبر من الجاحدين واللئام.

ونعم.. خدم الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو تونس في شبابه وكهولته وشيخوخته.. وعاش مناضلاً وطنياً وقومياً حرّاً ساهم في تحريرها من الاستعمار الفرنسي البغيض.. كما شارك في بنائها بعد الاستقلال، لكنه لم يجرِ وراء المناصب والكراسي، إن سرقوا مكانه فإن موقعه في التاريخ لن يستطيع أحد أن ينزعه منه.. ذلك قدر الرجال العظام والأحرار.. لكن «أبا القاسم» ظل عاشقًا لأمته العربية المجيدة طوال حياته، رغم ظروفها القاسية وانهياراتها الرهيبة وأعدائها القدامى والجدد، وكان عزاؤه انه بقي وفيّاً ومخلصًا لها، مؤمنًا بمستقبلها وبحتمية انتصارها، طال الزمان أو قصر.. كنت أسمع الأستاذ أبا القاسم يردد دائمًا في مجالسه قول الشاعر أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدُّهمْ
وفي الليلةِ الظلماء يفتقدُ البدرُ

هنيئًا لأستاذنا الجليل أبي القاسم محمد كرو.. لقد أدى دوره في الحياة بنجاح وامتياز.. سنذكره.. وسنبقى نحبه.. لأنه نفع الناس.. والوطن.. والأمة.. لذلك فإن آثاره ستمكث في الأرض.

****

الأستاذ الكبير أبو القاسم محمد كرو
قيمة علمية نادرة

أ. عبدالصمد العشاب(*)

من المؤكد أن أعلام البحث في التراث العربي والإسلامي وخاصة في تراجم الرجال، يتقدمهم في عصرنا رجل أوتي سعة في العلم وبسطة في ترتيب المعلومات واستثمارها. فالأستاذ الكبير أبو القاسم محمد كرو، هو من جيل الموسوعيين المتخصصين في تاريخ الأعلام وخاصة بتونس. وتتميز بحوثه التي يقدمها في هذا المجال بالتقصي والتتبع والتحليل والتركيب، فتراه يمتع القارئ بموضوعاته وهو يقوم برحلة في تاريخ الأعلام تشفي الغليل وتفيد المطّلع، وبذلك فهذا الأستاذ الكبير مرجع أساسي للتراث العربي والإسلامي وخاصة التونسي، لا أدعي انفراده بهذه الميزة العلمية وإنما أؤكد عليها. ودليلي على ذلك هو ما كتبه وما صدر عنه من مؤلفات يطول الكلام عليها. ومنها ما صدرت طبعاته المتعددة، وفي كل طبعة مزيد عناية بتقديم المعلومات الجديدة. وأسوق هنا مثالاً على ذلك كتابه القيم «العرب وابن خلدون» فهذا الكتاب صدرت طبعاته خمس مرات خلال سنوات، أولاها سنة ١٩٥٦ والرابعة سنة ٢٠٠٦. وفي كل طبعة يضيف المؤلف ما توصل إليه من جديد البحث. وسأتناول هذا الكتاب بالكلام، لأنه في مضمونه دفاع بالحجج والبراهين عن رجل عربي تونسي عالمي الشهرة والمعرفة، إنه العالم المؤرخ أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون الشهير بتاريخه ومقدمة ذلك التاريخ. وهذه المقدمة كما يعرف كل الناس نهج فيها ابن خلدون نهجًا علمياً يبلور فلسفته في ابتكار علم الاجتماع. غير أن الدراسات والبحوث التحليلية لبعض الكتاب والعلماء من المعاصرين الذين تناولوا ابن خلدون ومعارفه ومؤلفاته وخاصة منها مقدمة تاريخه تجنوا عليه وخبّوا وأوضعوا في سيرته بما لا مزيد عليه من الثلب والمؤاخذات، ويحزّ في النفس أن تكون تلك المؤاخذات وذلك الثلب صادرين من أعلام لهم وزنهم في سوق الثقافة والبحث مثل الدكتور طه حسين

(*) اديب وكاتب مغربي. مدير مكتبة العلامة عبدالله كنون بمدينة طنجة.

والدكتور أحمد أمين والأستاذ سامي الكيالي والأستاذ سلامة موسى ومدير سابق لمعارف العراق هو الدكتور سامي شوكة. وهذا الأخير بالذات صرح في خطبة حماسية القاها سنة ١٩٣٩ على جمهور من الأساتذة والمعلمين أعلن أنه يجب أن ينبش قبر ابن خلدون وتحرق مؤلفاته (العرب وابن خلدون ص ٣٧).

أما الدكتور طه حسين فقد ألصق بابن خلدون مجموعة اتهامات، وأعنف له القول في رسالته «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» التي نقلها إلى العربية الأستاذ محمد عبدالله عنان (فقد اتهمه بالأثرة والأنانية وحب الذات وبأن له أطماعًا لا حدّ لها وأنه يسلك في تحقيقها كل وسيلة. واتهمه أيضًا بالخيانة وأنه رجل لا وطن له إلا حيث يجد رغد العيش.. الخ). «العرب وابن خلدون ص ١٤٦».

والأستاذ سامي الكيالي هو نفسه لم يتورع عن الهجوم على ابن خلدون في أحد فصول كتابه «الفكر العربي بين ماضيه وحاضره» كما اشار لذلك الأستاذ أبو القاسم كرو.

والدكتور أحمد أمين هو نفسه وقع في فخ التثليب على ابن خلدون فوصفه بالشعوبية في كتابه فجر الإسلام وهذا أقسى حكم يصدر من رجل مُطّلِع على علم ابن خلدون ومعارفه الواسعة.

ويأتي الأستاذ سلامة موسى في آخر المطاف ليقول وهو يتحدث عن مقدمة ابن خلدون: «... وكان يمكن أن تخصب هذه المقدمة لو أنها وجدت من المتعلمين في مصر وسائر الأقطار العربية من يوالونها بالنقد والشرح والتعليق وهذا لم يحدث لأسباب ما زلنا نجهلها. وظني أن بعض ما حال دون ذلك هو كراهة ابن خلدون للعرب واحتقاره لهم بل عدوانه على ثقافتهم بالمعنى العصري لهذه الكلمة». (العرب وابن خلدون ص ٨٠).

وكل هذه الاتهامات والطعون جاءت نتيجة ما فهمه هؤلاء من فصول مقدمة ابن خلدون التي يتحدث فيها عن العرب أنهم أهل بداوة وأن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب. فأخذتهم العزة بالإثم ولم يقيسوا حقائق التاريخ بموازينها العادلة، أعني أنهم لم يدرسوا عصر ابن خلدون وما ارتكبه عرب بني رياح وبني سليم وبني هلال في جسم الحضارة العربية بشمال إفريقيا، حتى إن التاريخ ليحكي لنا عن الندم الشديد

الذي أصاب الخليفة يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠هـ ١١٨٤م - ٥٩٥هـ ١١٩٨م) لأنه أدخل عرب بني هلال وبني جشم إلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين وذلك سنة ٥٨٤هـ ١١٨٨م، وقال المؤرخ أحمد بن خالد الناصري في كتابه «الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى» ج ٢ ص ٢٠٥ نقلاً عن المؤرخ ابن أبي زرع قال: «.. ولما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم افعلها؛ الأول إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع أني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية بناء رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر، والثالثة إطلاقي أسارى الآرك ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم». وعلق المؤرخ الناصري على عبارة بناء الرباط بقوله: «قوله بأنه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه فهو اليوم من أعمر أمصار المسلمين وأحضرها حرسه الله».

فهذه الفقرة التي أوردها المؤرخ ابن أبي زرع قبل ولادة ابن خلدون بنحو مائة وسبعة وثلاثين عامًا تعتبر إضاءة للأحوال السياسية والاجتماعية التي بنى ابن خلدون رأيه عليها فذكر عن العرب ما ذكره، وكان ذلك سببًا في الهجوم عليه بالحق والباطل.

وفي كتاب (العرب وابن خلدون) الذي اخترناه للحديث عن واقعية أبي القاسم كرو في كل ما يكتبه. أبلى جازاه الله خيرًا بلاء حسنًا في دحض ادعاءات من ادعى من أولئك الكتاب الذين ذكرناهم - أن ابن خلدون أساء إلى العرب وإلى حضارتهم، فإن أبا القاسم يورد مقولة أولئك ويرد عليها بضدها من مقولات المنصفين الذين درسوا مقدمة ابن خلدون من العرب والغرب ويسوق لذلك حججًا من التاريخ، وهكذا دأبه في كل أبحاثه وكتاباته في تاريخ تراجم الرجال.

إن الأستاذ أبا القاسم محمد كرو روضٌ نضر من العطاء وكرم النفس، وحب وطنه الصغير تونس والكبير شمال إفريقيا والوطن العربي، وكم له من أيادٍ بيضاء على الثقافة والمثقفين مع صراحةٍ في القول وإنصافٍ في المعاملة. ندعو له بالعمر المديد والعافية المستدامة والمزيد من العطاء العلمي.

****

أبو القاسم كرو
مشرقي المغرب ومغربي المشرق

أ. عبدالعزيز السريع(*)

رأيته لأول مرة عام ١٩٥٨ يمثل تونس في مؤتمر الأدباء العرب في الكويت.. كان يرتدي الزي التونسي التقليدي. قرأت له وعنه لسنوات عديدة بعد ذلك. وجاء عام ١٩٩٢ وقد بدأت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري تتلمس طريقها وتؤسس لعلاقات وثيقة مع الشعراء والأدباء العرب أينما كانوا، وتسعى لإنجاز معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين فكانت بحاجة لمتعاونين معها من سائر الأقطار العربية، فاقترح علينا الزميل الأستاذ مصطفى عبدالله اسم الأستاذ الكبير أبي القاسم كرو، فراسلناه، فاستجاب وكانت بداية لعلاقة حميمة أعتز بها كثيرًا، وأشهد بالله بأن الأستاذ قد نفع مشروعاتنا كثيرًا وساندها بإيجابية وبأسلوب عملي سريع التجاوب، وقد ساعده في ذلك مكانته الكبيرة لدى الحركة الأدبية والثقافية على النطاق العربي والشطر المغاربي بشكل خاص.

كان رجل المهمات الصعبة بحق لا تقف دونه العوائق، يتخطاها بثقافة واسعة في العمق وفي الانتشار مع قدرة فائقة على الإقناع، فضلاً عن المثابرة والمتابعة الحثيثة. وقد تمتع فوق كل ذلك بشبكة واسعة من العلاقات والصلات بالأفراد والشخصيات في الحركة الثقافية العربية، فكان مثار إعجابنا وتقديرنا للجهد الوافر والعطاء المثمر.

تشرفت بزمالته في مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين، وفي الهيئة الاستشارية لمعجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، وعندما ترك هذه المهام مختارًا، شعرنا بفراغ لم يملأه أحد، ولكن عزاءنا كان استمراره مديرًا لمكتب المؤسسة الإقليمي للشطر المغاربي الكائن في تونس العاصمة.

لقد تمتعت بزمالته واستفدت من خبراته الواسعة وتنبهت لفطنته وحيويته الفائقة. لقد

(*) كاتب مسرحي من الكويت والأمين العام لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، له العديد من المسرحيات منها: عنده شهادة، ضاع الديك، الدرجة الرابعة.

كان سريع الاستجابة؛ ينجز ما عليه بسرعة قياسية وبدقة متناهية.. كان قدوة لنا بهمته العالية ومثابرته وسرعته في الأداء.. تمتعت أيضًا بطرائفه ومروياته وذاكرته التي اختزنت الكثير من الخفايا والأسرار على كل المستويات، وقد كان بحق مشرقي المغرب ومغربي المشرق.. فوجئت بعلاقاته الواسعة بالأدباء والكتّاب الكويتيين مثل المرحوم الشاعر عبدالله زكريا الأنصاري والشاعر الأستاذ فاضل خلف وسواهما ... كانت الرسائل المتبادلة بيني وبين الأستاذ تبدأ من جانبي بكلمة أستاذنا الكبير ومن جانبه الصديق الأعز.. وكان ذلك يسعدني كثيرًا.

تتبعت بإعجاب مسيرته وإنجازاته ومؤلفاته، واقتربت منه كثيرًا، وزرته في منزله العامر، ومن خلال هذه العلاقة زادت لدي القناعة بأن ما يساعد على الإنجاز هو عدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد.. أو عمل الصبح إلى ما بعد الظهر.

في عمله مع المؤسسة في معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين كان أستاذًا ومعلمًا وباحثًا حصيفًا أنجز ما عليه بسرعة قياسية وبدقة ومهارة، فكان محط إعجاب مكتب التحرير ورئاسة الهيئة الاستشارية، بل كان مضرب مثل للآخرين.. كلفناه الاهتمام بالشطر المغاربي كله «ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا» فكان نعم العون والسند.

في عضويته لمجلس أمناء المؤسسة والهيئة الاستشارية للمعجم لم يكن مجرد عضو شرفي - وهو مستحق لأن يكون شرفًا لأي مجلس - بل كان مشاركًا وفاعلاً ذا راي مقنع يستند إلى خبرات ثقافية متنوعة، فكان نعم العون والسند لمشروعاتنا الثقافية.

لم يكن في مقدور المؤسسة الضغط أكثر مما فعلت على الأستاذ لحثه على البقاء والاستمرار في العمل معنا، وهو المحب للمؤسسة وللعمل معًا. فكان أن استجبنا لرغبته، وهنا أمر الأخ الكريم رئيس المؤسسة الأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين بإصدار كتاب تذكاري عن أبي القاسم كرّو، وكان لا بدّ من الإسهام مع رفاقه ومحبيه وهم كثيرون تحية للرجل، وللكفاءة وللإبداع وللعطاء..

بوركت أستاذي العزيز، وحفظك الله وأمد في عمرك ومتعك بالصحة والسعادة .

****

أبوالقاسم محمد كرو

أ. عبدالله زكريا الأنصاري(*)

في عام ١٩٥٤ كتبت كلمة وفاء صغيرة بحق الأديب العربي التونسي الأستاذ «أبوالقاسم محمد كرو» بمناسبة صدور كتابه «حصاد القلم» وكنت رئيسًا لتحرير نشرة «البعثة» في القاهرة، وكان أبوالقاسم ملء القلوب، وصديقًا لأهل الفكر والأدب، وعضوًا لرابطة الأدب الحديث في القاهرة، وكتابه هذا يدل على ما يتمتع به من منزلة رفيعة في الفكر والأدب، وروح نقية صافية في وطنيتها وفي قوميتها، وله كتابات كثيرة في شتى المجلات العربية.

ومضت الأيام، وتقطعت بنا الأسباب، لكن أواصر المحبة لم تتقطع وكلٌّ ذهب إلى شأنه في الحياة. وانفضضنا من القاهرة عاصمة العرب. وحان وقت التقاعد فتقاعدنا، ومع التقاعد عن العمل الرسمي، لم نتقاعد عن العمل الخاص، والقلم سبيلنا إلى العمل.

وفي أمسية من الأمسيات جاء من يحمل إليّ مظروفًا صغيرًا من مؤسسة الأخ الفاضل الأديب الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وإذا بداخله رسالة من الأستاذ الفاضل عزالدين المدني يبشرني «بأن صديقنا الأستاذ أبا القاسم محمد كرو قد تعافى اليوم من المرض العضال الذي ألم به خلال الشهور الماضية، وهو الآن في صحة جيدة والحمد لله»، وأضاف الأستاذ الفاضل المدني بأنه «قد عزم على إصدار كتاب لتكريمه آخر هذه السنة، فبادر الكثير من أصدقائه وزملائه الأدباء في الوطن العربي إلى الإسهام فيه بما عنّ لهم من الذكريات والدراسات حول أعماله الفكرية» ويدعوني إلى المساهمة مع المساهمين من أصحاب العلم والفكر والأدب.

(*) شاعر واديب كويتي من مواليد عام ١٩٢٢، له مؤلفات كثيرة. توفي عام ٢٠٠٦م.

لقد سعدت حقاً بهذه الرسالة من الأستاذ الفاضل عزالدين المدني وهي تنقل إليّ خبرًا سارًا عن تعافي صاحب القلم العربي الحر، وصاحب «حصاد القلم» من مرض عضال ألم به، وأنه استعاد صحته، وهذا بلاشك كسب للفكر والأدب، لأن أبا القاسم ربٌّ للفكر والأدب، وربٌّ للقلم الذي طالما أجراه في خدمة وطنه تونس وفي خدمة أمته العربية التي نتمنى من كل قلوبنا أن يعافيها الله جلت قدرته مما أصابها ويصيبها الآن من الأمراض والعلل. والخبر السار الثاني عزم الأستاذ المدني على تكريمه في إصدار كتاب عنه وعن أعماله، وعمّا قدمه لوطنه وأمته من خدمات، وهذا أعظم وأجلُّ تكريم لمن خدم الفكر والأدب، وخدم الوطن والأمة.

وقلت لنفسي، كيف لقلمي المتواضع، أن يكتب عن أديب ومفكر بجانب الأقلام الكبيرة التي سوف تساهم في الكتابة عنه وعن أعماله الكثيرة التي قدمها للمكتبة العربية؟ فرحت أكتب هذه الكلمات، متذكرًا أيام بيت الكويت في الخمسينيات وأيام رابطة الأدب الحديثه وما تضمّه من نخبة من الزملاء، منهم الشاعر، ومنهم الكاتب، ومنهم المفكر والمثقف والأديب.

إن روابط عدة تربطنا بأديبنا «أبوالقاسم محمد كرو» وهل رابطة أقوى من رابطة الأدب؟ وهل رابطة أقوى من رابطة الفكر؟

إنْ يختلفْ نسبٌ يؤلِّفْ بيننا
أدبٌ أقمناهُ مَقامَ الوالدِ

وكذلك الفكر كما يقول الشاعر:

الفكرُ حبلٌ متى يوصلْ إلى طَرفٍ
مِنْهُ يُنطْ بالثُّريَّا ذلك الطَرَفُ

إن أبا القاسم الشابي نتذكره، ونتذكر شعره، ونغني ونتغنّى به، ويذكرنا بأبي القاسم محمد كرو الذي تغنّى كثيرًا بتونس، وتغنّى بالوطن العربي كله، وجال قلمه وصال في شتى المواضيع التي تخدم أمته العربية، وتخدم وطنه ومسقط رأسه تونس، تغنّى كثيرًا بحب تونس، ولم أجد من تغنى بها أجمل ولا أكثر منه.

لقد مضى ثلاثة وأربعون عامًا على صدور «حصاد القلم» ومضت معها أيام القاهرة، وكل شيء يمضي في الحياة ولا يتوقف. وأجمل شيء فيها أن تمتد بك لتستطيع أن تقدم ما تستطيعه، مما يتفاعل في فكرك وقلبك لكي يكون منارًا لمن بعدك، وإلا فإن كل شيء زائل في النهاية. لكن اعمل لدنياك وكأنك تعيش أبدًا. وطول العمر يُجدي إذا كان فيه عمل.

إنني أعتقد أن أجمل تكريم تقدمه للمكرم هو البحث والدرس والتسجيل لكل ما قدمه من أعمال وخدم به الحياة وخدمة الوطن خدمة للحياة، وخدمة الأمة خدمة للحياة. إن كل عمل مفيد نافع خدمة للحياة، وأبوالقاسم محمد كرو قدم ما ينوء به من خدمة للحياة، وأملنا أن يقدم الكثير أيضًا.

وأجمل وأجدى تكريم للمكرم أيضًا، أن ترصد ما قاله، وما كتبه وما قدمه الآخرون عنه، ففي ذلك خدمة جليلة له، وخدمة أجل للوطن وللأدب وخدمة للحياة. وهذا التكريم المجدي يبقى منارًا، وهاديًا للذين يريدون المعرفة عن المكرم الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من التاريخ، تاريخ الفكر والأدب، وتاريخ الأخلاق والسياسة، وتاريخ السلوك الإنساني والقومي والوطني. ولكل شيء معنا في هذه الحياة.

ليس ألذ من الذكريات الطيبة، إنها حياة أخرى، أو تكاد أن تكون كذلك. والشاعر يقول: **والذكر للإنسان عمر ثان**، وإني لأعرف كيف كان أبوالقاسم محمد كرو حريصًا على حفظ وطبع ونشر ما كتب عن الشاعر أو المفكر أو الأديب، وكان يقول: «إنني لست أخاف أن يموت فلان أو فلان من الأدباء – شاعرًا كان أو كاتبًا – وإنما أخاف أن تموت آثار من يموت منهم!! لأن التجارب القاسية قد أظهرت تقصير الأحياء في حق الأموات، وتقصيرهم في حق أنفسهم أيضًا»، ويقول: «إن موت آثار الأديب أو الكاتب أو الشاعر شيء مؤسف حقًا، بل هو نكبة جلّى، لا تصيب الأديب وحده، ولكنها تشمل شعبه وتاريخ أمته الأدبي» هذا ما كان يقوله أبوالقاسم في كتابه «حصاد القلم» وهو ما نؤيده وندعو إليه، لأنه الجائزة الكبرى، وهي خدمة الفكر والأدب، وهي خدمة الحياة، وتحيات من القلب صادقة نبعثها للمكرَّم وللمكرَّمين؟

****

رجلٌ في ذاكرة الديّار

لمسة وفاء للأستاذ الكبير أبي القاسم محمد كرو

أ. د. عثمان بن طالب(*)

في صباح يوم مشمس من أيام الصيف، رن هاتفي وأنا أتمشى على شاطئ البحر.. كان صوت الأستاذ أبو القاسم محمد كرو يصلني مع أمواج البحر ليقترح عليّ ترجمة ديوان عبدالعزيز سعود البابطين... دار حديث بيننا حول ترجمة الشعر وشروط هذه المهمة.. لم أكن أهتم بهذه التفاصيل بقدر ما كنت مغمورًا بسعادة لا حدّ لها بالثقة التي منحني إياها أستاذي.. كنت أتمنى أن أكون أحد تلاميذه وأن أنهل من معرفته الموسوعية وتجربته الثرية.. اقتربت منه واستمعت إلى حديثه العذب وذكرياته المتشعبة في دروب الثقافة والحياة.. واكتشفت أن الرجل هو أكبر بكثير مما نعرفه عنه من خلال منشوراته العديدة والمتنوعة.. فقد وهب حياته للسؤال المعرفي في الأدب التونسي واللغة والتاريخ والتحقيق والحضارة وقضايا المجتمع المدني.. ولكن هذه المسيرة كانت دائمًا مستنيرة بحكمة العقل وعمق الرؤية وصرامة الموقف... في كل منعطف وكل محطة، الهاجس هو التأسيس والإضافة لأصالة الهوية العربية واحتمالات وجودها في حقل الحضارة الإنسانية.. هذا ما تعلمه جيلي عن الأستاذ كرو.. هو أستاذ الأجيال لأنه علم بارز في ذاكرة الثقافة التونسية المعاصرة.. ليس فقط لأن مؤلفاته من المراجع الأساسية في مدونتنا الأدبية والتاريخية.. بل أيضًا لأن تجربته الميدانية في المجال الجمعياتي والإعلامي ونضال المجتمع المدني والتحرر الوطني هي مرجع نعتز به ونستلهم منه قيم الوفاء لرموز الهوية بأبعادها الإنسانية الرحبة..

هذه الهوية تجمعنا في الوعي بوجودنا.. نتحاور من خلالها مع مرجعياتنا وتطلعاتنا.. وهي قبل كل شيء عنوان وفاء لكياننا التاريخي.. ولعل الأستاذ كرو ظل يبحث

(*) استاذ جامعي ومترجم تونسي من مواليد قفصة عام ١٩٥٤.

طوال حياته عن مضامين هذا الحوار المعرفي ومعاني هذا الوفاء لمقومات الذات المعتزة بوجودها بوعي نقدي يؤمن بجدلية التطور.. من الزيتونة والخلدونية و«جمعية شباب ابن منظور» حيث بدأ مسيرته العلمية، إلى هجرته إلى المشرق العربي سنة ١٩٤٨ حيث تواصلت الرحلة من فلسطين إلى القاهرة إلى بغداد ثم القاهرة وطرابلس إلى عودته لأرض الوطن سنة ١٩٥٤، سنة الإعلان عن الاستقلال الداخلي، ليكون بعد تحصيل افضل درجات المعرفة وشرف المساهمة في التعريف بالقضية الوطنية، من أوائل بناة مؤسسات الجمهورية بوزارة الثقافة... لم ينقطع الأستاذ كرو خلال كل هذه الفترة عن التأليف والنشر (أكثر من أربعين كتابًا وما لا يقل عن ألف دراسة وحديث إذاعي)... كما أنه كان من أول من عرّف بالأدب التونسي وأعلامه في المشرق، وخاصة الشاعر أبي القاسم الشابي، بالإضافة إلى دوره في إثراء اللغة العربية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة والأردن والمجمع العلمي العراقي.

أردت الإشارة إلى هذا الرصيد الضخم من الجهد العلمي والبحث المتواصل لأتوقف قليلاً في معنى الوفاء لنقطة البداية والعودة، مدينة قفصة التي خصص لها الأستاذ كرو كتابًا قيِّمًا يعدّ من المراجع القليلة حول تاريخ المدينة وأعلامها: دراسات عن تاريخ قفصة وأعلامها (نشر جمعية صيانة مدينة قفصة. تونس، ١٩٩٣).

جاء المؤلف في ١٧١ صفحة، محتويًا على مدخل وعشرة أقسام:

- نكبات قفصة في القرن ٦هـ/ ١٢م.
- شعراء قفصة في القرن ٥هـ/ ١١م.
- علماء قفصة في عصر ابن راشد.
- مخطوط قفصي لكتاب أندلسي.
- حول ابن منظور.
- تقديم كتاب الملتقى الأول (لابن منظور).
- ذكريات وآمال.

- من هو ابن منظور.
- تقديم كتاب الملتقى الثاني.
- حقائق جديدة عن ابن منظور.

من محاور الكتاب وعدد المراجع وأسلوب الكتابة، ندرك مدى المكانة التي حظيت بها هذه المدينة في اهتمامات الأستاذ كرّو، وهو اهتمام علمي تاريخي يستمد شرعيته، قبل محبة الموطن، من عراقة المدينة ودورها على مدى التاريخ في الإشعاع الحضاري والعطاء الفكري، رغم ما أصابها من نكبات ومظالم وتجاهل.

يقول الأستاذ كرو في مدخل الكتاب: (منذ أربعين سنة.. وأنا أتابع كتب التاريخ والأدب والتراجم، أتصيد وأسجل منها الأخبار والنصوص والمعلومات ذات العلاقة بمدينتي الأثيرة الحبيبة «قفصة» الصامدة. وقد تراكمت عندي عشرات التراجم ومئات النصوص والوثائق والكثير من الكتب المتصلة بأم المدن التاريخية المغاربية وأم الحضارات في القارة الأفريقية «قفصة» العتيقة العريقة في الجذور والمجد والإشعاع، وكان في عزمي، ولا يزال، أن أستخرج من كل ذلك عددًا غير قليل من الدراسات عن مدينتنا «قفصة» في مختلف العصور والأحقاب منذ فجر الإنسان الأول بها حتى أيامنا الجارية).

هذا الكتاب هو إذن عربون وفاء لذاكرة الديار، وجزء من مشروع كبير يعتبره الأستاذ واجبًا ذاتيًا وموضوعيًا لهذه الذاكرة. هذا الواجب ظل هاجسًا يسكن القلب ويشغل الفكر على مدى السنوات، إذ يضيف «إن هذا الكتاب ليس أكثر من عينات ولوحات اختيرت من ذلك المشروع الكبير، وهي إلى ذلك بحوث ومحاضرات كتبت خصيصًا لمدينتي وعن مدينتي وجرى إلقاؤها في عديد الملتقيات الخاصة بها.. بداية من عام ١٩٧١ ونهاية بعام ١٩٨٦».

ولا شك أن الدور الرئيسي الذي قام به الأستاذ كرو في تأسيس ملتقى ابن منظور و«جمعية نادي قفصة الثقافي والاجتماعي»، وحرصه على نشر أعمال الملتقى، ودعمه لجمعية صيانة المدينة، هو امتداد للوفاء لذاكرة هذه المدينة العريقة المناضلة، فلا ننسى أنه

ومنذ شبابه، كان لا يفصل النضال الوطني من أجل الحرية والاستقلال عن النضال الثقافي والعلمي في صلب مؤسسات المجتمع المدني من أجل الهوية، ففي المدينة التي أحبُّها وأحبته، وفي أحلك فترات الاستعمار وأشدها عسفًا وتضييقًا على الشعب التونسي، كان الشاب أبو القاسم كرو، سنة ١٩٤٤، مع مجموعة من رفاقه، يتقدم إلى المراقبة المدنية الاستعمارية طالبًا «الترخيص بعقد اجتماع عمومي لتأسيس جمعية ثقافية» يقول الأستاذ عن ظروف هذه الفترة في سياق ذكرياته وآماله في ملتقى ابن منظور: وقد اخترنا للجمعية اسم «شباب ابن منظور القفصي» اقتناعًا منا بحاجة البلاد إلى أمرين في ذلك الحين – وفي كل حين – هما إحياء تراثها وماضيها واعتمادها في نهضتها عليهما، كي تبقى متمسكة بشخصيتها متميزة بثقافتها وحضارتها، ثم اعتمادها على شبابها الواعي المثقف كي يكون بناؤها سريعًا، متينًا، ومتجددًا (ص ١١٢).

وإن لم تثبت نسبة ابن منظور إلى مدينة قفصة، فإن الاسم يبقى رمزًا للتمسك باللسان العربي وجعل لغة الأجداد لغة رسمية لشعبنا في جميع المجالات، كما يوضح الأستاذ العلامة بين رمزية هذا العلم التونسي وبين الأهداف الثقافية والوطنية لمشروع هذا الشباب القفصي الملتزم بمطلبي الحرية والمعرفة، فالمسألة لا علاقة لها بالتعصب أو الإقليمية، بل هي «دليل على تفتح عربي شامل واستيعاب لتراث الثقافة العربية جميعًا، بما فيه من طارف وتليد، وحضارة إنسانية ساهم في بنائها عديد القرون وعشرات الأجيال من شعوب كثيرة (ص ١١٤).

تدرك إذن أن اهتمام الأستاذ كرو بتاريخ مدينته الحبيبة هو اهتمام معرفي يتسع إلى العمق الحضاري للهوية العربية، وهو اهتمام مسكون بأسئلة حاضر هذه الحضارة ومستقبلها وبهاجس التأسيس لشروط القوة وإرادة الوجود الفاعل، بدون انفصال عن الذاكرة أو انغلاق في دائرة الذات.

إن منهج البحث الذي اتبعه الأستاذ كرو في هذا الكتاب، هو منهج علمي يوثق للحقائق التاريخية للمدينة من مصادرها المختلفة، ولكنه لا يكتفي بسرد الأحداث وتوضيح سياقاتها ومسبباتها السياسية والاجتماعية، بل نراه يقرأ هذه الأحداث برؤية تحليلية

لتفسير «منطق التاريخ» الذي لم ينصف المدينة وعبادها، ومن ثمة الدعوة لإعادة قراءة هذه الذاكرة بروح نقدية بناءة: «إن ما آل إليه حال قفصة وكامل الجنوب.. كان سببه، منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى نهاية القرن التاسع عشر على الأقل، كان سببه إهمال السلطة المركزية وضعف شأنها تجاه هؤلاء المغامرين وقطاع الطرق واللصوص... فاختل الأمن وساد قانون الغاب، مما أدى إلى انهيار الحياة الاقتصادية والثقافية وتخريب المدن والقرى وما يتبع ذلك من القتل الجماعي والفرار الجماعي.. والنتيجة لذلك كله هو هذا التخلف الاقتصادي والحضاري وقلة عدد السكان في المنطقة وضعف العمران والقوى البشرية البانية.

وفي هذا التاريخ عبرة وحافز وإيقاظ للعقول ودفع للبناء الجديد إن وجدت العزائم والنية الصادقة (ص ٤١).

فالماضي هو دليل المستقبل، والموطن هو عنوان الوطن، لذلك اتصلت ذاكرة الديار القفصية وحضارتها بروح الأستاذ كرو وثيق الاتصال، وألهمت محبته وتعلقه بمدينته، مركز الثقافة والإشعاع الفكري والأدبي والديني في مختلف العصور التاريخية. فكان هذا العشق نقطة الانطلاق والعودة، ومعبر تجوال الرغبة إلى ضفاف المعرفة المتعطشة لفهم أسباب الوجود وشروط تحققه. فهل هي «مأساة التاريخ في المدينة» أم «مأساة المدينة في التاريخ؟» (ص ٦٦)، في كل الأحوال، فإن مدينة التيفاشي وابن راشد وابن عبدالله التميمي وعتيق المذحجي وكاتب الكرامة وابن البغدادي وابن عمران والقائمة طويلة[1].. هذه المدينة ستظل وفية لتاريخها ورموزها.. وقد كتب أستاذنا الجليل أبو القاسم محمد كرو اسمه في هذه الذاكرة الحية بماء الذهب المتوهج بنور العلم وحرارة المحبة.

****

---

(١) يذكر الأستاذ كرو أكثر من واحد وثلاثين علمًا من أعلام قفصة في القرنين السابع والثامن فقط. (ص ٧٠ - ٧١).

وتبقى الذكريات

أ. د. علي الباز(*)

تبقى الذكريات.. كأغلى ما يحتفظ به الإنسان في ذاكرته وفي قلبه، لا شيء أغلى من أن تستحضر – في روحك وفي نفسك – ذكرى معينه لإنسان أو لمكان، أو لوقائع.. فتأتيك الذكريات بكل ذلك، تستحضر لك، تعود بك له، وتعيده إليك، رغم المسافات المكانية والزمنية.

تكاد تلمس – بالذكريات – حبيبًا غائبًا، ابتعدت به الأيام والسنوات عنك، أو حالت بينكما المسافات البعيدة.. تكاد تستنشقه.. تضمه إلى صدرك، تتحدث معه، يخاطبك وتخاطبه، تقهقه بأعلى صوتك، متذكرًا طُرفةً قالها، أو موقفًا طريفًا جمع بينكما، وتكاد تقبّله محبة وتقديرًا وأنت تتذكر مشاعره نحوك ومواقفه معك.

ولذا فإن الذكريات، هي الوسيلة الوحيدة – في رأيي – لاستعادة ما ضاع من عمر، ومن سنوات؛ وإلا فليقل لي قائل: كيف نستعيد ما فات؟

أنت مع الذكرى، تعيشها، وبذلك تعيش لحظاتها وثوانيها، مهما مرت وقائعها وأوغلت في الزمن، وسكنت كهوف الماضي.. لا سبيل أمامك لاستعادة أمسك الجميل الذي ولّى إلا أن تعيده وتستعيده.. بالذكرى.

ولايمكن أن تتكون الذكرى إلا أذا أثّرت في نفسك، إلا إذا حفرت نفسها على جدران قلبك، وعلى مرآة عقلك، ولن تؤثر الذكرى في نفسك وتحفر ذاتها في قلبك.. إلا إذا كانت قادرة – هي – على ذلك. ولن تبلغ الذكرى تلك المقدرة إلا إذا كان صاحبها – إنسانًا أو مكانًا أو وقائع – قادرًا ومؤثرًا ورائعًا.

(*) شاعر واديب مصري له عدد من الدواوين. استاذ قانون باكاديمية سعدالعبدالله للعلوم الأمنية في الكويت. عضو مجلس امناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري (سابقًا).

ولست مبالغًا في ما قلته سابقًا.. ولا في ما سأقوله لاحقًا.. أو ما سأقوله الآن: من أن ما قلته عن الذكريات، وعن أنها لا تحفر نفسها في وجدانك.. إلا بصاحبها - صاحب الذكريات، وبقدرته وتأثيره في نفسك، تلك القدرة التي تتولد عنها أغلى الذكريات. أقول: لست مبالغًا - مبالغة الشعراء رغم أنني اشرف أن أكون منهم - إذا قلت: إن كل ما تقدم إنما يتجسد في الأستاذ أبي القاسم كرو.. الإنسان والصديق والحبيب.

أنا لن أتحدث - ولن أستطيع أن أتحدث - عن علمه وثقافته و«موسوعيته» وجهده الثقافي والأدبي والتراثي، وعن إسهاماته في الثقافة العربية، وعن مؤلفاته العلمية المتعددة، فربما تحدث عن كل ذلك صديق آخر غيري، أو عارف بقدره العلمي، أكثر إحاطة بذلك مني. وإنما أتحدث عن الأستاذ أبي القاسم.. كإنسان وكصديق، وكرفيق ذكريات رائعة.

لقد أسعدني حظي أن أكون رفيق الأخ الكبير الأستاذ أبي القاسم، وأن يكون رفيقي في رحلات عديدة إلى دول المغرب العربي سواء في تونس أو المغرب، أو موريتانيا، أو الجزائر، وكانت تلك الرحلات من أجل الشعر والشعراء، سواء للقاءات مع وزراء الثقافة في تلك الدول، أو المؤسسات والهيئات الأدبية، أو مع الشعراء.

كنا نسعى - حينذاك - لشرح فكرة «معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين» وكان ما زال فكرة تحاول المؤسسة أن تجسدها في عمل موسوعي رائع.

وكنا نسعى لتعاون وزارات الثقافة، والمؤسسات والهيئات الأدبية، مع تلك الفكرة، وكذلك لانضمام الشعراء للمعجم المرتقب، وذلك إضافة إلى اشتراك الشعراء بإبداعاتهم في أنشطة «مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» المختلفة.

وكنت - حينذاك - عضوًا في مجلس أمناء المؤسسة، وكان كل عضو من أعضاء المجلس مكلفًا بمنطقة معينة في وطننا العربي، وأسعدني حظي أن أكون مكلفًا - أيامها - بالمغرب العربي.

وكان صديقنا العزيز الأستاذ أبوالقاسم، مديرًا لمكتب المؤسسة في تونس، ومختصًا بدول المغرب العربي كذلك، وهكذا جمعتنا دول المغرب العربي، وجمعنا الشعر والشعراء،

وهكذا جمعتنا الصحبة الجميلة في زيارات متعددة، كما تجمعنا الآن تلك الذكريات الرائعة، سواء عنه، أم عن تلك البلاد الشقيقة وعن شعرائها.

كان بإنسانيته الطاغية، وحديثه العذب، وأدبه الجم، وثقافته الواسعة ومخزونه الواسع من الحكايات والنوادر والطرائف، ثم «بنشاطه» الذي لايجاريه فيه أحد، كان بكل ذلك - بالنسبة لي - عالمًا خياليًا أسطوريًا وفرصة لابد من «اغتنامها» [كان دائمًا يستعمل تعبير «اغتنم الفرصة» وهكذا تعلمت منه - هذا التعبير - وتركت عبارة «انتهز الفرصة» التي نستعملها عادة في مصر!].

ويبدو أنني في الفقرة السابقة، لم ألتزم الترتيب الصحيح للنواحي المختلفة التي تميز أخانا العزيز، والصحيح أن أبدأ «بنشاطه» الذي لا يجاريه فيه أحد، فهو - رغم أنه كان أكبرنا سنًا - كان أكثرنا نشاطًا، بحيث أننا كنا نلهث - تعبًا وكسلاً - خلفه!

كان كتلة من النشاط في عمله، يبدأ - ونحن رغمًا عنا - عمله منذ الصباح الباكر، وحتى وقت متأخر ليلاً، وكان دقيقًا جداً جداً جداً [لاحظ جداً جداً هذه] ومنظمًا ومرتبًا في عمله وفي تسجيل كل شيء في خاطره، وفي أوراقه، ولذا كنا - كوفد مشترك حيث إنه كان ينضم إلينا - أحيانًا - بعض الإخوة أعضاء مجلس الأمناء مثل أستاذنا الكبير، وحبيب قلوبنا الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي رحمة الله عليه، في زياراتنا للمغرب العربي - أقول كنا نعهد بكتابة التقرير التفصيلي من رحلاتنا إلى أخينا العزيز الأستاذ أبي القاسم، وذلك نظرًا لدقته الشديدة.

وكان ثمة شيء آخر، يتميز به الأستاذ «كرو» وكان ذلك الأمر هو: الدقة المتناهية في مواعيده، والمحافظة الصارمة على المواعيد.. ولقد قاسيت أنا شخصيًا نتيجة «لفوضوية» الشعراء في كل شيء وخاصة المواعيد!!

وأذكر، أننا كنا في تونس، وكنا في يوم جمعة، وأحببت أن أصلي الجمعة في أشهر المساجد هناك «الزيتونة» ويبدو أنني قد شدتني طقوس معينة - أو تقاليد معينة - يقومون بها عقب الصلاة، حيث يجتمع البعض في حلقات يقرأون بعض سور القرآن ثم بعض الأذكار باللهجة التونسية التي أحبها كثيرًا.

ويبدو أنني تأخرت بعض الشيء عن العودة للفندق، حيث كان الأستاذ «كرو» ينتظرني على «الغداء» - على حسابه الشخصي: هكذا أصر أن يقوم بدعوتي على الغداء في الفندق الذي أقيم فيه، وعلى حسابه الشخصي.. رغم أنني أقيم في الفندق! لقد كان - كما نقول في مصر «صاحب واجب» دائمًا.

وعندما عدت متأخرًا، قابلني بثورة عارمة ولكن في أدب شديد.. حتى كدت أغضب.. لكني عرفت فيما بعد أن مواعيده منظمة ومنتظمة تمامًا كمواعيد شروق الشمس وغروبها، ولذا لم أغضب ولكنني أتذكر تلك الواقعة - الآن - كلما أخلفت ميعادًا أو خالفته!

ثم جمعتنا اجتماعات مجلس الأمناء، حيث أصبح الأستاذ «كرو» عضوًا في مجلس الأمناء.. وكان هو.. هو بنشاطه ودقة اقتراحاته التي كان يدرسها جيدًا قبل أن يعرضها على المجلس.

ولكن كل دقته، وجديته في دراسة الاقتراحات أو الآراء، لم تكن تمنعنا - هو «وأنا نظرًا لصداقتنا - من أن نتحالف» - قبل الدخول إلى قاعة اجتماعات المجلس - سويًا، على أن «نتكاتف» في مساندة آراء بعضنا، أثناء المناقشات وكان لنا عذرنا في ذلك [وليسمح لنا الأخ العزيز الأستاذ عبدالعزيز السريع الأمين العام للمؤسسة بتلك التحالفات السرية! وليكن سماحه هذا.. بأثر رجعي] «وهذا مصطلح قانوني أستعيده الآن من عالم القانون الذي أنتسب إليه أيضًا».

أخي وصديقي العزيز أبا القاسم هل أستطيع أن أنساك؟ وكيف ذلك؟ وكيف؟ وأنت حفرت ذكرياتك على جدران القلب، وعلى مرآة العقل؟ لا أستطيع إلا أن أذكرك.. وأذكرك.. وأذكرك: أخًا وصديقًا.. وحبيبًا غاليًا.

وتبقى أنت.. وتبقى الذكريات.

****

شذرات من الذكريات في الأدب.. والنضال

أ. علي الحلي(*)

تعود أولى ذكريات التعرف بالأخ، الصديق، الأستاذ «أبوالقاسم محمد كرو» إلى أواخر الأربعينيات، تلك الحقبة المترعة بالأحداث الكبرى، وعنفوان الحياة الثورية، ففي مقهى «اللطافة»، الذي تغير اسمه فيما بعد إلى مقهى «طارق» الواقع في نهاية شارع باب المعظم، اعتادت أن ترتاده في الأماسي.. صفوةٌ من الطلبة الشباب، الناهض من مختلف الأقطار العربية، خصوصًا سوريا وتونس والجزائر وجنوبي الجزيرة العربية، مع مجموعة من شباب العراق القومي، وهم يتبادلون همومهم، ويتجاذبون طموحاتهم، ثم يلتقون أولاً وآخرًا على وحدة مصير أمتهم وحريتها وسعادتها.

وكان الأستاذ كرو من بين طلبة دار المعلمين العليا (كلية التربية.. الآن)، بينما كنت طالبًا في كلية الحقوق، ولا أزال أتذكر سلامه الحميم وتحيته الرقيقة، وإطلالته الوديعة، وهو يصافحني في المقهى، بعد أن قدمه صديق مشترك لنا، وكيف أخذ يثني على كلمتي «إلى المناضل القومي: ميشيل عفلق»، التي نشرت في مجلة «الدنيا» الدمشقية بالعدد ٩٥ – السنة الرابعة وبتاريخ ٣١/ كانون الأول/ ١٩٤٨، غير أنني عرفت فيما بعد دوافع ثنائه وحماسته وصدق مشاعره حين دارت الأيام والأعوام دوراتها.

وكنت حينذاك عضوًا في حزب الاستقلال العراقي، الذي ارتبط بوشائج قوية مع حزب الاستقلال المغربي، بل ما زلت أتذكر زيارة رئيسه المجاهد الكبير الأستاذ علال الفاسي إلى بغداد، وحضوري خطبة له مدوية في قاعة الملك فيصل الثاني «قاعة الشعب – اليوم»، المواجهة إلى مقهى اللطافة، وكيف أن الخطبة فعلت فعلها.. تمامًا مثلما فعل المجاهد الأستاذ الحبيب بورقيبة في حدائق نادي المحامين عام ١٩٤٩ على أنني كنت مع ذلك أرتبط روحيًا بحركة البعث العربي، دون أن تكون لي علاقة أو صلة عضوية بالحزب.

(*) اديب وشاعر عراقي من مواليد مدينة النجف عام ١٩٣٠ له العديد من دواوين الشعر.

بعد المصافحة، وتبادل الثناء، دارت بيننا أحاديث شيقة متشعبة في السياسة ووظيفة الشاعر، ودور الأدب عمومًا، ثم تكررت اللقاءات في المقهى نفسه، وتعمقت الصلة، واتسعت دائرة الاستشراف الذاتي، وفي المقهى، كان يتردد عليه الشاعر سليمان العيسى، وفائز اسماعيل، وهكذا كانت بذرة البداية.

وفي باكورة الخمسينيات، كنت أشرف على الصفحة الأدبية لجريدة (اليقظة) اليومية الاستقلالية، لصاحبها المناضل الأستاذ سلمان الصفواني، وكانت تصدر صباح كل يوم خميس، واستطعت استقطاب نخبة بارزة من الأدباء الشباب العرب، أمثال: أحمد كمال زكي، وحامد ندا، وحسين فهمي، وكمال نشأت (مصر)، وسعد صائب (سوريا) وأدباء من (فلسطين) نزحوا إلى العراق بعد النكبة، بالإضافة إلى بعض الأدباء من العراق: كاظم جواد، عبدالله نيازي، ياسين الجسّار، وعصام عبد علي وغيرهم، ولقد كان للصفحة الأدبية دوي هائل في أنحاء العراق كما تهافت على تلقُّفها وقراءتها.. الشباب من مختلف الانتماءات السياسية بشكل لافتٍ للنظر مما أفزع السلطة الملكية.

وكان الأستاذ كرو من بين أبرز كتاب الصفحة الأدبية، وأتذكر بشيء من الحزن أنني كتبت ردًا قاسيًا بعنوان (الرعاع الجياع) ردًا على مقالةٍ نشرها فيها. ولقد اجتهدت في الفهم، أن في مضامين كلمته دعوة إلى حرية الجنس، وشجبًا للقواعد المتبعة في الاقتصاص من فاعليها، لما يطلق عليه (القتل.. غسلاً للعار) ورأيت أن الوقت غير ملائم لإثارة مثل هذه الموضوعات، وربما يؤثر على سلوك البعض من الشباب، وتفكيره.. سلبًا في المعطيات السياسية، إلى غير ذلك من المبررات التي انتصفت لها آنذاك بدافع الإيمان الذاتي.

وفي الواقع، كانت مقالتي جامحة، حادة، ومثيرة إلى حد بعيد، ومر علينا أسبوع مشحون بالتوتر والقلق والترقب، ونحن ننتظر ردود الفعل لدى السلطات القضائية. لكن الأمور مرت بسلام وطمأنينة، ويبدو أن ذلك العهد الملكي لم يكن له كبير اهتمام بالمأزق الاجتماعي – الأخلاقي قدر اهتمامه بالمردود السياسي المباشر تجاه الجماهير الواسعة.

واتسعت دائرة العلاقة، وتنوعت مؤشراتها، فبرز الأستاذ كرو اسمًا لامعًا بين الطلبة المناضلين العرب في العراق - وفي بغداد خصوصًا - ليس على الصعيد السياسي القومي العام، بل على المستوى الأدبي والثقافي والنقدي، فكانت له مساجلات وندوات ومقالات في عوالم الأدب والفكر والفن على الصعيد المحلي والقومي، بل كان من المثقفين العرب، المشهود لهم بطول الباع والحكمة والمتابعة، وسعة الرؤية المستقبلية، وجمالية التنوع الثقافي.

وهكذا عرفته الصحف والمجلات، والأندية والجمعيات الأدبية، وكليات بغداد مثلما غمر اسمه مقاهيها وأكثر منعطفاتها حتى نهاية شارع أبي نواس على نهر دجلة.

في عام ١٩٦٥، قدر لي أن أحصل على إجازة قصيرة، لاستقل الطائرة في شهر نيسان، من بروكسل، المدينة، المعتمة، المطيرة.. إلى تونس بحثًا عن الشمس العربية الساطعة، لكي أقرن الرؤيا بالواقع.. أيام كنت أغنِّي حرب التحرير التونسية، وأعزِّي أمة العرب بشهيدها الخالد «فرحات حشّاد»، وأكتب لها أجمل قصائدي في الحب والحرية، وكانت تلك زيارتي الأولى لها.

ثم ضمتنا داره العامرة في تونس في دعوة غداء كريمة، حضرها لفيف رائع من خيرة أبناء تونس، وتجاذبنا أمتع الأحاديث، وأحلى الذكريات، ثم رافقته إلى دارٍ للكتب يعمل فيها، واختار معي مجموعة رائعة من إصدارات الكتب العربية في شتى ميادين الأدب والشعر تم شحنها إلى بروكسل مباشرة، كان من بينها كتابه عن الشاعر العربي الكبير أبي القاسم الشابي. الذي دوّى شعره في مسامع الشرق العربي.

والتقينا في بروكسل عام ١٩٦٦، ثم تباعدت بنا السبل، فكنت أتسقط أخباره بشغف واهتمام، وعرفت من بين أخباره أنه عمل بعض الوقت في ليبيا ومالطة، وتبقى حقيقة تاريخية يجب أن أقولها لمحبيه، أو لمن لا يعرف فضله وجهده، أقولها بلا مجاملة أو مواربة، أو انحراف عن ميزان الحق:

إن الإستاذ أبا القاسم كرُو.. بيرق خفاق في دنيا العروبة الأصيلة ومجاهد يتحلى بأقصى مراتب التواضع والفضيلة ونكران الذات. ممن انخرط منذ بدايات النهوض والبعث في صفوف الطليعة العربية الواعية.. حاملاً معه زاد التقوى، وإكسير النقاء، وعفوية الوجدان الصادق...

وهو بالإضافة إلى كل ذلك – وهذا أمر مهم وحيوي بتقديري – صوت بارز في حركة الأمة الفكرية والثقافية والتراثية الأصيلة، وشاهد مرموق من بين شهود عصره على النهضة الشعرية الحديثة، وتفجر ينابيع الفن التشكيلي في العراق منذ البدايات، فهو إلى جانب إحاطته بمضامين الحركة، كان من الملتصقين برموزها، أو ممن يعرفهم عن كثبٍ ودراية.

وكان الأستاذ كرو أديبًا لامعًا حييّاً، يحمل قلمًا شريفًا يستل أنبل الكلمات، وأجمل الحروف، وأفضل العبارات.

وكان أمينًا على أصالة تراث الأمة، حريصًا على تطورها التقدمي الحديث.. في الأدب والفن والثقافة.

وفي يقيني: أن النقد الموضوعي الجاد، لن يحجم أو يتردد أو يتعاطى عن وضعه في الموقع المتميز، اللائق به، وبمعطيات إنجازاته الثرّة في ميادين التأليف والتحقيق والإبداع.

وإذا كانت مقومات التجارب الحياتية، لا تحقّق – وكما تفرض الضرورة الشرعية – في كثير من الأحيان.. المعادل الإنساني في العدالة، والتوازن المطلوب وفق المستلزمات المشروطة لما يجب أن تفضي إليه الغاية الحية، المرتبطة أصلاً بمسبّباتها، فإن المحصلة النقيضة لا يمكن كذلك أن تضفي أي نوع من ظلال الحقيقة على الجانب السلبي المتحقق من جهة، أو أن تخلّ بالمثل أو القيم العليا للخلود الإنساني.

****

أبو القاسم محمد كرو
مثقف مفرد بصيغة الجمع

أ. د. فؤاد القرقوري(*)

بداية الحديث عن أبي القاسم محمد كرو لا تكون إلا بسؤال مردّه إلى كثرة المداخل إلى هذا الحديث، وتعدّد زوايا النظر إلى هذا الرجل وتنوع مسارات فعله ومجالات نشاطه.

فهل نتحدّث عن أبي القاسم الأستاذ المؤرّخ والعالم المحقّق أم نتحدّث عن أبي القاسم الأديب الكاتب، أم نتحدّث عن أبي القاسم المسؤول عبر ما اضطلع به من الوظائف والأعمال، أم نتحدّث عن أبي القاسم الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويخاصم ويجادل ويصادق ويؤاخي ويتبادل مع غيره الودّ الأصيل.

إن أبا القاسم في الواقع قواسم بصيغة الجمع في الدارجة والفصحى على حدّ سواء. وأفذاذ الرجال لا يكونون إلا على هذا النحو جمعًا مفردًا أو لا يكونون.

ذاك قدرهم وتلك منزلتهم وذاك فضلهم وشرفهم. أما المتحدث عنهم فقدره دومًا أن يجيب عن سؤال: من أين أبدأ؟ وماذا أبرز من جوانب الصورة دون أن أطمس غيرها؟ بعبارة أخرى كيف السبيل إلى الظفر بجانب من شخصية الرجل يختزل سائر أبعادها، بل يمثل قاعدتها وأساسها ويصبح بمثابة الأصل الذي تنبثق منه جميع تلك الأبعاد ومنه تتشكل.

في هذه الحالة كأننا نتحدث عن شخصية أساسية جامعة وهي عند أبي القاسم محمد كرو شخصية المثقف بلا جدال.

عن أبي القاسم محمد كرو المثقف إذن سأتحدث، فكيف ما تحدّث وقال أو فكر وكتب، وكيف ما تحرّى وفعل وأنجز، يظل أبو القاسم مثقفًا بكل ما في الكلمة من عمق المعنى واتساع الأبعاد وأساس ذلك وعي عميق بالواقع الفردي والجماعي وإدراك لمسؤولية المثقف ولدورة ولرسالته.

(*) اكاديمي تونسي. عضو مجلس النواب التونسي. ورئيس لجنة التربية والثقافة والإعلام والشباب في المجلس.

أجل إن أبا القاسم من جيل المؤمنين برسالة المثقف حيث لابدّ من أن تقود الفكرة الكبيرة والمثل الأعلى صاحبهما إلى التحرك لنشر الفكرة وتحويل الحلم الجميل إلى واقع. ومن سمات المثقف الحق أنه يناضل حتمًا، ويواجه حتمًا، لا يهمه ما يلقى من الصدِّ والإنكار وحتى الاضطهاد. وكذلك أبو القاسم سيظل مثقفًا مناضلاً بأشرف المعاني.

يخوض المعارك الفكرية والثقافية ويجاهر برأيه وفكره دون مجاملة أو موارية ويضحي بالمصالح والمنافع إن لزم الأمر، عنيدًا ثابتًا حيث العناد والثبات من أمارات المهج الصادقة المتوثبة والإيمان الراسخ بالمبدأ.

ولعل هذا بعض أسرار ولع أبي القاسم محمد كرو بأبي القاسم الشابي وبالطاهر الحداد وبابن خلدون أيضًا.

إنه رأى فيهم من جملة ما رأى، صورة المثقف التي كان هو أيضًا يحملها في نفسه ووجدانه.

وما من مثقف حقٍّ إلا وهو صاحب مشروع ثقافي بما للمشروع من منطلقات وأهداف وبما يتخذ لتجسيمه من الوسائل ويسلك من السبل.

والرهان الثقافي الأكبر لدى أبي القاسم محمد كرو هو تحقيق صحوة حضارية شاملة منبعها الاعتزاز بالانتماء إلى حضارتنا العربية العريقة واستحضار أمجادها ومنجزاتها الباهرة والتسلح بهذه الروح لمواجهة التخلف الحضاري واستعادة ريادة الأمس التي تُحمِّل أجيال اليوم مسؤولية استرجاعها بالمشاركة في تحقيق التقدم والمساهمة الفاعلة في الحضارة الإنسانية الشاملة.

ذلك هو الحلم الكبير لدى أبي القاسم المثقف تقدميّة في جوهرها تنطلق من الماضي المجيد لتنفتح على أرحب مدارات الحاضر وآفاق المستقبل... فليس عجبًا بعد هذا أن يراهن أبو القاسم على الشباب وأن يخاطبه بشتى الصيغ وأن يكتب له الكتب ويتوجه إليه بالنصائح والوصايا.

لقد اختار أبو القاسم كرو الشباب مدخلاً لنشر الوعي الثقافي والحضاري ومن أجل ذلك أحدث سلسلة «كتاب البعث» وأدارها حلقات شهرية من الكتب حول أعلام الفكر

وقضايا الثقافة. فالكتاب عند أبي القاسم يظلّ أنجع الوسائل لبلوغ الصحوة الحضارية المنشودة.

ولذلك اقبل على تأليف ما ألف من كتب كثيرة غزيرة، ما زال يدعمها بجديد التأليف والتصنيف. ولذلك أقدم – راغبًا – على إهداء مكتبته الضخمة إلى كلية الآداب بـ(منوبة) وفاءً لعلاقته بالشباب فكرًا وثقافة ووعيًا وإدراكًا للمسؤولية.

هكذا يظل الشاغل الثقافي الهاجس الأعمق لدى أبي القاسم وقد جسمه بما أشرنا إليه من جوانب القول والفعل والإنجاز، مثلما جسّمه بالمساهمة الفاعلة في خلق سنة ثقافية باقية تمثلها تلك الملتقيات العلمية والفكرية والثقافية التي تمّ بعثها في مختلف جهات البلاد فعدّت من المواعيد الثقافية القارّة التي تجتذب إليها الفكر والثقافة من مختلف الأجيال.

وما زلت أرى أبا القاسم وهو مرابط في مكتبه بمقرّ اللجنة الثقافية الوطنية بتونس يسهر على حسن تنظيم هذه الملتقيات والندوات ويشرف على إعداد ما يلزمها من الوثائق.

يفعل ذلك دون كلل أو ملل، بعزم المثقف وصبر المثقف وإيمان المثقف برسالته النبيلة.

ويمتدّ إشعاع الصورة، صورة أبي القاسم المثقف، فإذا الرجل في مجال العمل الثقافي العربي المشترك، يعمل ويتحرك، دون هوادة، مسكونًا دائمًا بالشعلة المقدّسة لا يهمه أن ينال من جهده وصحته، فالنفوس الكبيرة تتعب في مرادها الأجسام مثلما أكد ذلك المتنبي، ومثلما وجد أبو القاسم في بلاده تونس مجالات الرعاية والتكريم فقد لقي لدى مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري من التقدير ما مكنه من مزيد خدمة الثقافة العربية.

أطال الله عمر الأخ الصديق أبي القاسم محمد كرو ومتعه بالصحة والعافية وأبقاه رمزًا من رموز الساحة الثقافية في تونس وفي الوطن العربي.

****

من حديث الذكريات

أ. فاضل خلف(*)

عندما رحل أبوالقاسم الشابي عن هذه الحياة في ١٩٣٤ كنت في السابعة من العمر، وفي خطواتي الدراسية الأولى، ولكنني كنت بعد تسعة أعوام أي في عام ١٩٤٣ طالبًا في المدرسة المباركية، وكان مدرس اللغة العربية، هو الأستاذ المصري صابر الجمل الذي أخذ يحثنا على القراءة ويدخلنا مكتبة المدرسة للتزود بما فيها من كتب ومجلات في جميع الفنون بعد أن كنت لا أعرف سوى الكتب الشعبية كألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وسيرة عنترة بن شداد، وسيرة سيف بن ذي يزن، وغيرها من الكتب الشعبية.

دخلت مكتبة المدرسة في أواخر شهر أكتوبر، وتناولت قبل كل شيء عددًا من مجلة الرسالة، وكان رقمه ٥٣٦ وتاريخه ١١ أكتوبر ١٩٤٣ وبعد قراءته، وقراءة القصيدة الوحيدة فيه وهي هلال شوال لمحمود حسن إسماعيل، سارعت إلى مكتبة التلميذ في السوق للاشتراك في المجلة التي ظلت سميري على مدى عشر سنوات، حتى توقفت عن الصدور في ١٩٥٣، ولم أكتف بذلك بل أخذت أبحث عن أعدادها القديمة حتى وصلت إلى السنة التي توفي فيها أبوالقاسم الشابي، فإذا بي أقرأ قصائد مضيئة لشاعر مبدع اسمه أبوالقاسم الشابي التونسي، وفهمت بعد ذلك أن المجلة أخذت تعيد ما نشر للشابي في مجلة «أبولو» المصرية.

وأحببت الشابي وكان من بين القصائد قصيدته الجميلة «النبي المجهول» وكنت أظن أن الشاعر توفي في سن الشيخوخة حتى علمت من الذين يعرفونه أنه غادر الدنيا وهو في الخامسة والعشرين، فازددت له حبًا على حب.

(*) شاعر واديب ودبلوماسي كويتي من مواليد الكويت عام ١٩٢٧ له العديد من دواوين الشعر والدراسات الادبية.

ومرّت الأيام وأنا ابحث عن أخباره حتى جاء يوم من عام ١٩٥٢ عندما وقع في يدي كتاب «أبوالقاسم الشابي: حياته وشعره» بقلم الأديب التونسي أبي القاسم محمد كرو.

لقد كان كتاب الأخ كرو نقطة تحول في حياة الشابي، وحياة كل قارئ يحبه، أقول نقطة تحول، لأن هذا الكتاب بما فيه من معلومات قيمة عن الشاعر، جعلت القراء في كل مكان، يطّلعون على عالم مفتوح الآفاق على سيرة الشاعر، التي كانت محجوبة عنهم تمامًا، نعم كنا نعرف بعض قصائد الشابي التي نشرت في أبولو والرسالة والأديب، ولكننا كنا نتشوق إلى معرفة الشاعر، متى ولد وكيف عاش وكيف مات، وهو في بواكير الشباب، كنا نريد أن نتعرف على أشياء كثيرة عن شاعر زخرت أشعاره بعوالم عجيبة من المعرفة والفلسفة والحب والحياة. لذلك تلقيت الكتاب «بفرحة من وجد جزيرة آمنة في البحر اللُّجيّ، أو واحة غنَّاء في المفازة الجرداء» على حد تعبير الشاعر المصري الأديب محمد مصطفى حمام، في أحد مقالاته عن كتاب من الكتب منذ أربعين سنة.

إن فرحتي بكتاب أبي القاسم عن أبي القاسم، لم تكن فرحة لي وللقراء وحسب، بل كانت فرحة الكبار في الوطن العربي، ومن يتصفَّح الأعمال الكاملة للشابي، التي أصدرتها مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، يجد كبار الأدباء، قد تلقوا كتاب أبي القاسم عن أبي القاسم، بمثل فرحتي.. ولم انقل هنا سوى جزء من رسالة ناسك الشخروب ميخائيل نعيمة الذي وجه رسالة إلى المؤلف قائلاً: «وأما كتابك عن الشابي فهو في نظري خدمة جليلة للأدب العربي، وللمكتبة العربية. فهذا الشاعر الفذ الذي طوى المنون صحيفة عمره، وهو ما يزال في ريّق الشباب، جدير بأن يعرف العرب في كل أقطارهم أين نبت وكيف عاش وعن ماذا تفتقت قريحته الجياشة، بالثورة على الظلم والبشاعة، والتَّوافه، إلى العدل والحرية والجمال. فليس يكفينا أن نعرف أنه القائل:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياةَ
فلا بدَّ أن يستجيبَ القدرْ

ولا أبالغ إذا قلت إن أكثر الذين سمعوا بالشابي لا يكادون يذكرونه إلا بتلك القصيدة «إرادة الحياة». وإذن فكتابك عنه قد جاء في وقته. بارك الله فيك - المجلد الرابع - ص٤٠٥.

نعم.. لقد جاء كتاب أبي القاسم عن أبي القاسم، في وقته كما قال ميخائيل نعيمة، وكما قلت أنا، وكما قال آلاف القراء من الذين أدركوا ما في شعر الشابي من فنٍّ جديد لم يألفوه من قبل.

وأذكر هاهنا أنني بعد رجوعي من تونس منهيًا أربعة عشر عامًا من العمل بسفارة الكويت، طلبت مني الإذاعة والصحافة أن أشارك في تقديم أحاديث ومقالات أدبية، وفي سؤال وردني من البصرة في العراق يتساءل صاحبه محمد صادق الحلي، عن فن الأدب، وهل يمكنه هو أن يصبح في يوم ما شاعرًا أو كاتبًا، قلت له جوابًا على سؤاله في جملة ما قلت: « إن أبا القاسم الشابي الذي ودع الحياة في سن الخامسة والعشرين، فرض نفسه على الحياة الأدبية، لأنه أتى بشيء جديد غير مألوف في الحياة والأدب والمجتمع، وما هذا الشيء الجديد الذي جاء به إلا الفن، فصار له هذا الصيت الطائر في الأدب العربي بديوانه «أغاني الحياة» - كتاب قراطيس مبعثرة لكاتب هذه السطور ص١٧ - ١٨ مقال فن الأدب.

ومن كتاب أبي القاسم عن أبي القاسم تطاير النسل المبارك من أشعار الشابي في الوطن العربي، وتغلغل في الكتب والمجلات، هنا وهناك - خاصة الكتب المدرسية، حتى لم يبق طالب مدرسة لا يعرف أبا القاسم الشابي بقصيدته «إرادة الحياة» وببيتيه المشهورين في مطلعها، لأن هذين البيتين، يعتبران من شعر الثورة ضد الغاصبين.

تعمدت أن أطيل الحديث عن الشابي، وأنا بسبيل الحديث عن أبي القاسم كرو، لكي أعمق الروابط المتينة بين الرجلين، فأبوالقاسم الشابي بإبداعه، وأبوالقاسم كرو بإخلاصه للأدب وإخلاصه لشعر الشابي، وإخلاصه لتونس التي أنجبتهما، فجعلتهما يلتقيان في

خط إبداعي واحد، وقد رأينا آثار هذا الخط الإبداعي، وهي تزدهر في ميادين الأدب منذ أكثر من أربعين سنة.

أعود الآن إلى ذكرياتي مع أبي القاسم محمد كرو.. فبعد قراءتي لكتابه الأول عن الشابي، وكنت أعمل حينذاك في إدارة المعارف، مرَّ عليَّ كتاب تعيينه في سلك التعليم في الكويت فسررت غاية السرور، وأخبرت زملائي في نادي المعلمين، وكان فيهم عدد من الأدباء والشعراء الذين قرأوا كتابه وآثاره الأدبية في المجلات، فشاركوني سروري، واغتبطوا بالخبر، فوجود أديب تونسي بينهم يعني التواصل الأدبي والثقافي بين البلدين الشقيقين، وكانت تونس في ذلك الوقت تكافح كفاح الأبطال، ضد الغزاة في سبيل الاستقلال.

وانتظر الإخوان موعد وصول أبي القاسم، وطال انتظارهم ثم حدثوني في الأمر، فكان جوابي مخيبًا لآمالهم، حيث إنه اعتذر قبل حلول العام الدراسي بوقت قصير.

ومرّت الأيام، وكانت عشرة أعوام، عندما تم تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الكويت وتونس، وعينت الكويت سفيرها المرحوم السيد رجب الرفاعي في عام ١٩٦٢، لدى تونس، وكنت إذ ذاك بعد رجوعي من لندن، أقدم أحاديث أدبية في راديو الكويت، فاتصل بي السفير قائلاً: ما رأيك في العمل معي في السفارة؟! فشكرته على مبادرته الكريمة موافقًا. وبعد اتصال منه بوزير الإعلام عينت ملحقًا إعلاميّاً بالسفارة، وسافرت إلى تونس في منتصف شهر جويليه ١٩٦٢.

وقد سحرتني تونس بجمال طبيعتها وبجمال طبيعة أهلها، وفي خلال ثلاثة أشهر، استطعت أن أدخل قلوب التونسيين من أوسع الأبواب، وهو باب الأدب – وأهل تونس أكثر الناس عشقًا للأدب – فقد وردتني رسالة من أخي وأستاذي عبدالله زكريا الأنصاري يقول فيها: إلى الذي أنسته تونس الخضراء إخوانه الأدباء، فبادرت بالرد شعرًا بقصيدة «تونس الخضراء» قلت في مقدمتها:

لم تُنْسِني تونسُ الخضراءُ إخواني
ولم تزدني سوى شوقٍ لخلاّني
ولم تزدني سوى حبٍّ إلى وطنٍ
اصْفيتُه الودَّ الوانًا واصفاني
وللكويت حنينٌ بات مِلْءَ دمي
لولا وجودي في الخضراء لأضْنَاني

وكانت القصيدة في ثلاثة وعشرين بيتًا وهي أول قصيدة نظمتها بعد انقطاع عشر سنوات عن نظم الشعر، وكانت أشعاري السابقة كلها في الغزل، ما زالت حتى الآن، مخطوطة لم تنشر وعنوان المجموعة «باقة من الورد».

ثم إن القصيدة نشرت في مجلة اللغات لصاحبها الأخ الصديق أحمد بلخوجة، وفي المساء اتصل بي السفير السيد رجب الرفاعي بالهاتف وهو يقول «افتح الراديو على تونس» وإذا بالمذيع يقرأ القصيدة بصوتٍ إذاعي جميل.

وهكذا بعد أن كانت القصيدة في نطاق محدود، أصبحت في كل بيت، ومنها كما قلت قبل قليل دخلت قلوب الأحبة التونسيين من أوسع الأبواب، ومنهم الأخ أبوالقاسم محمد كرو الذي وجدت فيه الصديق الصدوق، والأخ المحب، والزميل المعين، وقد زودني بدراسة عن الصحافة التونسية التي ساعدتني على معرفة المسيرة الصحافية بكل وضوح.

وقد ضمَّتني مع الأخ أبي القاسم عدة لقاءات عامة وخاصة مثل اللقاءات الأدبية عن عباس محمود العقاد، وبدر شاكر السياب، ومصطفى خريف، ولا أنسى الندوة الأدبية التي بثتها الإذاعة التونسية على الهواء عن أبي القاسم الشابي، فقد كان إخواني أدباء تونس يدعونني لمشاركتهم في كثير من اللقاءات الأدبية والمهرجانات الثقافية.

وفي ختام هذه الكلمة العجلى التي جاءت والشيخوخة تزحف علي بكل متاعبها بعد السبعين لا سيما ضعف البصر، فلم تسعفني الذاكرة الكليلة إلا بهذه الكلمات القليلة التي

أرجو أن يكون فيها شيء يستحق الذكر في هذا المقام، وهو تكريم أخي العزيز أبي القاسم محمد كرو، أخي الأديب الذي كان له الفضل مع إخوانه الأدباء، في تسهيل مهمتي الثقافية مدة أربعة عشر عامًا، وأنا في تونس الخضراء، أخي الأديب الذي أثرى الحياة الأدبية بعشرات الكتب، كان من أهمها عدة كتب عن شاعر تونس، بل شاعر العرب أبي القاسم الشابي.

وكلمة أخيرة في هذا المقام أهديها إلى روح المرحوم الأديب المغربي الذي عمل قبلي في تونس ملحقًا إعلاميًا في سفارة المملكة المغربية، وكان أبوالقاسم محمد كرو هو الذي حدثني عنه قائلاً: «لقد أعدت إلى الأذهان سيرة الأديب المغربي، الذي كان يعيش بيننا في تونس، ويعمل مثل عملك، وكان يشاركنا كما تشاركنا أنت اليوم في الحياة الأدبية والثقافية».

وعلى ذكر الحياة الأدبية والثقافية لا بدَّ لي من ذكر مجلة الثقافة التي أصدرها الأخ أبوالقاسم محمد كرو والتي كان لي شرف الكتابة فيها عن أحد الشعراء الكويتيين.

****

الهويـة والحريـة فـي فـكر
أبي القاسم محمد كرّو

أ. د. فتحي التريكي(*)

أبو القاسم محمد كرّو علم من أعلام التجديد في الحركة الفكرية التونسية والعربية، في مجمل إنتاجاته التي قد أعاد إصدارها في أعماله الكاملة «حصاد العمر»، تبيَّن بصفة قطعية نضاله اليومي من أجل تجديد التصورات والمفاهيم لتكريس ثقافة مناضلة لنهضة عربية متواصلة، وبعث قيم حضارية حديثة ومتأصلة في الآن. سأحاول في هذه الدراسة التي أهديها إلى أستاذي تكريمًا لإسهاماته المتواصلة في تطوير الفكر العربي، أن أبين الوسائل التي بواسطتها حاول أبو القاسم محمد كرو أن يجدد الكيان بعد تأصيله من خلال تركيزه:

أ - لأدب مناضل توحيداً للكيان العربي.

ب - لثقافة ناقدة تطويرًا للعقل العربي.

ج - لأخلاقيات التعامل البشري تحييناً للسلوكات الإسلامية النزيهة.

لا يختلف اثنان في تحديد معالم الفترة التاريخية التي بدأ فيها المفكر حياته الأدبية، من حيث هي فترة بداية الخيبات والانتكاسات العديدة التي واجهت الأمة العربية بعد سقوط فلسطين وتركيز الكيان الصهيوني في ربوعها، ولكنها كانت أيضًا فترة النضالات المتعددة التي تهدف إلى التحرير والتنوير حتى تتقدم الشعوب العربية وتشد عودها صمودًا ومقاومة، فكان لابد للأدب العربي بصفة عامة أن يتفاعل مع أزمات مجتمعاته وتمزّقات أفكاره وأن يحاول بعث سيرورات إبداعية متجددة ومفاهيم وتصورات مستحدثة علها تساهم في تأسيس ركائز النضال الفكري بحثًا عن الكيان والحرية والتقدم.

(*) مفكر واكاديمي تونسي، رئيس كرسي اليونسكو للفلسفة بالجامعة التونسية.

نجد هذا التوجه التجديدي في بدايات مؤلفات الكاتب حيث تقرأ له مثلاً في مقالة صدرت له في ديسمبر ١٩٤٧ حول «الكشافة» ما يلي: «ونحن كأمة تتطلع لأبعد غايات الأمم وتريد أن تبلغ مركزها في الحياة ومكانها في الوجود وأن تنال حظها غير منقوص من التقدم والرقي في كافة الميادين دون أن يكون لأحد فضل عليها، أو تفرط في شيء من تراثها العتيد ومميزاتها الخاصة، يجب عليها أن تسلك خير السبل المؤدية إلى ما نصبو إليه»(١).

لقد فهم المفكر الأديب، في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة العربية، أن البكاء والحسرة وتمجيد الماضي وغيرها من المواقف الوجدانية التي عبر عنها الكثير من الأدباء والشعراء والمبدعين عصر ذاك غير كافيه لإعادة ترتيب البيت، فمهمة المثقف قد أصبحت متمثلة في تكوين منظومة مفهوميّة تقدميّة وتحررية، بواسطتها نفهم واقعنا ونقرأ ماضينا ونستشرف مستقبلنا. فعندما نتحدّث عن الأدب النضالي فإننا لا نعني فقط النظر إلى الكتابة من منطلق سياسي صرف قد يلغي السند الجمالي والنقدي للأثر الأدبي. فالمنطلق السياسي للأدب بصفة عامة قد يتدحرج به إلى مستوى الأداة السياسية والفكرة الإيديولوجية والتحريض النضالي، إذ إننا نعني بالأدب النضالي ما به تتكون لغة جديدة ثوريّة في ميدان الثقافة. قد تكون هذه اللغة الجديدة نتيجة مدّ انفعالي لا غير، يظهر ويغيب مع فترة زمنية محددة، وقد تكون نتيجة تدبر الأمور الواقعة تدبرًا عقليّاً نعبر عنه تارة شعرًا وتارة أخرى نثرًا، فيأتي أحيانًا في صورة إقرارات أدبية وأحيانًا أخرى في صورة تفكير فلسفي عميق. إنه الأدب الملتزم الذي كان أبوالقاسم الشابي خير مثال لتكريسه بجمالية فائقة وكان محمد فريد غازي أفضل معبِّر عن مستلزماته وأهدافه وكان أبو القاسم محمد كرو أفضل من دافع عنه في كل أعماله، بداية من كتاباته الثقافية ومقالاته التنويرية ودراساته حول أدباء عصره ومناضليه، وصولاً إلى مقالاته المتعددة في المجتمع المدني ومرورًا بنشاطه المتنوع في النوادي والجمعيات غير الحكومية، حتى وإن كانت له مشاركات في المؤسسات الرسمية، فكلها تدخل ضمن فلسفة الالتزام في الكتابة، يقول أبو القاسم محمد كرو عن العلاقة بين الثقافة والسياسة مثلا «بالنسبة إليّ هي علاقة كعلاقة الدم باللحم لا انفصام ولا انفصال بينهما»(٢).

(١) أبو القاسم محمد كرو، حصاد العمر، المجلد ١، دار المغرب العربي تونس ١٩٩٨ - ص ١٣.

(٢) انظر حصاد العمر المجلد٦، ص ٢١.

ولابد من أن نستخرج بعجالة عمادين اثنين للأدب النضالي الذي يميز أعمال المفكر ونشاطه، فالعماد الأول يتمثل في ما سأسميه بالوعي بالذات، والعماد الثاني هو الحرية في الفكر والعمل.

فكان الوعي بالذات هدفًا واضحًا من أهداف فكر أبي القاسم، لقد فهم أن الفرد ما دام يعيش في حصار داخل دائرة نفسه أو داخل دائرة مجتمعه، وما لم يدرك أسباب ذلك ومكوّناته ومستتبعاته فيعي ذاته من حيث هو فرد له الحق في الحياة والنثر والإبداع، ومن حيث هو عضو في بناء اجتماعي وقومي يمكن أن يكون فيه فاعلاً ومواطنًا، فإن علاقته مع ذاته تبقى في كنهها جريحة مهزوزة قد تتحكم فيها دوافع وجدانية داخلية أحيانًا ومطامع منفعية خارجية أحيانًا أخرى. إن إنسانًا يجهل ذاته لا يمكنه أن يكون فاعلاً في مجتمعه، فلا غرابة أن يبدأ أبو القاسم حياته الفكرية بوضع سؤال قد يبدو ظريفًا، ولكنه يدخل - حسب رأينا - ضمن مشروع الوعي بالذات الذي حاول المؤلف تركيزه في غالب أعماله، فهو يتساءل في مقال صدر له بجريدة لسان العرب سنة ١٩٤٨[(١)] «أتونسي أنت..؟» فيحثنا على العودة إلى الذات لتأصيل كياننا «التونسي من تخلق بخلق الإسلام وارتدى شيم العروبة»، ولكنه يحثنا وبنفس العملية على تحديث الكيان لأن مبدأ التونسي هو «تخليص هذا الوطن من كبوته، وعقيدتُه العمل المستمر والجهاد المتواصل في النهوض بشعبه والسير به قبالة أهدافه المنشودة..».

فالهوية بالنسبة إليه لا تعني ثباتًا في الذات بقدر ما تعني توجيه الثوابت نحو مشروع نضالي جهادي متواصل نحو الأفضل، بذلك تكون الهوية عنده مشروعية - حسب تعبير جان بول سارتر - وليست ارتكاسيّة كما نجدها متمحورة عند البعض من المفكرين الفاعلين في المجتمعات العربية.

وثمة ملاحظة لابد أن أسوقها هنا. لقد شهدت الساحة الثقافية في تونس بعد الحرب العالمية الثانية حركيّة فاعلة في تكوين هوية متفتحة تمنع التقوقع والتحجّر والتطرف، وكان ذلك استتباعًا لحركة النهضة في أوائل العشرينيات، ولعب فيها الطلبة الزيتونيون بجانب

---

(١) انظر حصاد العمر، المجلد ١ - ص ٢٣.

الصادقين دورًا ريادياً لا يستهان به، ويدخل تأسيس مجموعة كتاب البعث، الذي قام به أبو القاسم محمد كرو في أواسط الخمسينيات، ضمن هذا التوجه الإقبالي للهوية الذي أعطى لتونس صبغة خاصة تميزت بها عن ثقافات الوطن العربي، مع التأكيد على أن ذلك – حسب رأي المفكر – يكون في واقع الأمر دفعًا لتجديد الثقافة العربية حتى تلعب دورها في توحيد الشعوب العربية مرورًا بتوحيد المغرب العربي.

أما الدعامة الثانية للأدب النضالي عند أبي القاسم محمد كرو فهي دعوته المتواصلة للتحرر. فالفكر الوحدوي لابد أن يقوم على فكرة التحرر والتقدم – على الصعيد الاجتماعي والقومي، وعلى فكرة الحرية والحقوق على الصعيد الشخصي والفردي. فالقارئ والمتمعن في أثر المفكر الأديب يلاحظ نزعة ليبيرالية تحررية في بدايات كتاباته في أواخر الأربعينيات، فهو يقول مثلاً في مقال نشر بجريدة اليقظة ببغداد وصدر في مجلة البعث سنة ١٩٤٩: «الحرية وباسمها تذكر الحضارات... بجوهرها تسمو شعوب وتعلو أمم، ولكن أيضًا «برموزها يستعبد الإنسان أخاه الإنسان وتمتصّ الدول دماء الشعوب»[(١)]. نعم، لقد حاول المفكر أن يكون – من أول وهلة يقظًا إذ إن معضلة الحرية التي قد بنى عليها الغرب حضارته في الآن الذي بواسطتها قد استعبد الشعوب. لذلك ربطها الكاتب بالتحرير أصلاً باعتبار أنها نضال يومي في سبيل العزة والكرامة. فهي في تونس – عهد الاستعمار – «تطهير لأرض الوطن من فظائع المستعمر البغيض».. و«لكنها في الجزائر جهاد عبدالقادر خمسًا وثلاثين سنة».

ولكن فكرة الحرية ستتبلور أكثر في كتاباته لا سيما في فترة ما بعد الاستقلال حيث لم تعد تقتصر على التحرر من غطرسة المستعمر، بل أصبحت تلتصق بهوية الفرد من حيث هو أسّ المواطنة من ناحية، ومن حيث هو إنسان له حقوقه الأساسية التي يجب على كل نظام سياسي واجتماعي حمايتها. فهو يقول مثلاً في حواره مع الأديب المفكر فؤاد القرقوري[(٢)] «... وإذا عدتم إلى سلسلة كتاب البعث تجدون أنها كانت تحمل شعار (فكر حر وحياة أفضل) فالثقافة والفكر حرية أو لا تكون، وهي إلى ذلك لا يمكن أن تكون إلا أصيلة نابعة من ذاتنا ومتفتحة في ذات الوقت على كل ثقافات العالم دون تحديد».

---

(١) حصاد العمر، مجلد ١ – ص ٤١.

(٢) حصاد العمر، مجلد ٦ – ص ٧٢.

الحرية هاجس أساسي في أعماله الأدبية ومواقفه السياسية وإنتاجاته الفكرية، فعلى سبيل المثال كان كرو وهو زيتوني التكوين من أول الذين مجّدوا صدور مجلة الأحوال الشخصية التي أتاحت للمرأة التونسية استرجاع كرامتها وحريتها فكتب مخاطبًا الزعيم الحبيب بورقيبة «مرحى لقد نقلتنا من ضفاف القرون الوسطى إلى ضفاف العصر الحديث».

هكذا يأخذ التحرر هنا بعدًا حضارياً به تستكمل الحضارات شؤونها وعليه تتأسس حواراتها، فالتحرر هنا يقضي على رماديّة الهوية من حيث هي ارتكاس وتشبث بالماضي وبالتراث، لقد كان كرو عروبي التوجه في حياته وأعماله وأفكاره، ولكنه لم يكن يومًا تراجعياً في مواقفه وكتاباته، فقد دافع وبقوة عن كل الأدباء والكتاب والشعراء والمفكرين التقدميين، بعثيين كانوا أو ماركسيين أو اشتراكيين وحتى الشيوعيين منهم، لأنه يؤمن بدور حرية الفكر في تقدم الأمم وإشعاعها، يقول كرو في كتابه حديث رمضان «ولا سبيل مطلقًا اليوم إلى الرجوع للوراء لنبدأ من حيث بدأ أجدادنا أو حتى من حيث انتهوا، بل علينا أن نأخذ جميع قيم الحضارة المعاصرة..»(١).

وقد وضّح هذه الفكرة في مكان آخر عندما قال «أعتقد أنه إذا كان من واجبنا أن نعتز بتراثنا ونبني عليه، فإنه لمن واجبنا أيضًا أن لا نأخذ منه إلا ما يكون دعامة لنهضتنا ورافدًا لتقدمنا، إلى جانب ذلك علينا أن نفتح عيوننا وصدورنا وعقولنا بالخصوص على جميع الثقافات المعاصرة وجميع العلوم والإنجازات التي حققها الإنسان الحديث»(٢).
هكذا يتسنى لنا التأكيد في الدفاع عن الأدب النضالي، على التوجه التحرري التعقلي للمفكر (أبو القاسم محمد كرّو)، فلا يكاد يخلو عمل من أعماله المتنوعة والثرية من التشديد على النضال الفكري من أجل التعقل والتحرر، وحتى دراساته الكثيرة في التاريخ والحضارة العربية في المغرب العربي لا تخلو من البعد النضالي التحرري، همّها ترسيخ العقل الرصين في نمط تناولنا لتاريخنا ولأعلامه وأبطاله وإنجازاته. ويضيق المجال هنا

(١) حديث رمضان، سلسلة البعث - ١٩٥٧ تونس.

(٢) المثاقفة بين الحضارات، حصاد العمر، المجلد السادس ص ١٧٦.

للاستدلال على هذه الفكرة، ولكنه يكفي الاطلاع على مقالاته حول تاريخ (ابن أبي الضياف) أو حول ثورة علي بن غذاهم أو حول علي مصطفى المصراتي أو حول التيفاشي وحول بعض زعماء العالم الذين ارتبطوا بفكرة الحرية والنضال مثل نهرو وبوتو وغاريبلدي، يكفي الاطلاع على هذه المقالات للتأكد من أن المفكر كان دائمًا «يحارب ويشهر بكل استغلال» هدفه عودة الحياة الى الشعب التونسي وإلى الأمة العربية وإلى الإنسان بصفة عامة.

****

الطاهر الحداد في
نظر أبي القاسم محمد كرو

أ. د. كمال عمران(*)

للطاهر الحداد منزلة بين قاسمين. الأول أبوالقاسم الشابي والثاني أبوالقاسم محمد كرو. نجد عند الشابي صورة من العصر اشترك بها في اختراق النسق السائد مع الحداد، فمثل وإياه ميزة في المجتمع نطقت عن قدرة على فهم الأوضاع السائدة وعلى التهيؤ لتحديث الفكر. فأبوالقاسم علامة على النهل من المعرفة الزيتونية سرعان ما تخطاها إلى الأخذ بأسباب المعرفة العصرية وهو الجهد نفسه الذي أنجزه الحداد.

ونجد عند أبي القاسم محمد كرو صورة عن التفاعل مع آثار الحداد في فترة كان فيها كل شيء يعود إلى الزعيم الحبيب بورقيبة، فالوقوف على غيره من رجالات الإصلاح مغامرة بل مجازفة، وهذا ما يرفع كتاب أبي القاسم محمد كرو إلى درجة الجرأة والمبادرة. وهو كتاب أراده صاحبه دينًا إزاء الحداد وهو عندنا درس لافت لما أبصره مفكر تونسي في فجر الاستقلال عن مفكر تونسي عاش خلال الثلاثينيات.

١ - التعريف بالطاهر الحداد:

يمثل الطاهر الحداد أنموذجًا للمفكر الفاعل في المجتمع التونسي في ثلاثينيات القرن العشرين. فقد جمع إلى النضال النقابي نضالاً اجتماعياً انعكس في كتاب له أثير عنوانه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» صدر سنة ١٩٣٠، وقد حمل الكتاب علامات أراد بها المؤلف أن يحرّر المرأة التونسية، فلقي عنتًا شديدًا من بعض شيوخ جامع الزيتونة، بل جرّد الحداد من شهادته العلمية وأصيب بقهر اجتماعي شديد أدى إلى وفاته في ريعان شبابه.

(*) استاذ جامعي واكاديمي وباحث ومفكر تونسي من مواليد عام ١٩٥١. عضو مجلس امناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، عضو المجلس التنفيذي لليونسكو، له عدد كبير من المؤلفات.

٢ - بين الحداد وأبي القاسم الشابي:

لا شك في أن ما خلَّفه الطاهر الحداد من آثار ما زال يحتاج إلى الدراسات، فما نشر عنه قد نال منه غرضًا، ولكن تقدم المناهج وخصوصية المقاربات تدعو إلى عقد صلات جديدة مع هذه المدونة. وليس بعيدًا عن مؤلفات الحداد القراءات التي تناولتها بالنظر والبحث، لذلك اخترنا في هذا السياق أن ننظر في قراءة من قراءات النقاد عن الطاهر الحداد. إذ اعتبرنا أن قراء الحداد يمثلون جانباً مهمًا في الإلمام بمنزلة هذا المفكر في الفكر التونسي الحديث بل في الفكر العربي عمومًا، فإن القراءات هي التي تدفع إلى تمثل تلك المنزلة. ولقد سبق أن قلبنا النظر في قراءة لم ترصد في كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» إلا ما يكبل الرجل بوابل من السباب ومن الانتقاد. ومن هذه الدراسات دراسة الشيخ محمد الصالح بن مراد بعنوان «الحداد على امرأة الحداد».

ونروم في هذا المجال أن نولي اهتمامًا بقراءة قد تعاطفت مع الحداد بل أعلنت الانتصار الواضح لعمل الرجل، وقصرنا العناية بموضوع المرأة دون غيره من القضايا التي خاض فيها الطاهر الحداد.

يشير عنوان البحث إلى العلاقة بين أبي القاسم الشابي والطاهر الحداد، وهي علاقة جديرة بالدرس، لأن الوشائج بين الرجلين لم تتولد عن طريق الصدفة بل هي قائمة على طبيعة الحياة الاجتماعية التي عرفها المجتمع التونسي في العشرينيات من القرن العشرين. ولقد أحدث صدور كتاب أبي القاسم الشابي «الخيال الشعري عن العرب» ضجة في تونس، إذ إنّ الكتاب وهو محاضرة في الأصل، شنَّع بالخيال العربي وألح على الضحالة التي سيطرت عليه، ومجدّ خيال الأوروبيين لما فيه من بعد أسطوري كان حنينًا دائبًا إلى زمن بكر، زمن البدايات التي كان فيه الإنسان يحظى بوجود خصب، وكان أيضًا رفضًا للواقع المهيض وطلبًا لوجود جديد قوامه على سديم الكون الأبدي. لقد أحرج كتاب الشابي الذائقة الشعرية السائدة وأقضّ مضجع الطريقة التقليدية التي أسّرت الشعر في النظام الأخلاقي والاجتماعي، فنزل الشعر عن عرش الإبداع والإنشاء، ليستحيل وصفات ممجوجة تعدّ لغواً من الكلام.

ولقد أحدث كتاب الحدّاد (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) ضجّة صاخبة هو الآخر فكان فعله في الحياة الفكرية عنيفًا استنفر قوّة نظارة المسجد الأعظم على لسان الشيخ محمد الصالح بن مراد لإعلان الحداد على امرأة الحدّاد. فكان ظاهر العلاقة بين الزيتونيين ممثلين في الشيخ ابن مراد سجالاً حول الموقف من الشريعة، الإسلامية وباطنه متصل بما في آراء الحداد من مواقف داعية إلى أن تنال المرأة حظها من الحياة الاجتماعية.

كان صدى الخيال الشعري للشابي في الحياة الأدبية والفكرية من قبيل الصدى الذي أحدثه كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) في الحياة الدينية. وإن كان الخيال الشعري أرسخ في مجال الإبداع والنقد فإنّه لا يخلو من الإبانة عن الوضع الحضاري في العشرينيات، وإن كان كتاب الحداد (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) أقرب إلى الدراسة الحضارية فإنه لم يخل من إشارة إلى النسق الفكري التقليدي الذي شلّ الإبداع وجعل الإنشاء الصادق ضربًا من رجس الشياطين.

ولا يخفى أن الشابي شأن الحداد قد عالج مسألة المرأة. وقد تغزّل الشابي بالمرأة وارتقى بها إلى صف الآلهة فصلّى لها في هيكل الحبّ:

يا ابنةَ النورِ إنني أنا وحدي
من رأى فيك روعة المعبودِ

أو قوله في قصيدة أخرى:

أفقْ أيها الشعبُ المهانُ فقد أتوا
إليك بتجنيسٍ لعلك تُخدَعُ
ولا ترهبنْ فالخوفُ موتٌ محقّقٌ
يعمُّ بيننا شرُّه المتطلع
نهوضًا على المجد الذي شادَ أهلُنا
بعزمٍ له قلبُ الصّفا ينصَدع

فالوقوف عند صورة المرأة عند الشابي يحيل إلى تأمل في المنشود الرومنطيقي الذي كان مستبدًا به. أما الحداد فقد سخّر كتاباً لهذه القضية واقتضت طبيعة الكتاب أن ينزل الحالة في بعدها الحضاري تنزيلاً مزدوجًا. جانب فيه متصل بالشريعة. وجانب ثانٍ مستند إلى المجتمع وإلى وضعية المرأة ضمنه. ولا وجه للتكافؤ بين الجانبين في الكتاب لأن القسم الأول وجيز والثاني وفير، بيد أن الإيجاز في الأول لم يمنع من التصريح بآراء لم يعرف لها من نظير في الفكر العربي الإسلامي إلا نادرًا. تميز هذا القسم بالجرأة التي دفعت الحداد إلى الفصل بين الأحكام الشرعية والقيم الفاضلة التي تحددت في المثل الأعلى الإسلامي. فمثل هذا القسم السبب الداعي إلى النقد والباعث إلى موضع القدح، والسبب في ذلك دعوة الحداد إلى تجاوز الأحكام المتعلقة بالمرأة بحكم منطق التدرج في القرآن الكريم والأخذ بالقيم كالعدل والقسطاس المستقيم. أما القسم الاجتماعي فلا ينازع فيه إلا جاحد للواقع التاريخي نظرًا إلى ما فيه من معطيات موضوعية هي بمثابة المادة الخام الأنثروبولوجية عن أوضاع المرأة في تونس في بدايات القرن العشرين. وهذا ما أفصحت عنه استجوابات الحداد لعلماء عصره ولم تحل إلى ما يفيد الرفض منهم.

على أن إثراء ما كتبه الحداد في هذا السياق الاجتماعي بما طرأ على المجتمع التونسي من جديد، يمكّن من فهم الوضع التاريخي الذي كان متهيئًا لمثل تلك الآراء وكان ينتظر بروز مواقف جريئة تعلن ما كان متكتمًا في الواقع. فلقد نهض الواقع التاريخي في العشرينيات على تأكد خروج المجتمع التونسي من بنى العالم التقليدي إلى بني العالم الجديد وهو عالم حداثي، إذ الحداثة قد دخلت الحياة الاجتماعية العربية الإسلامية عنوةً بعد أن ولدت صدمة ولم يع أبعادها الحقيقية والحتمية إلا نفر قليل من المفكرين. لذلك أشار الحداد في كتابه «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» بعد أن وصف الحالة الاجتماعية في تونس وحللّها إلى أن البلاد بحاجة إلى «المفكرين» وهم الأمناء على تأمل الوضع وعلى استحداث السبل المؤدية إلى إدراك خطورة الرسوب في النّسق التقليدي.

لقد فهم الحداد أن بنية المجتمع التونسي قد خضعت لمفارقة فظيعة؛ جانبها الأول يرتبط بالتنائي المشط بين المدينة والبادية، وقد عرفت تقسيمات بوأت المدينة - الحاضرة -

منزلة ذات بال ودحرت البوادي في بؤس مادي وآخر ذهني. والجانب الثاني هو التحوّل الذي رسم بنية هذا المجتمع ولم يكن ناجمًا عن تطور داخلي محض نظرًا إلى قوة المحافظين والسطوة الراجعة إلى التمكن من مصالحهم بقدر ما تولّدت عن العلاقة المفروضة التي أدخل بها الاستعمار البلاد التونسية في دورة المركز والمحيط، فتعرض المجتمع التونسي إلى نقلة سطحية – في ذلك الحين – أدرجت جانبًا من القوة العاملة في خدمة الاقتصاد الفرنسي، ونذكر هنا عمّال المناجم بصفة خاصة. وإن كان الإدراج لا يعني الانخراط في العقلية الاستعمارية فإنّه أرغم هذا الطائفة على الخدمة، كما دعا طوائف أخرى إلى الانزياح عن الإنتاج التقليدي إلى التعامل مع المعطى الاقتصادي المركزي.

٣ - قراءة أبي القاسم محمد كرو للطاهر الحداد:

من القراءات التي رسمت خطّاً متميزًا لفكر الحداد كتابات أبي القاسم محمد كرو. وقد أردنا أن نمحّصَ ما فيها قانعين في هذا العمل بما يمتد إلى موضوع البحث وهو الحداد والمرأة.

أ – المرأة في الإسلام:

قدّم أبوالقاسم محمد كرو خلال شهر رمضان لسنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م سلسة من الأحاديث بثتها الإذاعة الوطنية بتونس، ومن الأحاديث ما تعرض لمسألة المرأة، وقد رأيناه مدخلاً مناسبًا لاستكشاف الصورة التي رسمها الحداد عن المرأة في ظرف دقيق كانت فيه تونس قد كسبت السيادة بالحصول على الاستقلال، وقد علت الأصوات بالريادة المطلقة للرئيس الحبيب بورقيبة.

يحتوي كتاب «حديث رمضان»[١] موقفًا من الإسلام لم يكن في ذلك التاريخ مما يستساغ الخوض فيه لدى علماء الزيتونة بصفة خاصة. وأن التمييز هنا بين طائفة من علماء الجامع الأعظم من المحافظين لأصحاب المصالح من النظام القائم من جهة وعدد من

(١) ابوالقاسم محمد كرو، حديث رمضان، سلسلة كتاب البعث عدد ٢٤، تونس ١٩٥٨.

العلماء من ذوي الجرأة والدعوة إلى الإصلاح من جهة ثانية، والطلبة الذين كانوا ينهلون المعرفة فيه وهم ينشدون التجديد والتطوير من جهة ثالثة ضروري حتى لا يظن أنّ كل ما في الزيتونة وكل من فيها كان يحمل الرؤية التقليدية أو كان قابلاً لمهادنة الأوضاع سواء مع الاستعمار أو مع الباي الحاكم الصوري[1].

جماع الموقف الذي صدع به كرو من الإسلام أن النص القرآني وسنة النبي يمثلان منبعًا يلائم حياة الإنسان وليس فيهما ما يصد عن طلب الدنيا فضلاً عن رجاء الآخرة. فالنص يدعو إلى ما فيه بقاء الإنسان وإلى ما فيه خيره فهو دين إنساني بلا جدال[2] إلا أن تاريخ المسلمين كان زاخرًا بالازورار عن النص كما أسرع نحو تحنيط القراءة وأضحى الفكر الإسلامي تقليدًا أعرض عما تستوجبه الحياة من تجديد بل من تغيير[3].

وللمرأة في الإسلام عند أبي القاسم محمد كرو منزلة رفيعة لا بالقياس إلى ما دعا إليه الرسول (ﷺ) فحسب [4] بل على مبدأ المساواة الذي جعله الإسلام عقدًا ينتظم حبّات العلاقات الاجتماعية. ووجد كرو عند أحمد زكي أبي شادي مثالاً معبرًا عن منزلة المرأة في الإسلام: يقول أبوشادي: لم يأت الإسلام بالنقاب والحجاب وإنماء بالاحتشام ولم يحرّم الإسلام على المرأة الزعامة ولا الامتلاك ولا الاستقلال الاقتصادي ولا أي مظهر آخر من مظاهر شخصيتها الإنسانية الحرة التي وجدت أحيانًا قبل الإسلام كما تعرف في شخصية الملكة زنوبيا وفي شخصيات أخرى اشتغلت بالشؤون العامة كالقضاء والسياسة والإدارة وما إليها، بل أكدها الإسلام وزاد عليها كمحاربته تعدد الزوجات والرق[5].

«إذا جاء ناعق في آخر الزمان يزعم أن اشتغال المرأة بالسياسة غير جائز شرعًا فإنه يتجنى بهذا الزعم أيما تجنٍّ على الإسلام ويهين عقول الناس بحسبانهم من أهل العصور المظلمة[6].

(١) انظر ما ينقله احمد توفيق المدني: حياة كفاح، الجزء الأول ص ١٤٥.
(٢) ابوالقاسم محمد كرو، المصدر المذكور، ص ٢١ (الإنسانيات).
(٣) نفسه ٦٥.
(٤) ابوالقاسم محمد كرو، الطاهر الحداد ضمن كتاب البعث، ص ٨٨ - ٨٩.
(٥) محمد عبده، تفسير، المنار، ج٤ ص ٣٥٦ - ٣٧٠.
(٦) ابوالقاسم محمد كرو، الطاهر الحداد، ص ١٩.

لقد وضع أبوالقاسم محمد كرو المسألة في إطار تاريخيتها بمعنى أن للمرأة في النص الديني الأصيل حظاً محمودًا وأن لها في الواقع التاريخي حظاً مغايرًا سيئًا. وهو ما ولّد طريقتين في التعامل. طريقة تأولت النّص بالأعراف الجارية وبالعادات والتقاليد؛ فجعلت السائد قيمًا عند فهم آيات القرآن. وطريقة التمست في النص تحطيمًا للقيود الاجتماعية واعتبرت الآيات مطيّة لتمثل دور المرأة اقتضاء للحقوق الإنسانية التي لا يختلف فيها الرجال عن النساء. وإن تبني رأي أبي شادي لهو إقرار بكثافة ما علق بالمرأة في التاريخ العربي الإسلامي من مظالم كانت في أحيان كثيرة تلتمس مبررات لها من القرآن ومن السنة تأويلاً منحرفًا أو اصطناعاً وافتراء.

السؤال المطروح هنا هو لماذا اختار كرو أبا شادي دليلاً له على ما في الإسلام من دعوة إلى تحرير المرأة؟

لا شك في معرفة أبي القاسم بمواقف محمد عبده ومواقف قاسم أمين وطائفة من الذين ناصروا قضية المرأة. فكان التعبير عن الوعي الوليد بذاتها بلسان الرجال بدءًا بالطهطاوي ووصولاً إلى الطاهر الحداد. ونجد المبرر في هذا الاختيار في أن للأدباء آراء لا تخضع للمنطق الفقهي السائد؛ فهم أقدر أهل الفكر على استبصار ما يعتبر عادياً ومألوفًا فينقدونه ولا يرون فيه ما يوجب التمسك به، إذ لهم الجرأة على الفهم وعلى التجاوز في آن. على هذا النحو جاء كلام أبي شادي ينسف في الإسلام، ما علق به من تُهم تمسك بها الأوروبيون في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي للطعن في الإسلام مما دفع رجال الاصلاح من أهل العلم الشرعي إلى الردّ والدفاع دونما جدوى(1). تبنى كرو قراءة أبي شادي فخرج من الرؤية الفقهية إلى الرؤية الأدبية ونكّب بينهما عن الرؤية الاجتماعية.

تنهض الرؤية الفقهية على إخضاع الواقع للنصّ وعلى تمثل النّص تمثلاً تقليدياً. والتقليد في الاصطلاح إنما هو نقل لأقوال «الرجال» دون طلب للحجة وهي راجعة إلى القلب أو للدليل وهو متعلق العقل. وهذا يعني الإغضاء عن القياس بين قول العالم المتبع

---

(1) نفسه ص ٥٢ - ٥٨.

المقلد والنص القرآني أو الحديث الصحيح. فهذه الرؤية – وهي تختلف عندنا عن مادة الفقه – هي التي امتلكت ناصية التصورات الفقهية فألزمت أصحابها بالحواشي والمتون، وحبست النظر في الاجتهاد ضمن المذهب في الحالات الناصعة وفي الفتاوي المعبرة غالبًا عن سذاجة الفكر الديني وعن هروبه عن الواقع الجديد إلى النصوص الجاهزة وهي نصوص المتأخرين، فمثل ابن عابدين عند الأحناف في تونس سلطة جوهرية وبقي خليل على شرح الزرقاني سلطة عند المالكية وهي العقلية التي تجسمت في كتاب «الحداد على امرأة الحداد» للشيخ محمد الصالح بن مراد.

وتقوم الرؤية الأدبية – وهي ما وجدناه عند أبي شادي – على نقض السنن السائد وعلى التقاط التقاطع بين النصّ الديني والواقع المتجدّد.

ركّز أبوشادي على روح النص القرآني في ضوء ما ترمي إليه من مقاصد فليس الحكم منفصلاً عن مناطه، لذلك يجدر التمييز بين النقاب والحجاب وهما في نظره ليسا من الإسلام، بل هما من فرض الواقع والأعراف، والاحتشام هو المقصد الأسنى للمرأة كما جاء بها الإسلام. فوجب نزع آثار التقليد المجحفة على المرأة حتى تتحرر باسم الإسلام الحق.

إن في اختيار أبي القاسم محمد كرو موقف أبي شادي ضربًا للرؤية الفقهية بالرؤية الأدبية، الأولى حنّطت صورة المرأة والثانية عتقتها.

وتبقى الرؤية الاجتماعية الغاية الجوهرية في نظر كرو وهي ما وقف عليه عند الطاهر الحداد.

ب – الحداد والمرأة:

قرر كرو بلغة لا تخلو من الإعجاب ومن الإشادة أنّ «أعظم أثر وأروع تراث تركه الحداد هو كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» الذي دافع فيه عن المرأة دفاعًا مجيدًا حارًا، وأنذر جيله بحقائق صارخة نعيش نحن اليوم في غمرتها»[1].

(١) نفسه ص ٣٧ – ٤٢.

ويبدو الدافع إلى هذا الإعجاب ما تأجج في صدر كرو من حنق على منتقدي الحداد الذين تخطوا في معاملتهم له أصول الإسلام وآدابه. وينعكس هذا الحنق في جملة من المقابلات حشد فيها التضارب المشط بين فكر الحداد وفكر منتقديه.

الحـــــداد	خصومه
شهيد الحق والخير	هم أعداء الحرية وأعداء الشعب وأعداء التقدم
الرشد	الغيّ
المستقبل	الماضي
التاريخ المتوثب النشيط	التاريخ الآسن المتعفن

استعمل الأستاذ كرو معجمًا مزدوجًا، جانب فيه يمت إلى الدين وقيمه بصلة من قبيل «شهيد» و«الحق» و«الخير» و«الرشد» و«الغي»، وجانب ثان فيه اقترن بالتقدم والترقي من قبيل «الحرية» و«الشعب» و«التاريخ المتوثب» و«التاريخ الآسن» ولم يجر هذا المعجم على السياق المعهود له فقد قلبه قلبًا ليتحول سجل الكلام إلى موقف في حدّ ذاته، فاستبدل الشعارات التي رفعها خصوم الحداد إلى مدلولات ترفع من شأنه: فقد أخرجوا الحداد عن دائرة العقيدة وأوّلوا كلامه على المروق عن الدين فجعل كرو الحداد شهيد الحق والخير ليخرج الصلة بينه وبين خصومه من المنطق الملازم للرؤية الفقهية إلى المنطق المنبثق من «التمدن» و«التقدم»، وبهذا المنطق الثاني نسف ظلم الخصوم واشتق من كونهم الفكري سجلاً بوّأ الحداد منزلة الشهادة. والأمر ذاته استخدمه ليطعن في نوايا الخصوم وفي أفعالهم وقد استمده من الأرضية الفكرية التي انتمى إليها الحداد كما أسس الموقف على الحرية المنشودة وربطها بإرادة الشعب إيمانًا بدوره في النهوض، وعلى التقدم وهي غاية الإصلاح وركيزته. والفاصل بين الحداد وخصومه هو فاصل بين مفهومين للزمان وللتاريخ، يعيش الخصوم على أطلال الماضي ويستشرف الحداد المستقبل، وقد تعفن مع الخصوم التاريخ وتوثب مع الحداد ونشط. الم ينقلب الحكم على الحداد من خصومه عند كرو إلى صورة جعلها مطية لتوحي بشدة التقابل وحدة التنافر، فأضحت الصورة بالمعجم، وسجل الكلام مطية للانتقام من الحداد على خصومه.

يتراءى موقف الحداد الاجتماعي من خلال هذه المقابلة المتجذرة في المعطى الزماني إذ كان للفرق عند التعامل بين من يشيد الفكر على أساس التفقه في اللحظة التاريخية ومن يكدس التجريح والسباب خوفًا من التجديد وخشية على المكتسب المادي والذهني من التلاشي.

لموقف الحداد الاجتماعي - في نظر كرو - مرتكزات ثلاثة متعاضدة. المرتكز الأول هو الحرية. وهو مفهوم في - هذا السياق - في المطالب التي كان التونسيون يرفعون لواءها على لسان السياسيين والمفكرين والأدباء في آن، وقيمته في هذا السياق أنه يجمع بين تصورين لم يكونا واضحين وضوحًا تامًا في تلك الفترة - في العشرينيات -.

كان التصور الأول غالبًا وهو ماأستعجله رجال السياسة من مطالبة بـ «حرية» تهيئ للتونسين نصيبًا في إدارة شؤونهم وهذا ما نفهمه من خلال كتاب «تونس الشهيدة» الذي أشرف عليه الشيخ عبدالعزيز الثعالبي، ومن خلال نقاط التفاوض التي رفعتها الوفود إلى باريس وهي لا تلغي سيادة فرنسا مطلقًا بقدر ما تنشد اعتبارًا للتونسيين يوفر لهم حظاً في السياسة. وجمّاع هذا التصور الأول أنه اعتنى بالمعطى السياسي وجعله غاية المطالبة.

ونجد للتصور الثاني صدًى كبيرًا عند الحداد في كتابيه «العمال التونسيون وتاريخ الحركة النقابية» و«امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وفي شعره وهو التفطن إلى العلاقة العضوية بين الحرية السياسية - مطالب رجال السياسة - والحرية الاجتماعية، وهي المعركة التي خاضها الحداد في فكره وفي حياته، فلا اكتمال للتحرر من المستعمر ما لم يكن المجتمع مستنداً إلى بنية ناضجة على مستوى الحياة الاجتماعية، وإن لم تتحرر المرأة فسيبقى نصفه مشلولاً مدحورًا.

المرتكز الثاني هو الشعب وهو ما عكس إيمان الحداد بأنّ للشعب دورًا في بناء المجتمع المتكامل وفي المطالبة بالحرية السياسة. وليس أدل على الإيمان بالشعب من انخراط الحداد بصفة حماسية في العمل النقابي[1]. ومن السخط الذي أعلنه الشعب يوم كان المستعمر يغري بالتجنيس.

---

(١) نفسه ص ٤٣ - ٥٨.

المرتكز الثالث هو التقدم وهو ما أدّى إلى الخصام العنيف بين الحداد والرجعية. ولنا في هذا الإطار أن نتأمل الفرق بين الحداد وخصومه في نسق التفكير.

ينهض النسق الفكري عند خصوم الحداد على قولةٍ تنسب إلى مالك وهي «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» ولا نريد أن نناقش هذه القولة - وهي بحاجة إلى المناقشة - بقدر ما نكتفي بالكشف عن المنظومة الفكرية التي اقتنعت أنه ليس بالإمكان أحسن مما كان. فلا يمكن تصوّر التقدم خارج منطق الثبات وهو الذي اعتبر أن الحقيقة جاهزة وأنّ غاية الإنسان في الوصول إليها لا الابتداء بها.

ويستقيم النسق الفكري عند الحداد - وإن هو خريج الزيتونة - على معنى الصيرورة والحركة. فالأشياء لا تكتمل ولا تتبلور إلا في ضوء التطوّر والتنامي وليست الحقيقة جاهزة بل تكتسب فليس ما يورث من السلف هو الحقيقة بل هو تمثّل لها في ظروف تاريخية معينة، وهو لا يعوق بحال عن إنتاج المعرفة وإخصابها. ولا يتم الإخصاب دون معرفة بحقائق اللحظة التاريخية ودون الانتباه إلى الأثر الذي تحدثه البنية الاجتماعية.

هذه المرتكزات مبثوثة في كتاب أبي القاسم محمد كرو عن الحداد، وقد آثرنا أن نلمّ شعثًا لها لندرك أنّ الباحث توخى طريقة مغايرة لخصوم الحداد. فلم يشغله ما شغلهم من قضايا التشريع بل أضفى على فكر الحداد صفة شمولية راعت الجهد الفردي.

على أن كرو لم يهمل إهمالاً تامًا القسم التشريعي، لقد أثار مسألة تعدد الزوجات وألح على مطالبة الحداد بوضع قانون يمنع التعدد في هذه المسألة وأن يجعل الطلاق بيد المحكمة. إلا أنه سكت عما وراء هذه الدعوة من خوض في مسألة الاجتهاد وقد يحسب المستعجل أن ما صدع به الحداد في منع تعدد الزوجات بدعة لم يعرف لها نظير في الفكر الإسلامي الحديث، وإن متعقب هذه المسألة يلمس لها أثرًا بعيدًا في ما نقل رشيد رضا عن الشيخ الإمام محمد عبده في تفسير المنار وقد قام رأي عبده على منع تعددّ الزوجات.

كما أثار كرو في الجانب الاجتماعي من كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) مسألتين هما الزواج بالإكراه والزواج بالأجنبيات.

أما الزواج بالإكراه فهو مرتبط بالقضايا المركزية في كتاب الحداد وهي الحجاب والسفور وحياة المرأة في المنزل وتعليم المرأة وتزينها فهو لم ينظر إلى المرأة من زاوية واحدة بل قلّب البصر في كل الجزئيات التي تحف بها لتجعل منها كائنًا فاعلاً في المجتمع.

ويتبع التفطن إلى مفاسد الزواج كما كان قائمًا في تونس، الزواج بالأجنبيات لما له من صلة في نظر كرو بالتجنيس. فالحداد أنكر هذا النوع من الزواج في ذلك الوقت لأنه تمثل الغاية التي تربطه بالتجنيس وقد خاض فيها خوضًا قدّر الخطر الذي أعلنه القانون الصادر يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٢٣، ولم يخب عزم الفرنسيين على التجنيس إلى سنة ١٩٣٣، ولعل اشتعال نار الغضب عند التونسيين في هذه المسألة – ضمن المسائل الأخرى الملتهبة – ما هيّأ البلاد لاحتضان الحزب الدستوري الجديد سنة ١٩٣٤ لأنه رفع لواء المقاومة الفعلية وهو ما قد سبق أن تنبأ به الحداد «إن سياسة الاحتلال المادية والمجردة من استعمال العقل.. لئن كانت تسلب المادة منا وتحاول فصلنا حتى عن خصائصنا الأدبية والتاريخية.. فإنها أيقظت بقدر ذلك عواطفنا وشعورنا القوي يقظة ستظهر الأيام قيمتها ولو بعد حين».

تقف دراسة أبي القاسم محمد كرو عن الحداد في موضوع (امرأة في هذا المدّ) وهو عمل يحمل صورة دفاعية تؤكد الوشائج العاطفية التي تربط بين أبي القاسم محمد كرو والطاهر الحداد دفاعًا يستند إلى التأثير الذي رآه كرو في صلب عمل الحداد في الواقع التونسي.

وإن كانت الدراسة لا تخلو من الإعجاب بالحداد فإنها – ولأنها رائدة – تدعو بإلحاح إلى إعادة النظر في أعمال هذا المصلح الاجتماعي وتؤكد التوازي بين البحث في

آثار الحداد ودراسات قرائه دراسة تكشف عن الاتجاهات المختلفة في تناول فكر هذا الرجل، فلقد بعث كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» حياة أخرجت الفكر من الجمود إلى الجدال والسِّجال والمعارك، وما زالت أصداء هذه المعارك تتأجج في قراءات الحداد.

****

ذكرى الفتى عمره الثاني

أ. د. مبروك المناعي(*)

لا أكاد أعرف رجلاً لقي من التكريم ما لقي أبوالقاسم محمد كرّو، ولا أكاد أعرف رجلاً لا يزال يستأهل التكريم كأبي القاسم محمد كرّو؛ هذه إحدى حقائق «الكرم»... إنه نخر وادخار تنمو فيه فوائض الأرصدة وتزكو على قدر حجم الودائع ويثمر من الغلات على قدر الصبر على إفادتها للغير وإنتاجها للخير.

من يفعل الخير لايعدم جوازيه

لا يذهب الخير بين الله والناس

إن التكريم: أن يُذكّر للكريم كرمه، وعلى قدر الكرم يكون الذكر.. والذكر مهما كثر وجاد، لا يعدل الفعل ولايقوم به، وما أكثر ما أقرَّ الشعراء – وهم أقدر الناس على الذكر – بضعف الوسيلة وقلة الحيلة في الاعتراف بفضل الكرماء، هذه حقيقة أخرى من حقائق الكرم.. والكرم ليس الجود فحسب، وإنما هو أكثر منه بكثير، إنه مركب فضائل يشمل الجود أي العطاء والبذل بلا مقابل وبلا مَنٍّ، كما يشمل الحلم والمروءة والإيثار ومكارم الأخلاق جميعًا؛ هذه حقيقة أخرى من حقائق الكرم.

إن أبا القاسم أمّةٌ في شخص إنسان، ورجل «لايحصى ولا يعد».. هو أولاً أستاذ ومربٍّ بأتمّ ما في الكلمتين من دلالات، له تلاميذ في تونس وفي ليبيا وفي العراق.. وهو مناضل وطني له تاريخ وإسهام في حركات التحرير بتونس والمغرب العربي والوطن العربي.. وهو مثقف ملتزم مكافح منافح عن أمهات القضايا القطرية والإقليمية والقومية.

أعطى من قدراته وخبراته ونشاطاته في مجال العمل الثقافي لمدينة قفصة – مسقط رأسه – حقّها، وأعطى لتونس – بلده ووطنه – حقّها وأعطى المغرب العربي حقّه، وأعطى

(*) أديب وناقد تونسي وأستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بمنوبة من مواليد بسكّرة (سليانة) عام ١٩٥٤م. له العديد من المؤلفات. فاز بجائزة النقد عام ٢٠٠٠ من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. مدير إدارة المعلمين العليا ومستشار وزير التعليم العالي والبحث العلمي بتونس.

للوطن الكبير حقَّه.. يكفي أن يستحضر الإنسان مسيرة حياته، ويلقي نظرة على مؤلفاته حتى يدرك اهتماماته، ويقدر إسهاماته ويعرف كيف استطاع هذا الرجل - أو قدِّر له تقديرًا حكيمًا - أن يكون - حيثما تقلب وفي كل ما أنجز وكل ما كتب وألف - تونسيّاً كما يجب ومغربيًا كما يجب وعربيّاً كما يجب.. وكيف اتسعت نفسه وعقله لكل هذا معًا وتآلفت فيه هذه المكونات وتكاملت غاية التكامل، فعاش تونسيّاً في المغرب وفي المشرق ومغربيّاً في تونس وفي المشرق، ومشرقيّاً في تونس وفي المغرب، وعربيّاً في كل مكان.. حتى في داره وسريره.. عربي جنانه، عربي لسانه، عربية أعياده.

وهو كاتب مبدع ومؤلف ثبت وباحث منقب وناقد حصيف ومفكِّر مجتهد، غزير العطاء كثير الإنتاج، متنوع الاهتمامات أسهم بنجاعة وفاعلية في عديد الجمعيات الثقافية والهيئات العلمية والندوات والملتقيات والمؤتمرات الثقافية.. وهو موظف في مجال الثقافة نهض بمسؤوليات عديدة وأسندت إليه مهام ووظائف سامية مرموقة من بينها إدارة الآداب بوزارة الثقافة بتونس، والإدارة العامة للدار العربية للكتاب (التونسية الليبية) وعضوية مجلس الأمناء لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري (الكويتية العربية).

وهو مع كل هذا وقبله وبعده - إنسان كريم، نزه صدوق نَيِّر متزن أصيل متفتح صريح عذب كالماء الصافي حلو كالعسل الماذيّ.. لم يشغل مساحة واسعة من الساحة الثقافية التونسية والعربية فحسب، وإنما شغل أيضًا مساحة واسعة من عواطف كل الذين عرفوه وعاشروه وخالطوه... ولذلك حظي - ولا يزال - بما يجب أن يحظى به الرجال الأفذاذ الذين لا يتكررون - ولا مبالغة - في العصور كثيرًا.

ولقد كان حظِّي أنا من نفعه ومعروفه ومودته وصداقته كبيرًا.. هو أوّل من فتح عينيَّ على أبي القاسم الشابي - ولا أظن أنني في ذلك وحدي - وأدخله على قلبي وعقلي، وهو أوّل من فتح لي داره ومكتبته الخاصة - قبل أن يتبرع بها بتمامها وكمالها للكلية التي أعمل بها أستاذًا وباحثًا، كلية الآداب والفنون والإنسانيات - تونس منوبة، وهو أوّل من فتح لي أبواب المشرق العربي، وأذاع به اسمي وعرَّف برسمي وربط لي فيه أوثق العُرا وأمتن الصلات برجال يعاش بهم ويعاش في أكنافهم.

ولهذا الذي ذكرت منه أطرافًا فإني أعدُّ إسهامي هذا المتواضع البسيط، بكلمتي هذه الوجيزة المقتصدة، أقل ما يقتضيني إيّاه واجب الإسهام في التكريم الخاص الذي تقيمه مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، مشكورة، لهذا الرجل الذي يستحق كل تكريم... وإنه لا يقر الفضل إلا ذوو الفضل، ولا يجازي بالإحسان إلا ذوو الإحسان.

****

سنوات صحبة الأستاذ

أ. محمد المَيْ(*)

لا أعلم هل أحدّد سنوات صحبتي للأستاذ الكبير (أبو القاسم محمد كرّو) بالسنوات التي تقيس عمر البشر أم أحدّدها بحجم الفوائد والمكتسبات التي حصّلتها طيلة اقترابي منه؟

تعرّفت إلى الأستاذ الكبير أبو القاسم محمد كرّو إثر نصيحة وجّهها إليّ الصديق الدكتور محمد لطفي اليوسفي وتحديدًا عندما اكتشفت مخطوطات لم تنشر للمصلح الاجتماعي الطاهر الحدّاد (١٨٩٩ - ١٩٣٥).

لا أزال أذكر أن تلك المخطوطات كانت بالنسبة إليّ بمثابة الطلاسم من حيث الشكل والمضمون، خصوصًا وأن سنّي لم يتجاوز بعد ربع القرن! ولا الدروس التي تلقّيتها في المعاهد الثانوية أو على مقاعد كلية الآداب بـ(منوبة) كانت كفيلة بإعانتي على فك مغالق تلك الطلاسم.. وكانت لي صلة مودّة وصداقة بالدكتور محمد لطفي اليوسفي، فهو أستاذي في كلية الآداب بـ(منوبة) وهو مثلي الأعلى وهو أفضل أساتذة كلية الآداب الذي كان يردّد على مسامعنا - نحن الطلبة. «أن الأستاذ الحق هو الذي يبدأ في التفكير مع الطلبة وأن الجامعة ليس مكانًا لتلقي العلوم والمعارف بقدر ما هي فرصة لشحذ الشخصية وبناء العقل واكتشاف مغامرة الوجود..».

عندما عرضت عليه مخطوطات الحدّاد قال لي يومها: «ليس أمامك سوى الشيخ أبو القاسم كرو فهو الأقدر في تونس على مساعدتك» رنّ اسم: «أبو القاسم كرو» في أذني وكأني أسمع هذا الاسم لأول مرة في حياتي. فقلت له بعفوية: هل هو تونسي؟ قهقه الأستاذ وقال: «بل هو قفصي ابن قفصي ولولاه لما عرفنا الشابّي».

«وإن كان حظّك جيّدًا فإنه سيعينك إعانة لا مثيل لها ولكني علمت مؤخرًا بأنه أصيب بشلل جزئي وسأعوده مع زوجتي وسأحدثه عن أمرك وأمر مخطوطاتك! فاسأل الله أن يكون بخير فقط!».

(*) مدير مكتب مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في تونس.

وبعد أيام اتصل بي الأستاذ اليوسفي وقال لي: «إن الشيخ – ودائمًا يحلو له أن ينعت الأستاذ كرو بالشيخ – قد اطلع على ما نشرت في جريدة الصحافة وله بعض ما يفيدك به في الموضوع ويبدو أنه قبل مساعدتك».

بعد ذلك علمت أن الأستاذ كرو بدأ يتعافى من مرضه ورجع إلى مجلسه الأدبي الذي يعقده صبيحة يوم الأحد بمقهى نُزل إفريقيا بتونس العاصمة فذهبت إليه دون موعد سابق معه وهناك وجدته رجلاً بدينًا، أصلع الرأس إلا بعض الشيب المنساب على الأطراف، تعلو محياه ابتسامة عريضة غطّت تجاعيد الوجه الذي عركته سنوات الكفاح والنضال..

صافحته وقدّمت له نفسي.. فرحّب بي ترحيبًا شديدًا ودعا نادل المقهى ليعجّل لي بشرب ما أشاء! وانبرى يحدّثني عن حبه للطاهر الحداد ويروي لي تفاصيل كنت أجهلها وعلق عن أخطاء ارتكبتها عند ما نشرت بعض مخطوطات الحداد في جريدة الصحافة!

لم أكن أصغي بعناية إلى ما كان يقول بقدر ما كنت منبهرًا بطريقته في الحديث وتركيزه على التفاصيل وقدرته على المرور من موضوع إلى آخر!

يومها كان معنا الصديق الأستاذ سمير بن علي الذي كان يشتغل سكرتيرًا للأستاذ كرو وكانت معه سيارته الخاصة، فطلب من الأستاذ أن يوصله إلى منزله الكائن بباب سعدون بالعاصمة تونس، فوافق الأستاذ.

وعندما أوصلناه إلى منزله، دعانا للدخول معه وكانت في استقبالنا زوجته السيدة الفاضلة مديحة مشرفيّة التي رحبت بنا وفور جلوسنا خيرتنا بين شرب القهوة أو الشاي أو العصير فاكتشفت أنها ليست تونسية من لهجتها الغريبة وعرفت فيما بعد من صديقي سمير بن علي أنها «لبنانية».

في تلك الجلسة أهداني الأستاذ بعض كتبه وكان من بينها كتابه الصغير الصادر في سلسلة كتاب البعث: «الطاهر الحداد» كانت تلك الجلسة بداية العلاقة بيننا.

أصبحت بعدها دائم التردد على الأستاذ كرو وكنت في كل جلسة أظفر منه بكتاب أو قصاصة جريدة أو مجلة أو صورة تنير سبل بحثي وترشدني إلى مسائل كنت أجهل

الناس بها..! مرّت أشهر قليلة على علاقتي بالأستاذ وبدأ يقربني منه ثم عرض عليّ مساعدته لإخراج كتابه الحدث «حصاد العمر» حيث كان يسرع في إخراجه ويريده أن يرى النور في أقل ما يمكن من الأشهر ورغم اعتراضي على العنوان؛ لأن هذا الكتاب ذي المجلدات الستة لن يضمِّن فيه الأستاذ كرو مؤلفاته بل سيكون موسوعة لمقالاته وأحاديثه الصحفية والإذاعية.. إلا أنني استفدت من إعانة الأستاذ استفادة كبرى.. فقد تعرفت إلى مواضيع وإلى أحداث مرَّت به، وطالعت أثناء تبييض الأوراق القديمة أو تفريغ أشرطة التساجيل الإذاعية، طرق ردوده وكيفية تجاوزه المحن التي ابتلي بها في مراحل نضاله الثقافي.. فمرّت أمامي المعركة التي اتهم فيها بميله إلى الشرق وكرهه للثقافة التونسية؟ ومرّت أمامي معاركه ضد الجمود والتخلف.. وعرفت من خلال تلك المعارك البعض من آرائه ومن علاقاته ومدى حضوره العربي وإشعاعه خارج الحدود ودفاعه عن العروبة والثقافة العربية.. فكان «حصاد العمر» سجلاً اجتمع لي فيه ما كان يصعب على من هو في مثل سني إدراكه بيُسر.

مكتبته في كلية الآداب:

في نفس السنة التي صدر فيها حصاد العمر (١٩٩٨) قرّر الأستاذ إهداء مكتبته إلى كلية الآداب بمنوبة ورغم أني كنت أحد طلبة تلك الكلية إلا أنني اعترضت – ولا أزال معترضًا – اعتراضًا شديدًا على إهدائه مكتبته إليها.

وسبب اعتراضي هو تقديري الشخصي للعقد النفسية التي يعاني منها أساتذتي في الجامعة التونسية... فهم مقلّون في النشر ونتيجة قلّة إنتاجهم يكرهون أمثال الأستاذ كرو وهو صاحب الكتب التي يفوق عددها الثمانين، وهم يكرهون شهائد الشرق ولا يعترفون بها، وهو صاحب الشهائد المشرقية. وهذا سبب آخر، وهم يكرهون خريجي الجامعة الزيتونية وهو صاحب التكوين الزيتوني وهذا سبب ثالث وأسباب رابعة وخامسة.. إلخ.

ومكتبته تفيض بالمؤلفات النادرة والنفيسة وبكتب جمّعها من مختلف البلاد العربية ففيها ما لا يتوافر حتى في دار الكتب الوطنية فضلاً عن المكتبات الخاصة.. وكنت على يقين أنها ستكون عرضة للنهب والسرقة – وفعلاً تحقق ما خفتُ منه –.

ووُعِدَ الأستاذُ يوم سلّم مكتبته بأن تطبع الكلية فهرسًا خاصّاً بها ولم يطبع ذلك الفهرس إلى يوم الناس هذا؟؟

وأقيمت له حفلة تكريمية يوم تسليم المكتبة حضرها وزير التعليم العالي وثلة من كبار الجامعيين والأدباء، وعوض أن يتم منحه «الدكتوراه الفخرية» يومها منحوه جائزة بسيطة تمنح عادة للمتفوقين من الطلبة في نهاية السنة الجامعية؟! بل الأكثر من ذلك فقد كانت تلك الحفلة مطية اتخذها عميد الكلية ليطلب فيها – بطريقة غير مباشرةٍ من وزير التعليم العالي – ترقية مهنية؟!

كنت شاهدًا على ذلك الحفل المشؤوم كما كنت شاهدًا على تسليم الكتب لأعوان مكتبة الكلية الذين كانوا يعاملون الكتب كما تعامل البضائع العادية فيلقون بالكتاب النفيس الذي اهترأت أوراقه أرضًا دون شفقة أو احترام لمحتوى الكتاب أو سنّه الذي يفوق المائة عام؟!

وكان الأستاذ يصرخ ويزمجر ويغضب ثم يعود إلى هدوئه مسلّمًا امره وأمر كتبه إلى عَمَلةٍ جهلة وموظفين همهم التقيد بالوقت الإداري لاغير؟!

وما هي إلا سنوات على إهدائه مكتبته إلى كلية الآداب بمنوبة حتى بدات تظهر سرقات أساتذتنا الجامعيين في كتبهم دون الإشارة حتى في الهامش إلى أن تلك المراجع أخذت من مكتبته؟.

عطاؤه لم ينقطع:

بعد تسليمه مكتبته انتدبني الأستاذ لأكون سكرتيره الخاص وسلم لي مفاتيح مكتبه الكائن بنهج «شارل ديغول» بتونس العاصمة وهو المكتب الذي خرجت منه سلسلة كتاب البعث (١٩٥٥ – ١٩٥٨) وبواكير منشورات دار المغرب العربي... وكان فيه كمٌّ كبير من مكتبته وبقايا من جرائد ومجلات قديمة وملفات لأعلام ومعالم تضم قصاصات وصورًا وحكايات غريبة وعجيبة.

ورغم قدم المكتب فإن سلطانه على النفس لكبير وحمله على من هو في مثل سني لثقيل ومسؤوليته لجسيمه..! أدخل على دماغي فوضى وعلى نفسي ارتباكًا وأحسست أني قد تحملت في سن مبكرة مسؤولية أكبر مني. فأصبح اسمي لصيقًا باسم الأستاذ

كرو وهناك من صادقني من أصدقائه وهناك من عاداني من أعدائه فصرت وريثه غير الشرعي.. فأحاسب على مواقفه وأسأل عن أحواله وأبلغ ما لا يقدر أن يبلغه إليه الصديق والعدو في الوقت نفسه.

ورغم ذلك واصل الأستاذ الكتابة والتأليف فأصدر كتبًا متعددة بعد «حصاد العمر» مثل «عبقرية الحداد» و«الشهيد الحبيب ثامر» و«البياتي» و«ابن منظور» و«نازلي فاضل» و«سليمان الحرائري» و«أبحاث ومقالات» و«أبعاد الأب جان فونتان» و«تراجم قصيرة» و«التيفاشي القفصي» و«شعراء قفصة».. وكل كتاب له ولي معه قصة وحكاية فضلاً عن عشرات المقالات التي كانت تصدر بانتظام في الملحق الثقافي لجريدة الحرية وفي الصحف الأخرى.

ورغم تقدمه في السن وأمراض الشيخوخة فإن إصراره على تسجيل المواقف في مناسبتها لم يتوقف وكان إذا سئل عن كيفية تمكنه من كل ذلك يبتسم ويقول «أنا المستطيع بغيري».

جائزة المغرب العربي:

عند ما أصدر الأستاذ كرو كتابه «طه حسين والمغرب العربي» الذي اعتبره «كتاب العمر» كتبت سلسلة من المقالات في الملحق الثقافي لجريدة الحرية، كان بينها مقال عنوانه «البعد المغاربي في كتابات الأستاذ كرو» طالبت فيه بأن تمنحه وزارة الثقافة الجائزة المغاربية، وكان وزير الثقافة في تلك السنة (٢٠٠٣) على خلاف مع الأستاذ كرو، ورغم ذلك أقنعه بعض أصدقائه بجدوى الاقتراح.. فكانت الجائزة تتويجًا لنضالات الرجل الذي خدم الثقافة المغاربية والعربية ولحقته من جراء تعصبه لها تهم شتى لاحقته طوال حياته المهنية والأدبية.

فكان الوسام الثقافي والجائزة من لدن سيادة الرئيس زين العابدين بن علي خير اعتراف وأفضل تقدير، ورغم ذلك فإن ناشرًا جاهلاً ودعيّاً يريد في نهاية عمره أن يصبح كاتبًا طالب في رسالة رسمية بأن تنزع الجائزة من الأستاذ كرو؟!

وهكذا ظلّ الأستاذ يجابه العواصف ويحارب الجاحدين وأصحاب النفوس الصغيرة، حتى وصل به اليأس إلى أن يعلن في الناس مقاله الأشهر «وداعًا أيها القلم»،

ذلك المقال الذي حرك بعض النفوس الشريفة فطالبوه بإلغاء قراره والتراجع عما أعلن... طبعًا لم يكف الأستاذ عن كتابة الكتب بل عن الكتابة في الصحافة... وأصدر بعد ذلك الإعلان كتبًا أخرى كانت بمثابة الرد على الأغيار من جهوده.

وأهدى هدية أخرى إلى الأرشيف الوطني كانت محل تقدير واحترام من طرف السلطة الثقافية والسياسية ببلادنا.

وهكذا هي حياته جملة من المحن المتتالية وجملة من الانتصارات المتتالية حتى أني لا أرى حياته إلا كسفينة تهزها الأمواج العاتية وهو كالربان الذي يصارع حتى يتغلب على هيجانها فيعيدها إلى مسيرها الطبيعي.

نظرة في مؤلفاته:

يمكن اعتبار الأستاذ أبو القاسم محمد كرو من جيل الثلث الأول من القرن العشرين من حيث الانتماء الفكري، فهو من مواليد سنة ١٩٢٤ ولكن همّه الثقافي بقي منشدًا إلى تلك الفترة ربما حبه للشابي وعشرته لأدبه وإرثه وانطلاق شهرته من خلال اكتشافه له كان السبب الرئيسي في اهتمام الأستاذ بتلك المرحلة، فهو الذي كتب عن الحداد والمهيدي وزين العابدين السنوسي ومصطفى خريف ومحمد علي الحامي والحليوي والبشروش... وهو الذي تدفعه غيرة دائمة على أعلام تلك المرحلة ويشده اهتمام بالغ بكل من يهتم بتلك الفترة.

ورغم اهتمامه بابن منظور مؤلف لسان العرب وبالتيفاشي القفصي... وبشعراء قفصة في العصور القديمة، إلا أن هذا الجانب لا يؤكد – في اعتقادي – انتماء الرجل إلى فئة المحققين الذين لهم اهتمام بالتراث العربي القديم، فالأستاذ كرو – في رأيي – من المختصين بـ:

– تراجم الأعلام.

– والنقد الثقافي لا الأدبي.

ولكن ثقافته موسوعية، إذ يستطيع أن يفيض في الحديث كما لا يقدر غيره في الإفاضة والتدقيق في مسائل شتى، وقد ضرب بأسهمٍ في ميادين مختلفة ولكن بقيت مساهماته فيها ضيقة.

فالناظر في مؤلفات الرجل التي سخَّر معظمها لتراجم الرجال مثل الخضر حسين وعبدالرزاق كرباكة وابن هانئ المغربي والشابي والطاهر الحداد وسليمان الحرائري والتيفاشي القفصي وابن منظور والأميرة نازلي فاضل وغير هؤلاء من الأعلام المنسيين أو المغمورين أو المجهولين يلاحظ أنها تميزت بميزات لم تتوافر لدى غيره وأول هذه الميزات هي الابتكار، إذ لم يُسبق في الذين اختار أن يترجم لهم غيره.

وثاني هذه الميزات أن فن الترجمة عنده لا يقتصر على ذكر تواريخ الميلاد والوفاة وتعداد الأعمال بل عادة ما يتخذ مواضيع تراجمه مادة للدفاع عن المترجم لهم، فيسعى إلى إنصاف مترجميه ودحض التهم التي لصقت بهم وإزالة ما علق بتاريخهم من شبهات، ومن هنا نفهم معنى النقد الثقافي عنده إذ هو بمثابة الذاكرة الحية والعين الباصرة التي تسعى إلى رد الاعتبار إلى الأعلام والمعالم، لأن الثقافة في تقديره تحصل بالتراكم لا بالقطيعة، وما على الأجيال الحاضرة إلا البحث عن النقاط النيرة في التاريخ الثقافي والسعي إلى الاهتداء بها في الراهن وفي المستقبل.

ومن هنا – أيضًا – نفهم سبب تنبيهه المؤسسات الثقافية والسياسية إلى ضرورة إقامة الاحتفالات والذكريات للأعلام كدعوته إلى الاحتفال بستينية الشابي وستينية وفاة ومائوية ميلاد الطاهر الحداد، والاحتفال بمرور ستمائة سنة على وفاة العلامة عبدالرحمن ابن خلدون... أو سرّ بعثه إلى ملتقيات ثقافية تحمل أسماء الأدباء والكتاب والمفكرين في مختلف جهات الجمهورية التونسية.

ومن هذا الجانب يمكن أن نطلق عليه صفة المناضل الثقافي الذي غامر وطالب وحقق نتائج ملموسة لا ينكرها سوى الجاحد.

طبعًا لم يجن من جراء نضاله المتواصل الورود بقدر ما جنى الغيرة والحسد وتثبيط العزائم.. غير أن وطنيته العالية هي التي جعلته يستمر ويواصل – بذكاء – تأصيل قيمه التي يؤمن بها.

ورغم انتمائه إلى المؤسسة الزيتونية في فترة اتسمت فيها بالجمود والركود إلا أنه كان صاحب روح ثورية تجديدية، وصاحب فكر تنويري وعقلاني. وقد لمست فيه هذه القيم

من خلال مؤلفاته أو حتى معاملاته اليومية؛ إذ هو لا يقدم على أخذ قرار إلا بعد عرضه على المقربين منه فتجده يدافع بشدة عن مشروعه ولكن إذا نبهه منبه إلى ضرورة التخلي عن فكرة وكان رأيه صائبًا فإنه على استعداد للتخلي والتراجع عما كان يدافع عنه... وهذه ميزة لا تتوافر لدى الكثير.

هذا بعض ما يمكن أن أقوله - في عجالة - عن مؤلفاته وطبيعة فكره. أما عن حياته الخاصة فهو شديد مع نفسه وشديد مع الآخرين.

أما شدّته مع نفسه فتتضح في احترامه المبالغ فيه للمواعيد التي يقيد بها نفسه وإلى التزاماته التي يختارها؛ فحياته مثل الجندي الملزم بتنفيذ التعليمات بدقة إلى درجة لا يتصورها العقل فهو يلح على مسائل بسيطة في ظاهرها ولكنها عميقة في مدلولاتها.

فتراه إذا جلس يحدد طريقة جلسته كأن لا يضع الساق على الساق إذا جلس ليحادث شخصًا، ولا تعبث أصابعه بقلم أو ورقه إذا كان بصدد محادثة شخص، وهو يصر على - بروتوكولات - إذا دعا ضيفًا إلى مجلسه في المقهى أو في منزله.

وإذا كلفني بإرسال رسالة فإنه يختار ظرفها وطرق كتابة المرسل إليه والصفات التي تسبق اسم من يرسل إليه واختيار الزاوية التي يكتب فيها عبارة «شخصي» أو «مستعجل» أو «خاص» أو «سري» وإلى غير ذلك من التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه إليها الإنسان العادي أو لا يأبه بها حتى من يعرفها.

فتراه جد ملتزم بالرد على رسالة فور وصولها، وكان دائمًا يردد على مسامعي وهو يصرخ «لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.. وا مصابي من غدٍ إن أقبل»! ذلك شعاره في العمل مع حرصه الدائم على السرعة في الإنجاز والدقة في العمل.

ورغم شدّته تلك فإن هناك جانبًا مرحًا في شخصيته فهو يحب النكتة بل يحفظ منها الشيء الكثير وهو يقدر على تحويل وجهة مجالسيه كيفما يشاء فينتقل بهم من اللهو إلى الجد إذا اختار ويقيدهم بطرق في السماع أو في الحديث حسب مزاجه.

ومن الصعب أن تعرف فيمَ يفكر أو عمَّ يتحدث أو ما ينوي من خلال سؤال طرحه. وكثيرًا ما يردد على سامعيه أن لا أحد يقدر أن يعرف عنه إلا ما يريد هو أن يعرفه الآخرون.

يعرف معادن الرجال فيقدر هفواتهم ويغفر زلاتهم ويقدر تهافتهم، ولكن يحفظ في ذاكرته عنهم كل شيء إلى درجة تجعلني أستغرب من طرق محادثته لمن حدثني عنهم.. فأسأله فيقول: «في فمي ماء!».

هو لاتكي النزعة ولكنه جدّ متشبّع بقيم العروبة والإسلام وهو يرى أن الإسلام جاء بفضائل كثيرة ولكن المسلمين انحرفوا عن تلك القيم وفهموا الإسلام فهما خاطئًا، فمالت أمورهم وتأخرت دولهم وألبسوا الإسلام تخلفهم وجهلهم... فكثيرًا ما كان يجاهر بآراء تزعج الخاملين ولكن إذا تأملنا في مقاصده نفهم عقلانية الرجل وبعد نظره.

علّمته علاقاته وأسفاره وسعة اطلاعه ما لا تقدر جامعات الدنيا أن تعلمه لطلابها. يحدثك عن الاختلافات الدقيقة بين المغاربة والمشارقة وبين العرب والغرب وبين المسلمين والمسيحيين واليهود، وكل فئة يعلم عنها الشيء الكثير ولا يخلط بين الذاتي والموضوعي، وكل ذلك غير متاح للكثير من الناس... وربما هذا سبب من شدته مع نفسه ومع الآخرين.

أشهد أني ما تعلّمت منه إلا القليل وما تطبّعت إلا ببعض طبائعه وربما يرجع ذلك إلى فارق السن والتجربة والتكوين.. ولكن من الصعب أن نجد نسخة تماثل الأستاذ فهو نسيج وحده وهو من معادن رجال لا يجود الدهر إلا ببعض منهم بعد سنوات طويلة. هو من جيل مخصوص... جيل ذاق الحرمان والمهانة وعرف الاستعمار وقلة ذات اليد وعانى الاحتياج والفقر وتربّى في ظروف صعبة غير الظروف التي تربّى فيها جيلي، لذلك من الصعب أن يستنسخ ذلك الجيل؛ إنه جيل الرجال الأحرار والمناضلين بكل ما تعنيه كلمة النضال.

أفهم حدة طبع الأستاذ كرو وأفهم معاني غضبه من تصرفات الناس ولكن من الصعب أن يُفهمَ هو لأنه من طينة خاصة ومن معدن خاص.

لكل هذا قلت في بداية كلامي: «لا أعلم هل أحدد سنوات صحبتي للأستاذ كرو بالسنوات التي تقيس عمر البشر أم أحددها بحجم الفوائد والمكتسبات التي حصلتها طيلة اقترابي منه؟». هذه شهادة عجلَى ولعلّي سأفيض بالحديث أكثر في كتاب أنوي تأليفه عن الأستاذ (أبو القاسم محمد كرّو) أمد الله في عمره حتى يقرأه ويبدي رأيه فيه.

****

إن الثمانين وبلُغْتَها

أ. د. محمد صالح الجابري(*)

حسنًا فعل الأستاذ أبوالقاسم كرو، أنه تولى بنفسه، وفي وجوده وأمام بصره، وبإمكانياته الخاصة، جمع الجانب الأوفر من كتاباته المتناثرة بين الصحف والمجلات والنشريات والكتيبات، وطباعتها تحت عنوان (حصاد العمر) في ستة مجلدات ضخمة، صدرت منذ بضع سنوات عن كل من دار المغرب العربي، ومؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت، وهي المؤسسة التي دعمت نشر هذه الأعمال في لفتة نبيلة من رئيس المؤسسة تكريمًا لتونس وللأستاذ أبي القاسم كرو، باعتباره علمًا من أعلام الثقافة العربية في بلده تونس، وفي إقليم المغرب العربي، وفي كل أرجاء الوطن العربي.

وبذلك توفَّر للباحثين والدارسين والمهتمين بالثقافة العربية في تونس وسائر الأقطار العربية مرجع أساسي لدراسة التحولات الثقافية في هذه الربوع، وتقديم صورة عن ارتباط المثقفين والمفكرين التونسيين بالكفاح الوطني في تونس، وبالحركات النضالية في المغرب العربي والوطن العربي، وما قدَّم هؤلاء من ضروب الفداء والتضحيات الجسام في مرحلة من أهم مراحل المواجهة مع المستعمر؛ مرحلتي الخمسينيات والستينيات، اعتبارًا إلى أن شخصية أبي القاسم كرو تعدُّ نموذجًا للمناضل المثقف الذي كرَّس جُلَّ حياته ومواقفه وإمكانياته، وأوقفها على خدمة وطنه وتراث أمته منذ الخطوات الأولى التي خطاها، ومنذ مشاهداته الأولى لما يجري في محيط مدينته، وفي بلاده.

تُقدِّم لنا صفحات المجلد الأول من هذه المجلدات بعض الإضاءات الموثَّقة عن نشأة الكاتب، ومراحل تكوينه المختلفة بين أهله وذويه، وفي الوسط الثقافي والاجتماعي الذي ترعرع فيه حيث يلمس المرء بذرة العصيان والرفض والتمرد التي وسمت طبيعته منذ نعومة أظفاره، ومنذ التحاقه بالتنظيمات الكشفية والطلابية التي صقلت شخصيته، وجرّأته على ضروب التحدي والعناد، فآل به الأمر إلى الوقوف رفقة بعض زملائه في المعهد الذي

(*) أكاديمي تونسي من مواليد مدينة توزر بالجنوب التونسي عام ١٩٤٠م، مدير إدارة الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عضو الهيئة الاستشارية لمعجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

يدرس فيه أمام المحاكم الاستعمارية بسبب إقدامهم على تمزيق العلم الفرنسي رمز الاستعمار.

وعوض أن يستوعب الشاب أبوالقاسم الدرس من هذه المحاكمة، ويستخلص منها العبرة، ويجنح إلى الصمت والاستسلام والإذعان، فإن طبيعته المعاندة دفعته لأن ينقل معركته ضد الاستعمار من إطارها الوطني الضيق، ومن حدود بلدته قفصة ووطنه تونس إلى رحاب أوسع وأشمل وأبعد في المكان والزمان والأهداف، وهكذا شدَّ الرحال مع مجموعة من المتطوعين الذين جندهم إلى فلسطين، مدفوعًا بحماسة الشباب، مستجيبًا لذلك النداء العربي الكامن في الجوانح، والثاوي في المشاعر.

كان ذلك في سنة ١٩٤٨ عندما غادر تونس في اتجاه ميادين الحرب في فلسطين مشيًا على الأقدام حينًا، وبالاستعانة ببعض الوسائل البسيطة المتاحة لقطع آلاف الأميال التي تفصل فلسطين عن تونس حينًا آخر. ولولا ما اعترض هذه الجماعة من صعوبات في بعض الحدود العربية، وإجبارهم على العودة على أعقابهم لكانوا التحقوا بساحات القتال، ولانضمُّوا بذلك إلى صفوف المقاتلين، ورُسموا في عداد الأبطال أو الشهداء، ولما عدمت الوسائل أمامهم لبلوغ الهدف، فقد ذهب كل في حال سبيله، إلا أباالقاسم فقد آثر أن لا يعود إلى الوطن صفر اليدين يجر أذيال الخيبة والمرارة وهو الذي لم يتعود على الهزيمة ولم يتعود أن يحني الهام أمام الصعوبات والعوائق، فهداه تفكيره إلى الطريقة المثلى التي يمكن أن يحقق بها مشروعه في الإسهام في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، الذي يحتل وطنه، والذي كان حرمه من محاكمة كان يسعى من خلالها إلى رسم اسمه في عداد صفوة المناضلين، آنئذٍ قرر أن يضع نفسه في ذمة زعماء تونس، وزعماء المغرب العربي الذين كانوا يتخذون من مكاتب المغرب العربي في بلاد المشرق مراكز للتعريف بالقضية المغاربية لدى الدول المشرقية.

ولأن السياسة، لم تكن بحاجة لمزيد من الزعماء الذين يتنافسون بينهم على احتلال الصفوف الأولى، وكلٌّ له مشروعٌ وخطة، فقد بدا لأبي القاسم الذي لم تكن سِنُّه آنئذٍ تسمح له بأي موقع بين هؤلاء، بدا له أن موقعه الحقيقي ليس في هذه المكاتب إنما في مكان آخر، وفي بلد بعيد عن بلدان الواجهة الإعلامية مثل مصر، وسوريا، وليبيا، هذا البلد كان

العراق الذي أشار عليه بالذهاب إليه الزعيم الشهيد الحبيب ثامر الذي رشح أبا القاسم ضمن بعثة مغاربية تضم عددًا محدودًا من طلاب تونس، والجزائر، والمغرب، تم إيفادهم للدراسة بالجامعات العراقية التي لم تكن تصل إليها آنذاك أقدام أبناء المغرب العربي.

كان الهدف من إيفاد هذه البعثة ومن إيفاد البعثات السابقة واللاحقة التي اختارت بلاد المشرق للدراسة خلال تلكم المرحلة المبكرة تكوين نخبة من المثقفين والأساتذة المؤهلين للإسهام في المعركة اللغوية والحضارية والتعليمية التي ينتظر أن يسفر عنها رحيل الاستعمار، واستعادة الشخصية الوطنية، وتأهيل إطارات لمربِّي الغد، وتكوين أجيال من حاملي الثقافة العربية.

وهكذا وجد أبوالقاسم نفسه مرة أخرى محمَّلاً برسالة لا تقل شأنًا ولا خطرًا عن الرسالة التي محض لها نفسه في معركة التحرير والاستقلال. ذلك أن الاستعمار الظاهر أيّاً كانت طبيعته وقوته يدرك إدراكًا عميقًا أنه سيزول يومًا ما، وبما أن الاستعمار يحلُّ بالشعوب والأقطار والدول ويستحوذ عليها من أجل أن يبقى ويحافظ على استمراره فإنه كان مضطرًا لتغيير أقنعته واستبدال جلده بجلود الآخرين الذين يتطوعون لحمل رسالته والاضطلاع بمهامه، وفي حالة الاستعمار الفرنسي فقد دأب في كل البلدان التي استعمرها على إحلال لغته وثقافته محل اللغات الوطنية، والانقضاض على جوهر ما تتشبث به تلك الشعوب وهو هوياتها الوطنية، وتراثها وفكرها وإرثها الثقافي والحضاري، وذلك بغرض تأكيد استمراريته، وضمان مصالحه.

وإذ كانت معارك التحرير تخاض بالسلاح والمواجهات، ويكون النصر فيها محتومًا لصالح أية مقاومة، فإن معارك الصراع اللغوي والهويات معارك طويلة النفس أدواتها الإيمان والإرادات، والأقلام والوعي، وبدون خوضها والانتصار فيها تظل الشعوب والأمم فاقدة لتوازنها، مهددة في شخصيتها وهويتها، وحتى استقلاقها الوطني في معظم الأحيان.

كان أبوالقاسم يعي أهمية الدور المترتب عن توجيهه للدراسة بالمشرق، وهو أن يتعلم ويتخرج ويتثقف ثم يعود إلى بلاده للإسهام في المعركة الحضارية الثقافية التي كانت في انتظاره وانتظار غيره من الأجيال التي وجهت للتعليم في جامعات الشرق والغرب على حد سواء. ولذلك ما إن عاد إلى الوطن حتى بادر بتنفيذ مشروعه الثقافي الذي كان يخامره

منذ أيام الجامعة وهو إنشاء دار للنشر، وإصدار سلاسل من الكتب التثقيفية والفكرية، أدبية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية نشرًا للمعرفة على أوسع نطاق وباللغة العربية في سائر أقطار المغرب العربي، معتبرًا هذا المشروع بعثًا للثقافة العربية وإحياء لها، ومساهمة جادة لنفخ الروح في اللغة العربية، ودعوة لكل الكتاب والأدباء ونخبة خريجي الجامعات من أبناء المغرب العربي لإطلاق العنان لأفكارهم وأقلامهم، وربط الصلات بينهم وبين الشعوب المغاربية التي كانت خارجة للتو من ربقة الاستعمار الذي حال بينها وبين كل ما يربطها ويشدها إلى ثقافة ولغة أمتهم.

في هذا الإطار صدرت سلسلة كتاب «البعث» عن دار المغرب العربي التي أسسها لهذا الغرض، وقد جمعت أقلامًا شتى من كل الأقطار المغاربية، تونس، الجزائر، والمغرب. وكانت هذه الدار انطلاقة جديدة في عالم النشر، ومغامرة شجاعة من الأستاذ كرو الذي كرَّس لها كل جهده وطاقته وإمكانياته. وبالفعل تلقف الناس هذه السلسلة بشغف بالغ وانبهار واضح، وحظيت بالإقبال والرواج، وأصبحت مصدرًا ثقافياً لكل متعلمي ذلك الجيل الذي كان يشكو فقرًا ثقافياً مُدقعًا في تلك المرحلة حيث لم تكن الدولة الوطنية قد قامت بعد، فكان مشروع أبي القاسم كرو ممهدًا لظهور الثقافة الوطنية التي تجسمت فيما بعد في بعض شركات النشر التي أسستها الدولة.. لتتولى مسؤولية نشر الكتاب وترويجه.

وككلٍّ عمل ناجح وهادف فإن العيون التي كانت ترصد هذا المشروع وتتحسب لمثل هذه المبادرات، استشعرت في هذه المبادرة إمكانية قيام مشروع ثقافي عربي موازٍ ومعادل للمشروع الثقافي الاستعماري، ولذلك سرعان ما التفت على الرجل ومشروعه، وأقامت حوله أسيجة من الإحباطات والمثبطات إلى أن أخمدت أنفاس آخر ورقة فيه، ولم تكتف بذلك فقط، إنما ظلت ترصد بحذر كل حركات صاحب المشروع وتحصي عليه حركاته، سواء في حلقات الدرس، عندما عين أستاذًا للتدريس في المعاهد الثانوية، أو خلال مشاركاته في الأنشطة الثقافية الأخرى.

على أن ظاهرة العناد والتحدي التي ظل يتميز بها أبوالقاسم كرو عن سائر أمثاله من خريجي الجامعات المشرقية الذين واجهوا نفس المحاصرة ونفس المصير هي التي مكّنته في كل مرة من القدرة على تجاوز كل الصعوبات والعراقيل، سلاحه في ذلك إيمانه

بالأمة العربية وأدبه ونشاطه الجم وحيويته المتميزة، فكان طاقة من العمل الدؤوب والإنتاج الغزير المتلاحق الذي أهله لإنجاز أكثر من ٥٠ كتابًا، فضلاً عن عشرات النشريات والكتيبات، وآلاف المقالات في الصحف والمجلات، ومئات المحاضرات التي ألقاها على المنابر، فدرأ بذلك عن الشكوك والظنون التي ساورت أصحاب النوايا السيئة الذين كانوا يخالون أن الرجل كان هدفه المنافسة السياسية، وأنه كان يسعى لتقويض النظام!

وحين كانت الحكومات تتعاقب وتتغير وتبتعد كثيرًا وتشط في معاداة اللغة العربية والتنكر لهوية الشعب، وتقترب آنًا من هذه القضية بدافع التملق والشعور بالذنب تجاه الشعب، وبغرض التوظيف السياسي الانتهازي فقد ظل أبوالقاسم يحافظ على خط سيره لا يحيد عنه قيد أنملة مما حدا بالبعض من أولئك أن يوغروا عليه صدور بعض الأغرار من المنتسبين للوسط «الثقافي» في السبعينيات لرميه بتهمة «التمشرق» التي تعني في مفهومهم الانتساب إلى الأمة العربية والثقافة العربية، والحضارة العربية وكأن الانتساب إلى هذه الثوابت والقيم وكأن الانتساب إلى الأمة العربية مشرقًا ومغربًا والدراسة بالجامعات العربية المشرقية وصمة عار، وسبَّة يستحق مرتكبها الرجم وإقامة الحد عليه، ولولا أن الأستاذ أبوالقاسم كان يتحلَّى بتلك الثقة العالية بالنفس، وبالإيمان بالأمة، وبفخر الانتساب إلى الثقافة العربية الإسلامية وبأن ما قام به كان يدعو إلى الاعتزاز والمباهاة، لما واجه تلك الحملات التي تعرض إليها لنحو نصف قرن وبصورة متتالية بذلك الشمم والصمود الذي بَوَّأه المكانة التي يحظى بها اليوم في بلده بين المثقفين ورجال الدولة ولدى رئيس الدولة نفسه، الذي كرمه بأعلى الأوسمة، وحباه بكل الرعاية والإكرام، وفي ذلك إشارة بليغة إلى أنه كان على سَداد، وأن السبيل التي اختطها والرسالةَ التي حملها لأكثر من ثمانين سنة كانت رسالة نبيلة مما انتفع به الناس ومكث في الأرض وفي العقول والقلوب، بينما ذهب الزبد جفاء.

إنه لا يبدو من السهل على أي متابع لسيرة الأستاذ أبي القاسم كرّو الثقافية والفكرية منذ نشأته الأولى وحتى هذه السنوات المديدة التي عاشها، وكانت سنوات مفعمة بالعطاء والإنتاج والدأب والصبر والتحمل والمضايقات، أن يلمّ الإلمام الكافي بجميع إنتاجه المتعدد والمتنوع بين الإبداعات الشعرية التي كان رائدًا في بعضها كالشعر المنثور، وبين الكتابات الأخرى المتميزة كالتعريف بالشخصيات السياسية والعلمية، انطلاقًا من محيطه

الصغير في مسقط رأسه قفصة التي آثرها باهتمام خاص إبرازًا بحقها وحق أهلها عليه مذ كان يافعًا، وعرفانًا منه بالجميل لهذا البلد الذي أعطى الثقافة العربية والحضارة العربية أفذاذًا من الرجال أمثال ابن منظور، والتيفاشي وآخرين، ومرورًا بوطنه تونس التي استأثر باهتمامه من جميع وجوهه السياسية والوطنية والثقافية مذ كان طالبًا في المشرق حيث لم يترك وسيلة نشر أو مرفقًا إعلاميًا أو منبرًا خطابيًا إلا واهتبله للتعريف بنضال تونس وبرجالاتها وبأدبائها وشعرائها.

وبتصفح عارضٍ لكتابه المتعدد الأجزاء (حصاد العمر) يدرك القارئ أهمية العمل الذي قام به أبوالقاسم كرو في بغداد في ذلك الوقت المبكر، ثم واصله بذات الهمة والعزيمة على مدار أكثر من نصف قرن، كانت حصيلتها مكتبة زاخرة بالعناوين عن كل مظاهر الحياة الثقافية في تونس في معظم العصور، ولاسيما في القرن العشرين الذي استأثر باهتمامه، فكشف لنا العديد من الوثائق عن معظم الشخصيات الصحفية والوطنية والأدبية مُعرِّفًا بهم وبأعمالهم في تقديم ميسر للأجيال التي احتذت حذوه وترسمت خطاه في إعداد دراسات أشمل وأعمق عن هذه الشخصيات التي كان له فضل السبق للتعريف بها والكشف عنها والإشارة إلى أهمية الأدوار التي لعبتها.

ولا يزال القراء العرب في كل أرجاء الوطن العربي يذكرون بالتقدير والامتنان الدراسات المبكرة عن الشاعر أبي القاسم الشابي الذي كان لأبي القاسم كرو شرف تقديمه للقارئ العربي قبل أن يكون معروفًا على نطاق واسع في بلده تونس.

ويُعدُّ أبوالقاسم كرو من أدباء تونس القلائل الذي عنوا عناية خاصة بكل أحداث المغرب العربي، ومثلما قدم صورة عن تونس ورجالها وأدبائها فقد أولى أقطار المغرب العربي الأخرى اهتمامه وعنايته منذ أن كان طالبًا في المشرق. فكتب عن الجزائر، والمغرب، وليبيا، وربطته صلات وثيقة بزعماء هذه الأقطار، وكان من القلائل ممن يؤمنون إيمانًا راسخًا بوحدة المغرب العربي التي تعدُّ في نظره شرطًا أساسيًا لوحدة الأمة العربية، وقد لمس هذه الخصال فيه كل الزعماء التونسيين الذي كانوا يزورون العراق من وقت لآخر، ويلمسون النشاط الحثيث الذي يقوم به الطالب أبوالقاسم كرو مما حدا ببعض الزعماء لأن يقدر هذا النشاط تقديرًا عاليًا، مثلما جاء ذلك على لسان المناضل التونسي

محمد بدرة وهو يكتب إلى أبي القاسم كرو بعد زيارته إلى بغداد قائلاً: «شكرًا على قيامك بواجبك الدراسي، وبرسالتك القومية. فإنك خير ممثل لشبابنا الناهض المكافح، يحق لبلاده أن تعتز بقيمته وبمواهبه»، بينما لاحظ الزعيم علالة البلهوان عند زيارته العراق أن النشاط الثقافي الذي كان يضطلع به أبوالقاسم خلال تلك المرحلة هو ما كانت تحتاج إليه بلاده، لدعم الجوانب الروحية في العمل السياسي فكتب إليه يناشده المزيد من هذا العمل، والمزيد من الإنتاج قائلاً: «تونس محتاجة إلى الإشعاع الروحي والعقلي فليكن الفكر ولتكن الثقافة وليكن الإنتاج ليثمر العمل».

وعودة إلى المنطلقات الأولى التي حفزت أبا القاسم كرو على مغادرة بلاده للالتحاق بفلسطين والدفاع عن الأمة العربية، فإن هدف تحرير الأمة العربية، والانخراط في أي عمل من أجل تحريرها سياسيّاً وثقافيّاً وحضاريّاً، كان الهاجس الدائم الذي ظل يخامر فكر أبي القاسم، سواء من خلال كتاباته أو في دعواته أو محاضراته أو اشتراكه مناضلاً بالفكر في بعض الأحزاب القومية التي كانت تحمل نفس الأفكار التي يحملها مثل حزب البعث العربي الذي انضم إليه أبوالقاسم في وقت مبكر جدًا عندما كان طالبًا في بغداد، وبسبب انتمائه إلى هذا الحزب كان قد تعرض للعديد من المضايقات في العراق، وكاد يؤول به الأمر إلى الطرد من هذا البلد لولا التفاف المثقفين حوله ودفاعهم عنه.

ومن ثمة فإن الكفاح من أجل تحرير بلاده تونس كان في نظره مرحلة لا بد منها لتحرير المغرب العربي وتوحيده تحصينًا لهذا الاستقلال، وكان لا مناص في رأيه من تحرير المغرب العربي وتوحيده كخطوة على طريق الحلم لوحدة الأمة العربية بأي شكل من أشكال الوحدة.

وإن كتاب «حصاد العمر» كما يلخصه المؤلف «يضم المقالات وبعض الكتب والكتيبات التي نشرتها في حياتي من ١٩٤٦ حتى الآن والتي لها علاقة مباشرة بكفاحي من أجل استقلال تونس أولاً، والمغرب العربي ثانيًا ووحدة العرب ثالثًا.

وجميع الكتب التي نشرتها – وهي مع كُتب هذه المجلدات تزيد عن الخمسين كتابًا. أما الكتب التي ساهمت فيها والكتيبات التي نشرتها فهي تصل إلى الأربعين، وكلها تصب بموضوعاتها في الأهداف الثلاثة السابقة.

ولئن تحقق بعضها «الهدف الأول» فإن بعضها الثاني والثالث يزداد بعدًا عوض أن يقترب أو يتحقق ولا أمل للمغرب العربي وكذلك للعرب إلا في الوحدة بأي شكل من أشكالها».

وهكذا ومع كل ما حاق بحياته الشخصية من عقبات ومتاعب ومنغصات فإن إيمانه بالحضارة العربية، وبالثقافة والفكر، وباللغة العربية، وبالإبداع، والنشر، وبالأمة العربية ووحدتها لم يتراجع يومًا ما ولم يخبُ في لحظة ما، فقد يبتعد وقد يقرب وقد يطول وقد يقصر، ولكنه آت يومًا ما، يراه الناس بعيدًا ويراه أبوالقاسم قريبًا، لأن الأهداف الطموحة لا تأتي على عجل، ولا ترتبط بأجل.

إن هذه الأسطر القليلة لا تعدو أن تكون تحية شديدة الاقتضاب بحق هذا الرجل، بحق أبي القاسم كرو الذي صمد ونجح في حين خاب سعي أولئك الكائدين له، والصائدين في كل ما عكر صفو حياته وصفو مسار الأمة العربية في نضالها الموصول بدون هوادة ضد أعدائها والمتربصين بها.

شكرًا لكل من فكر في التكريم وسعى لإنجازه وتجسيمه والإسهام فيه، وفي المقدمة الأستاذ الفاضل الخيّر عبدالعزيز سعود البابطين رئيس مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري الذي تبنّى احتضان هذه اللفتة بحقٍّ هذا المثقف والمناضل العربي امتنانًا مستحقًا من كل مثقف ومن كل كاتب تونسي ومغاربي وعربي.

أمدّ الله في أنفاس أبي القاسم، ودعاؤنا له بالصحة والعافية.

****

أبو القاسم محمد كرو

أ. محمد قريمان(*)

وإذا كـــانت النفـــوسُ كـــبـــارًا
تعـــبت في مُـــرادِها الأجـــســـامُ

كثير من الناس يحبون تغيير حالهم إلى الأحسن، وقليل منهم يسعون بجد إلى ذلك، والنادر من هؤلاء من ذوي النفوس العظيمة يجاهد الحياة ويكابدها لبلوغ الغاية وينجح، وممن نجحوا وغيروا حالهم وأصبحوا قدوة لأجيال من الشباب الأستاذ (أبو القاسم محمد كرو) حفظه الله وزاده من نعمة الصحة والعافية حتى يرى أحفاده وأسباطه في خير حال.

عرفت الرجل (في معنى الرجولة لا الجنس) من حوالي ستين عامًا (١٩٤٦) حيث كنا نسكن معًا نفس الحي بمدينة قفصة بالجنوب الغربي من البلاد التونسية. هو أسنُّ مني بأعوام قليلة، وهو لَسِنٌ على كل أصحابه الذين من جيله ومن نفس الدرجة العلمية، يبرز ذلك في المحاضرات والمناقشات التي كانت تعقد بمقر جمعية شباب ابن منظور القفصي، حسب التسمية آنذاك، جمعية أسسها ودعا زملاءه من النخبة المثقفة إلى الانضمام إليها، فأسندوا رئاستها إليه.

لم يمض على تأسيس الجمعية مدة حتى استقطبت المثقفين في تلك المدينة على اختلاف تكوينهم ومشاربهم خصوصًا بعد تكوين مكتبتها وفرعها للتمثل العربي، فكل واحد يجسد فيها مشربه في صيف حار وطويل تتخلله عطلة بالنسبة للطلاب.

إعجابنا بالشاب أبي القاسم كنا نفسره أنه نتيجة نشاطه في صلب الجمعية المذكورة التي ملأت فراغًا عند الأجيال التي تعاقبت بعد التأسيس، وأعتقد الآن أن عوامل

(*) اديب تونسي من مواليد قفصة في الجنوب الغربي من تونس عام ١٩٣١م.

الإعجاب كثيرة وأهمها قربه منا من حيث المستوى الاجتماعي، إذ برز من عائلة تمتهن التجارة والفلاحة، وحتى أخوه الأكبر صالح الذي شق طريقه العلمي وانخرط في سلك القضاة فلم نكن نعرفه على الوجه الأكمل لأنّ زياراته للمدينة قليلة بحكم تنقله في مراكز عمله، بينما أبو القاسم نراه في كل يوم ونتحدث معه ونلجأ إليه لفهم ما عسر عنا فهمه، وهو المثال الذي شجع الشبان المنحدرين من عائلات حرفية، وأنا منهم، ليغيروا مسارهم في حياتهم وينعموا بنعمة العلم.

نجح الشاب أبو القاسم في شهادة الأهلية بعد عامين من الدراسة بتونس العاصمة وانتقل ليزاول دراسته بجامع الزيتونة، وإذا الأخبار تصلنا أن رئيس الجمعية الشاب أبا القاسم هاجر إلى الشرق (١٩٤٨) وبدأت التأويلات ضمن قائل أنه هزّه الحماس وذهب للجهاد في فلسطين خصوصًا وأن كثيرًا من شباب قفصة توجه متطوعًا للمساهمة في الحرب ضد إسرائيل في فلسطين، وحجتهم أنهم رأوه يدعو ويشرف على تجنيد الشباب المتطوع للقتال في فلسطين في نفس السنة، وهو معروف بتحمسه للقضايا الوطنية والعربية، ومن قائل لعله ذهب لمزاولة الدراسة، وهو قول ضعيف في نظر المتأولين لأنّ الرجل لم ينه دراسته بالزيتونة، ومن متأسف على هذه الهجرة الغامضة لشاب يتقد حيوية ويحسن التأثير والتسيير خصوصًا أنه استطاع في بضع سنوات ١٩٤٥/ ١٩٤٨ أن يحرك الحياة الثقافية في تلك المدينة الداخلية التي تفتقر إلى أبسط التجهيزات التي تساعد على الترفيه وتجميع الشباب ونشر الثقافة، وحتى السلطات الجهوية بالمدينة تعتبر النخبة المثقفة من الشباب عبئًا ثقيلاً عليها.

هذه الهجرة أثرت سلبًا على النشاط الثقافي، لكن الجمعية استمر وجودها وبقيت تعمل بهيئة أخرى وبرئيس آخر. أما المهاجر فلم يُنسَ واستمر السؤال عنه وعن مآله ومساره، فمرة نسمع أنه في مصر للدراسة، ومرة يقولون أنه شوهد ببدلة عسكرية، ويحتدُّ النقاش بين محبيه وهم كثرٌ يريد الواحد منهم أن يبين أنه أكثر اطلاعًا وتتبعًا لأحوال الرجل، وبعد مدة جاء الخبر أنه يدرس بدار المعلمين العليا ببغداد، وتأكد الخبر يوم أن

تلقت جمعية شباب ابن منظور هدية من مؤسسها ورئيسها الأول تتمثل في خمس نسخ من كتابه الذي أصدره في بغداد بعنوان «مايس شهر الدماء والدموع في المغرب العربي» وأقبلنا على قراءته وإعادة قراءته لأن مؤلفه منّا ولأن لغته سلسة ولأنه قيل لنا أن به حديثًا عن نكبة جرت في مدينتنا أثناء الحرب العالمية الثانية يوم عمد المراقب المدني الفرنسي P.Bardin إلى إعدام ثلاثة وثلاثين عربياً من أهل قفصة بدون محاكمة وبدون أن يعلموا التهمة الموجهة إليهم، كما عمد إلى تسليط خطية مالية يدفعها سكان البلاد من المسلمين قدرها مليونا فرنك، علمًا بأن الموظف السامي من التونسيين في المدينة لا يتجاوز مرتبه الشهري عشرين فرنكًا، إنها معاناة حرب لم يكن للتونسيين فيها ناقة ولا جمل، ومع ذلك دفعوا ثمنًا لها من أرواحهم وأرزاقهم أثناء الغارات الجوية العسكرية وحتى بعد الحرب بمفعول الألغام التي وضعها المتحاربون في كل مكان، وإذا الكتاب يحوي أحداثًا جرت في شهر ماي في كل أقطار المغرب العربي.

تقدمت بنا السن وتقدمت بنا الدراسة، وجئنا إلى تونس لمواصلة تعليمنا وإذا الكتاب الثاني من تأليف أبي القاسم كرو عن شاعر تونس أبي القسم الشابي «الشابي حياته وشعره» ينزل إلى المكتبات، ونعلم أنه يباع في مكتبة خوجه في حي باب منارة، ونسعى للتحصيل عليه، على قلّة ذات اليد، وصادف أن حضرنا حوارًا ساخنًا بين صاحب المكتبة وهو سوري مهاجر، وبين ورثة الشابي الذين يحتجون على نشر إنتاج مورثهم بدون علمهم، يعني بدون أن ينالهم نصيب من المال، فيجيب صاحب المكتبة بأنه تاجر استورد سلعة ليبيعها، وإذا كان لهم حق فليطلبوه ممن أخذه منهم عن طريق المحكمة.

رجع أبو القاسم إلى بلده وقد أصبح أستاذًا قانونًا بعد تحصله على الإجازة في الآداب العربية من دار المعلمين العالية في بغداد، وبعد أن مارس التدريس ببغداد ثم بطرابلس ثم بتونس، ومن حسن الطالع أنه عاد قبل أن تستقل تونس ويصبح المسؤول عن التربية فيها رجل معقد، عُقْدتُه الزيتونة وأهلها، فلم ينل الأستاذ أبو القاسم ما نال زملاؤه الذين جاؤوا بعده حيث كان بعض الساسة في تونس ضد العروبة يستصغرون الشرق وثقافة الشرق، ويتشيعون للغرب وثقافة الغرب وفي مقدمتهم هذا المعقد الذي أصبح

وزيرًا، تشهد عنه الوثائق الإدارية التي استعملت في عهده وعلق عليها بخط يده «مجاز من الشرق» و«ز. لا يستحق الخطة» و«ز» تعني زيتونياً، تشهد كلها على عقدته التي عانى منها طلبة الزيتونة والمتخرجون منهم من جامعات المشرق العربي معاناة لا مزيد عليها.

عاد الأستاذ عام ١٩٥٤ ومعه شهادة جامعية ورصيد كبير من المعرفة الأدبية والخبرة الحياتية في أتم النضج، ومعه أيضًا زوجة لطيفة مثقفة من بلد الأرز، انضمت هذه السيدة الفاضلة إلى أسرة التدريس بالفرع الزيتوني للبنات بتونس العاصمة، هذا المعهد الذي أنجب الكثيرات من أهل العلم والثقافة، ومع ذلك يردد المغرضون ومن في قلوبهم مرض بدون حياء، أن التعليم الزيتوني ديني تقليدي يقتصر على الدراسات الدينية، ومن تناقضهم أنهم يفتخرون في الوقت ذاته برموز العلم والأدب والشعر والوطنية أمثال الثعالبي والشابي والحداد وبو حاجب وابن عاشور وغير هؤلاء وكلهم تكونوا في جامعة الزيتونة.

لا أشك أن الأستاذ كرو قد أدرك تمام الإدراك العداء الذي يكنه وزير التربية آنذاك لأهل الزيتونة، والحمد لله أنه وُلِدَ ولم يَلِدْ وقد يكون عمل. يقول المتنبي:

ومن نَكدِ الدنيا على الحرِّ أنْ يرى
عدواً له ما مِن صداقَتِه بُدُّ

لكن الوزير الحقود لا يؤتمن جانبه، فاستغل عرضًا تقدّم به إليه وزير الثقافة ليعمل معه متعاقدًا حيث كلَّفه فيها بإدارة كلية الآداب من ١٩٧١ إلى ١٩٧٤، وفيها قدرت ثقافته وعلمه وقدرته على الإبداع، ففتحت أمامه أبواب كثيرة مقاييسها الكفاءة ولا شيء غير الكفاءة في الميادين العلمية، وأخذ يتنقل في مهمات عديدة منها إدارة المركز الثقافي بطرابلس الغرب من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ وكل نجاح في مهمة يقوده حتمًا إلى مهمة أخرى، ويكفيه شرفًا وفخرًا أن أسندت إليه مجامع اللغة العربية في القاهرة والأردن والعراق ودمشق، العضوية الدائمة بصفة عضو مراسل لهذه المجامع التي أحسنت الاختيار لأن الرجل من الباحثين المدققين في معاني اللغة العربية ومن الممارسين لاستعمالاتها فيما يكتب باستمرار سواء أكان على صفحات المجلات والجرائد اليومية، أو فيما يؤلف من

كتب بلغت، فيما أعلم ستين عنوانًا، أما فخره الأكبر فهو تسميته مستشارًا لوزير الثقافة من قبل رئيس الجمهورية التونسية اعترافًا له بما قدم طيلة حياته من أعمال في الميدان العلمي والأدبي والاجتماعي.

بدأ بطلنا حياته نبراسًا وسراجًا منيرًا، وأدرك مبكرًا أن الإشعاع يقتضي طاقة ليتواصل وتتسع دائرته، والطاقة هنا هي العلم والمعرفة والثقافة، فحرص وما يزال على التزود ما أمكنه من الطاقة ليواصل إشعاعه، ومع ذلك فهو يردد دائمًا (وما أوتيت من العلم إلا قليلا)، وأدرك أيضًا أن الحياة اختيارات، وأن الدارسين للعلم نوعان اثنان: أحدهما يريد من العلم أن يكون مطيته لضمان الوظيفة والجاه والمال، فيتلهّى بخويصات نفسه، زواج وإنجاب وكل ملذات الحياة. وهي رغبة مشروعة، وهؤلاء هم الأغلبية الغالبة، أما النوع الثاني وهم أقل من القلّة فيختارون زيادة على ما يوفره العلم من العيش أن تكون له رسالة يشع بها على بني جنسه، يحرص على نشرها ويضع لبنة في البناء الحضاري لبني قومه، وهو عمل لا ينتهي ويمتد مع صاحبه إلى آخر لحظة من حياته، وصاحبنا من النوع الثاني فهو لا يحمل علمًا يبثه بين أهل الثقافة فقط، وإنما يبحث ويدقق ويقلب الوثائق لاستنتاج ما هو متعلق بالأحداث التاريخية التي ساهمت في بث الروح الوطنية في ربوع الإسلام شرقًا وغربًا، ثم هو ينشرها على نفقته أو بإعانة بعض المؤمنين برسالته، فهو عندما يتحدث عن الشاعر أبي القاسم الشابي فهو يتحدث عن فنه وإبداعه في بناء القصيدة، لتوضيح المعاني وإبراز الوطنية في هذا الشعر الذي ألهب العواطف وأذهب السكينة والاستسلام واليأس من قلوب الناس، ورسخ في النفوس التشبث بالأرض والهوية، وعرف أن إرادة الشعوب لا تقهر أبدًا:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة
فلا بدَّ أن يستجيبَ القدرْ
ولابدَّ لليل أن ينجلي
ولابدَّ للقيد أن ينكسر

أما كتابته عن الطاهر الحداد فإنما هي لبيان دعوته إلى تحرير المرأة التي ظلّت زمنًا ترزح في قيود الجهل والتقاليد البالية، والتذكير بدعوته التي تعززت بدعوات مماثلة في أقطار إسلامية أخرى جعلت الناس في عصرنا يؤمنون أن المرأة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق.

سُنَّة الله في خلقه أن يهِنَ عظم الأستاذ كرو بعد جهاد طويل وعطاء وفير امتدّ ستة عقود متواصلة، ومع ذلك فقد حباه سبحانه وتعالى ومتعه بالحضور الذهني وكامل مداركه العقلية جزاء ما قدّمه من خدمة للعروبة والعربية في كل مكان. الرجل ما يزال والحمد لله يقرأ ويكتب وينظم ملفاته ويناقش زواره ويحضر المؤتمرات ويدافع عن قضايا الحقّ بما يحبِّره في الجرائد اليومية من فصول، وإن ما أقدم عليه في السنين القليلة الماضية من إهدائه لمكتبته الضخمة إلى كلية الآداب بمنوبة في البلاد التونسية لهو دليل على رجاحة العقل وحسن التصرف إذ إن هذا الإهداء قصد منه نفع الطلاب بما تحويه المكتبة من مصادر ومراجع فيتواصل العطاء طول الدهر.

فلتهنأ يا أبا القاسم كرو بمسيرة حياتك، واختم بما كنت بدأت به هذه الشهادة:

وإذا كـــانت النفـــوسُ كـــبــــارًا
تعـــبتْ في مُـــرادِها الأجـــســـام

****

حياة حافلة بالعطاء

أ. د. محمد مسعود جبران(*)

أرأيت إلى بهاء الشجرة الطيبة المباركة، الوارفة الظلال في أعالي التلال، والموفورة الحظّ من الخصب ولذيذ الثمار المكسوة باخضرار الأوراق وروائع النوّار، وقد تعهدها الغيث بطلّه ووبله، وتناوبت عليها الأهوية بنسيمها الرقيق، وسرِّها المخبوء الرشيق، فغدت في مجالي الطبيعة السابية شجرة بهية المرأى والمنظر، جميلة المظهر والمخبر، تلك عندي – هي الصورة الحسيَّة الرضية في عالم الشهادة لبيان صورة العالم التونسي الجليل، والباحث الألمعي الأصيل، والأديب الظريف النبيل الأستاذ أبي القاسم محمد كرو ومعلَمة معالم تونس الحبيبة، والبلاد العربية والإسلامية بعامة.

فما من ريب في أنّ أستاذنا أباالقاسم محمد كرو حقيقٌ بهذه التحية، لإنّه – كما عرفناه وخبرناه عن قرب – عالم معطاءُ ، وصاحب معارف ثرّة مهيبة ومجمع تجارب عميقة خصيبة، إذ برأه الله تعالى كما تفصح سيرته وترجمته الحافلة – مثالاً متفرداً للدأب والمثابرة والجلد، وأنموذجًا متميزًا للصبر وقوة التحمل، ونمطاً ممتازاً للحافظة المستوعبة المخزنة، والذاكرة المستدعية المدهشة، مع ما يزينه من الظرف الممتع الذي لا يقف في مجال الإمتاع والمؤانسة عند حدٍّ من الحدود، زيادة على ما خصّه الله به من سماحة النفس، ورقة الروح، وقوّة الجاذبية ، وهو ما جعل منه بجماع بل بمجموع ما اختزنه من المعرفة الواسعة، والدماثة العذبة التي تشكّلت بها شخصيته خلال عمره المديد السعيد سفيرًا للثقافة العربية الإسلامية في تونس الخضراء محبوباً مستملحًا موقرًا، يحظى في المحافل الفكرية المختلفة في البلاد العربية والغربية على حدٍّ سواء بكل تجلّة وتقدير يليقان بعلمه

(*) اكاديمي وشاعر ليبي من مواليد مدينة طرابلس الغرب عام ١٩٤٦، ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الدعوة الإسلامية.

وأدبه، وبما قدّمه بيانه الطلي، وقلمه الجلي – في مدّة ناهزت الستين سنة – من ثمرات الأفكار، وما أبدعه من تآليف وكتب وآثار، وبما عرف به من حضوره المحبَّب، ليس في ما شهدت بعضه في الندوات والمؤتمرات والملتقيات الفكرية وحسب وهو قليل من كثير، بل في ما عهده فيه الجيل الماضي من مثقفي الأمة في الأربعينيات والخمسينيات في تونس ومصر والعراق وليبيا على منابر السياسة الوطنية والقومية والعقدية التي جسَّدت – كما تجلوه مقالاته وبحوثه في كتابه القيم «حصاد العمر» مواقفه العظيمة المنتصرة دومًا لقضية وطنه تونس ونضالها، ولأمجاد الأمة العربية ووحدتها، وللدين الإسلامي القيّم وتراثه الخالد العظيم، إن الخاصية الأولى والبارزة في مكونات عطاء وشخصيته هذا الرجل، والتي ميزته عن الكثير من أقرانه ولداته في تونس والبلاد العربية – أنه كان من الطلائع الرائدة التي حملت قضية الوطن والقومية والدين، واتخذت من الأقلام أداة قوية للدفاع عن تلك القضية والتفكير فيها، والتعبير عنها، ولم يسمح لنفسه طوال حياته أن يكون طائرًا يصدح ويغني خارج السرب، «فما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط». لم يكن الأستاذ كرو في ما يخبر تاريخه وترجمته وفي ما قرأناه له من مقالات وكتب، واستمعنا له في أحاديث مجالسه، أو أخبرنا به أبناء جيله الذين تقدمونا زمانًا شخصية انسحابية اعتزالية تعيش في برجها العاجي أو أحلامها الوردية أو ترضى بالتهويم الذي يفصلها عن مجريات الواقع الذي تحيا أمته عذبه وعذابه، دون أن تكلف نفسها بالنضال المستميت، ومقاومة المستعمر الغريب الدخيل، أو مجابهة السياسات المستغربة المنحرفة في مرحلة ما بعد الاستقلال وهو ما عرضه في الكثير من الأحيان إلى شيء غير قليل من المحاصرة والتضييق والتهميش والإبعاد.

وقد كان القصد قبل كتابة هذه الكلمة الموجزة أو الشهادة الصادقة أن أكتب عن الأستاذ أبي القاسم محمد كرو وأخباره النضالية وآثارة العلمية بحثًا مطولاً أو كتابًا مفصلاً، أستكنه فيه ذينك المظهرين، وأجلو خلالهما توفيقه فيهما، لا مجرد كتابة مقالة عابرة عجلى مثل هذه الومضة السريعة التي أوحت بها هذه المناسبة الرائعة في تكريمه

بهذا الكتاب الاحتفالي، والتي حُدِّد لها - بالرغم من فسحة الاتساع - هذا الحجم المختصر. والصفحات الضيقات التي تضيق عن مسرد مكارم الرجل وفضائله، ولكنها في كلِّ الأحوال مناسبة تقديرية بديعة وجليلة نحترمها ونجلُّها، [......] تعليماتها في تحية هذا العالم الرائد، والأديب الأريب، ونرسل من خلالها احترامنا الكبير لمقامه الكريم.

لقد قدر لي أن أعرف هذا الأستاذ شخصيّاً بعد التعرف إلى آثاره العلمية مدة تجاوزت الثلاثين سنة في بلادنا ليبيا التي ارتبط بها وأحبته منذ ريعان شبابه أولاً، ثم في بلاده تونس التي تحتل من نفسي مكانًا عزيزاً، وفي بلادنا الأثيرة المشتركة المغرب الأقصى، وربما أتيح لنا اللقاء أيضًا في لبنان الجميل ضمن احتفالية مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في دورتها السادسة لتكريم الشاعر الكبير بشارة الخوري، فعرفت فيه كما جلته المجالس والمنتديات الحميمة ومنابر الملتقيات والندوات أديبًا رقيقًا سمحًا، ومحدّثًا ظريفًا لبقاً، وتاريخًا مشرقًا ألقًا، مع ما عُرف به من الحافظة التي تختزن من خلال قراءاتها ونضالاتها آلاف المواقف والأحداث والشخصيات وذاكرة نشطة تستدعي في غزارة وسرعة عشرات الحالات من الطرائف والمفارقات والأعلام الشرقية والمغربية ومن رجال السلف والخلف على حدٍّ سواء.

إنَّ أول ما يلفتك في هذه الشخصية الأثيرة المحببة - كما لفتني - تلك الجاذبية الآسرة التي يختزنها كيانُها، والتي تحتوي شخصية محدثة - مهما كانت طبقته أو مستواه العلمي أو الاجتماعي - بسهولة ويسر، وتستحوذ على روحه بابتسامة أبي القاسم الطاهرة التي يرسمها دومًا على محياه البريء ، فتفتح قلاع النفوس وحصون الأرواح دون مكابدة.

إنها الإكسير الغامض الرائع الذي صاغته على محياه عبر السنين المتطاولة براءة أهل البادية والصحراء الذين ينتمي إليهم بأصوله وأعراقة ولباقة أهل المدن والحواضر الذين عايشهم في عواصم المشرق والمغرب عهدًا عهيدًا، فإذا قدِّر لعارفه أن يبهر منه بهذه الجاذبية الجذابة الآسرة، فسوف يرى بعد ذلك أنه يطوّق منها أيضًا بجاذبية أخرى هي

جاذبية معارف الأستاذ المتنوعة التي أخذت من كل علم بطرف، والمتجلية في متعة المعرفة التاريخية في ما يسوقه إليك من ذكر الآثار والأخبار، وما يورده من الحديث عن الرجالات والأعلام، وما يتحفك به من التاريخ الذي أهمله التاريخ، وللأستاذ في ذلك باع طويل، كما يجلوها لك في الإتحاف بالنوادر وطرائف الأدب منظومه ومنثوره، وحكايات الأدباء وما يخفى من خصوصياتهم وأسرارهم زيادة على الحديث عن أطوار الأدب العربي قديمه وحديثه، والاسترسال في ذكر ملامح الأدب التونسي والمغاربي ماضيه وحاضره وشكول السياسة والساسة.

بيد أن مجالس الأستاذ أبي القاسم كرو – لا تخلو – في ما عاينته منها في ليبيا وتونس والمغرب من جاذبية مائزة تظهر في ما عرفها فيه جميع الأدباء والكتاب من أهل الجدّ والهزل، تضاف إلى أفضال ما ذكرناه له من العلم والأدب هي جاذبية الطرفة المسعدة، والنكتة الساخرة الساحرة، والدعابة الغامرة التي تستلُّ من أعماق سامعها في تلك المجالس أقوى الضحكات والابتسامات، وتجسد لشهودها في هذا المجلى ما يماثل الأفاكيه التي كتبها الأبشيهي في كتابه «المستطرف في كل فن مستظرف» وما سطره قلم الراغب الأصفهاني في كتابه «محاضرات الأدباء» وما حرّره غيرهما من الظرفاء في كتبهم وتصانيفهم.

وما من ريب في أن هذه الجاذبيات مجتمعة قد جعلت من شخصية العالم الأديب الظريف الأستاذ أبي القاسم كرو شخصية محورية في كل مكان يحلّ به للمشاركة في الملتقيات والندوات، بحيث كنتُ ألحظ دومًا أن الزاوية التي كانت تغص وتكتظ باجتماع الضيوف وأساتذة الوفود في الأَبهاء المختلفة في محافل الندوات وتحفل بكثرة العلماء الظرفاء، إنما هي الزاوية التي يكون الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو واسطة عقدها، وجذيلها المحكّك حيث يتحلق به فيها الأدباء وعاشقو التاريخ وناشدو الدعابة وطرائف الحقائق وروائع الظرف والملح والمعارف.

والحق الذي أريد توكيده في هذه الشهادة العجلى، أنه راقني من هذا العالم الأديب الظريف خلالٌ زاكيةٌ متعددة في المنهج والسلوك، وفي أسلوب حياته ومعاملته، أرى من

الإنصاف أن أنثر في هذا المقام جملة من جواهرها المتألقة، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. فقد راقني من هذا الأستاذ الذي طال بحمد الله عمره وحسن عمله؛ اجتهاده الدائم منذ طفولته وصباه، وجلده الذي لا يكلُّ ولا يمل في التحصيل والأخذ والقراءة والكتابة الموصولتين، وما عرفناه فيه من التنظيم الدقيق في احترام العمل والوقت، الذي يحرص في صرامة على استثمار دقائقه وساعاته، وربما كان هذا المظهر الحضاري سرّاً من أسرار نجاحاته الكثيرة في كثرة التأليف وتحرير المقالات والبحوث حتى لقد بلغت مصنفاته أكثر من خمسين كتابًا، كما جعله مكتبة حافلة متنقلة، زيادة على ما اشتهر به من تبريزه في ما أسند إليه من مهام ومسؤوليات، وشرف به من عضويات وفاعليات، وراقتني فيه هذه السماحة والتلقائية المحبَّبة التي أسرت قلوب عارفيه من الأودّاء في المشرق والمغرب. فهو مع المعهود من علمه وأدبه ومكانته، وما اختزنته حافظته وذاكرته من حقائق ورقائق، يتألف ولا يتكلّف، يتحدث بصوت طبيعي خفيض، ولا يؤثر التصعيب ولا يحدث نفسه بالتصنع في السلوك، وبالتوعّر والتقعر في الكلام، وراقني فيه كما راق لغيري من خلائقه حبُّهُ بناء الجسور لتواصل الأجيال، فقد عهدناه يحدبُ أشد الحدب على شُداة الأدب، وناشئة الكتّاب والمثقفين، يفسح المجال لظهورهم وبروزهم، ويعمل على تزكية النابهين منهم، وتمهيد السبل أمامهم ليكونوا فسائلَ جديدة نافعة واعدة في حقول الثقافة العربية والإسلامية، وليس بخافٍ أن ثمة عشرات من العلماء وأساتذة الجامعات والكتّاب والصحافيين اليوم في تونس والبلاد العربية، كان الأستاذ أبوالقاسم كرو وراء شهرتهم من قبل ومن بعد.

ونحن إذا سلّمنا جدلاً بما قرّره أستاذنا الناقد الكبير الدكتور خليفة محمد التليسي – صديق الأستاذ كرو من أن الشاعر المبدع أبا القاسم الشابي كان أول من أسكن الشعر في تونس وفي شمالي أفريقيا بعامة[1]، فإننا ينبغي أن نسلم أيضًا بأن أبا القاسم كرو كان بلا ريب من وراء شهرة هذا الشاعر التونسي العظيم والتعريف بحياته وشعره وأدبه في بلاده والبلاد العربية منذ أن كتب عنه في سنة ١٩٤٩ إلى الآن كتبه الخمسة المعروفة،

(١) لا خلاف في أن استاذنا الدكتور التليسي كان من أوائل من عرفوا الشاعر التونسي أبا القاسم الشابي في سنة ١٩٥٠م.

وأكثر من مائة وخمسين مقالة وبحثًا ومحاضرة، وختمها بإشرافه المشرِّف على إصدار موسوعة الشابي في مجلدات برعاية مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين البابطين للإبداع الشعري.

ولا أختم كلمتي الشهادة هذه، وأنا أجلو أيادي الأستاذ في مساعدة الأدباء وناشئة الأدب وشداته ومساندته لإبراز مواهبهم قبل أن أذكّر بآخر أياديه وأفضاله التي توِّج بها خواتيم حياته المباركة والمتمثلة في سخائه النادر حينما أهدى بأريحيته مكتبته الحفيلة ورصيدها الضخم الذي جمعه طوال حياته «والجود بالروح أقصى غاية الجود» كما قال الشاعر، إلى جامعة منوبة لتنتفع بها الأجيال الحاضرة والقادمة وتفيد من مظانها المختارة، ووثائقها المنتخبة المفيدة.

حقّاً لقد كان الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو كما ذكرنا في طالعة هذه الكلمة كالشجرة الطيبة المباركة الوارفة الظلال الوفيرة الأزهار المكسوة بالخضرة والثمار، وهذا ما أكبر الأستاذ كرو في نفسي التي ملأها إعجابًا بعلمه وأدبه وتواضعه وحبِّه الدائم الحاني على الأجيال العالمة الواعدة، فإلى مقامه الكريم وهو يحتلُّ من الإعزاز المكان الأرفع. تحيتي وتقديري وتمنياتي له بالسعادة والهناء.

****

مع الأديب المغاربي الأستاذ أبو القاسم كرو

أ. د. نجاة المريني(*)

يبدو أن الحديث عن بعض الأعلام ممن لهم حضور في الساحة الثقافية له أبعد حضارية، ولمسة وفاء خلقية في عصر الشغل والانشغال والفتنة والاضطراب، إذ لوّنت العولمة الفضاء بزخارفها وكست بأرديتها مجالات اقتصادية وثقافية، لتفيد بجدواها وحضورها وضرورة اعتبارها كونية في عصر القهر والاستبداد والظلم والاستعباد.

منحى حضاري يسعى إلى تكريم نخبة من الأدباء والمفكرين، ويلم شمل كلمات باحثين في الاعتراف بما لهؤلاء الأدباء من عطاء، حيث ساهموا بكتاباتهم في تنوير الأذهان وتفتيق الأفكار وتعبيد الطريق لمن سيأخذون المشعل فيما بعد، ويساهمون بما سيحبرون من كلمات وكتابات في الارتقاء بالفكر العربي وفي الاعتزاز باللغة العربية لغة القرآن ولغة الأمة العربية منذ قرون بعيدة.

الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو من الأدباء المغاربيين الذين زوّدوا المكتبة العربية بمؤلفات عديدة في ميادين مختلفة منها ما تعلق بالكتابة عن الأعلام ومنها ما تعلق بالكتابة عن الأوطان واستقلالها، وعن اليقظة السياسية وأدوارها في تحرير البلاد والعباد، ومنها ما تعلق بالمواقف الإسلامية أو غيرها من الموضوعات الشائكة التي تناولها قلمه بجدية ووضوح، وهدوء وبيان.

تتميز كتابات الأستاذ كرو وهي تتناول تراجم الأعلام الرواد أو الأعلام المنسيين بالدقة والعمق، وإن كان يعتذر في بعض الأحيان بقلة المصادر وشحّ المعلومات، وبهذا

(*) أكاديمية مغربية من مواليد عام ١٩٤٧، تدرّس بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس في الرباط، ولها عدة مؤلفات.

العمل يقدم خدمات كبيرة للفكر العربي وللإنتاج الأدبي، فلا نراه إلا مكبّاً على العمل مستحثاً ذاكرته على الاستيعاب والتحصيل وقلمه على التسجيل والتحبير، هدفه تخليد ما علق بالذهن سنوات، وما رسمه القلم وهو يناضل بحمية الشباب ورباطة جأش العقلاء في سوح الكتابة والتأليف، فأمتعنا وأفادنا وأطلعنا على نبضات فكر وقبسات قلم، فالثقافة هي المرفأ الذي ترسو عنده سفن الباحثين والأدباء وغيرهم ممن يشغله أمرها من العامة والخاصة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، وكما يقول الأستاذ كرو في كتابه «حصاد العمر ٦/٢٢٤: الثقافة هي الميدان الوحيد الذي يساعد على تحقيق الوحدة بأوسع مما تستطيعه الميادين الأخرى».

وعندما يسعى الأستاذ كرو إلى المساهمة الجادة في الحياة الثقافية العربية، فإنه لا يغفل توثيق معلوماته أو كتاباته المتنوعة أو حواراته في المجلات مما يدعو إلى الإعجاب بقدرته على المتابعة والتوثيق فلا يفوته سنة ١٩٩٨ أن يقدم لنا في ستة مجلدات ضخمة عنوانها: «حصاد العمر» عصارة فكره ونتاج قلمه في طباعة أنيقة مغرية بالاستفادة والمتعة، ففي هذا الحصاد يكتشف المرء الأستاذ كرو صاحب الاهتمامات المتعددة والكتابات المتنوعة، كاتبًا حريصًا على تقديم نفسه للقارئ أينما كان وكيفما كان، لقد بذل جهدًا كبيرًا وهو يجمع مقالاته وحواراته باعتبارها شاهدًا على فترات حياته منذ أن امتشق القلم سلاحًا في حياته الأدبية، ومنذ أن اختار الخوض في غمارها مساهمًا في تطويرها وفي الارتقاء بها منذ سنوات الدراسة والتحصيل.

يتميز الأستاذ كرو بالاهتمام بالقارئ كلما أراد خط كلمة أو طبع كتاب، ليساعده على القراءة، ويغريه بالمتابعة، ويشحذ ذاكرته لتسجيل المعلومات منبهًا، بطريقة ذكية، إلى أن القارئ هو هدف كل كتابة، وأن نجاح الكاتب يكمن في حسن التلقي، بجميل الأداء وحسن التبليغ، ففي المجلد الأول من «حصاد العمر» ص ٨ يتحدث الأستاذ كرو عن موضوعات مؤلفه بمجلداته الستة وكأنه يساعد القارئ على الإقبال على المادة التي يرغب في قراءتها، ولعل ما يثير الإعجاب هو الحرص على تدوين كل الموضوعات بما لها وما

عليـهـا، فـفي المجلد الأول من هذا المؤلف وعنوانه «حـصــاد الكفـاح» ص ٨ يقـول عن موضوعـاته: «أما الجزء الثاني من «حصاد الكفاح» فـهو ينشر لأول مرة ويحـتوي على «إضمامة الذكريات» كما كتبها أصحابها عني، وإن سميتـها «كلمات للذكرى» من هذه الكلمات شهادةُ باحثةٍ كتبتها سنة ١٩٥٠ منوهة بالأستاذ كرو جاء فيها: «عرفت الأخ روحًا ونفسًا دون أن أراه، ثم مرّت الأيام ثانية، وقربتني من هذا الفيض الأدبي، وتعرفت به، فماذا وجدت؟ وماذا رأيت فيه؟ وجدته فكرًا متوقد المعرفة واسع الثقافة في كل مناحيها، فكرًا إذا استمعت إليه وجدت البعد عن فيضه صعبًا ووجدت شيئًا يدفعك للاستزادة».

لا شك في أن أبا القاسم كان معتزًا بما كتب عنه في سنوات بعيدة، وهو بعد في أول الطريق، فلملم شتات هذه الكتابات، تقديرًا لأصحابها وإن اختلفت آراؤهم في كتاباته بين مؤيدٍ ومعارض، نوه به الأستاذ دعبل محمد جواد سنة ١٩٥٢ في كلمات مختصرة لكنها أدت معاني كثيرة، يقول: ٣٧٨/١: «يعجبني في أبي القاسم – أخي – شيئان قلّما وجدتهما مجتمعين في سواه: جهاده وصبره من جهة وحسه الأدبي المرهف من جهة ثانية: ففي هذا التنويه ما يدعو إلى البحث عن شخصية أبي القاسم في مؤلفاته العديدة: نجده باحثًا متتبعًا متقصيًا الأخبار في مصادرها، صبورًا على مشقة البحث والتنقيب، وهي ذات ألوان وطعوم لا يعرفها إلا من أصابته حرفة الكتابة وحرفة الأدب، كما نجده صاحب حسٍّ أدبي مرهف في أخيلته وتعابيره، في صوره وأساليبه، يقول موجهًا الخطاب إلى الشاعرة العراقية مقبولة الحلي ١٥١/٣: «إن السعادة ليست حلمًا تحققه الأيام، وتضعه الأقدار بأيدي ناشديه بل السعادة مثل أعلى ننشده، ومسعى نبيل نهدفه وغاية نمشي لها بنفس تتدفق حيوية وتزخر ثباتًا وبقلب يطفح بشرًا، ويفيض جَلَدًا وإيمانًا، فعلام إذن تتركين نفسك – في زهرة العمر – طريحة اليأس فريسة للأحزان؟ ولماذا تنوحين بأنغام الألم والحرمان بدل أن تغني أنغام الشباب المرحة، وأناشيد الفتوة الضاحكة؟ ألأن الخداع شريعة الوجود؟ والغدر دستور البشر؟ أم لأن النفاق والرياء، والكذب والخيانة، عملة رائجة عند الأدنياء، يبتاعون بها القلوب الخافقة والميول الهائمة».

لقدْ أبدع أبوالقاسم نصاً جميلاً أبان فيه عن حسِّه الأدبي المرهف وعن تفاؤله بالدعوة إلى جهاد النفاق والخداع والصبر على كيد الأعداء ورياء الأغبياء بلغة واضحة وصور قريبة.

ولعل جهاد الكلمة ورقة الإحساس عنصران كما أشار إلى ذلك الكاتب العراقي منذ ما يقرب من ستين سنة، وقد بقي وفيّاً لهذين العنصرين في كل كتاباته على تنوعها وتعدُّدها. وأما الأستاذ فيصل حسون فقد كتب إليه سنة ١٩٥٢، ١/٣٦٨ يقول: لقد كنت أجادلك، وألج في الجدال، حتى لتحسبني أخالفك الرأي، وأسفًه ما تذهب إليه، ولكن الواقع هو غير ما كنت تظن، فقد كان يروقني كثيرًا أن أجدك تندفع في محاججتي وإفحامي، وبذلك وحده كان قلبي يعرف الطمأنينة إلى أن في أبناء هذه الأمة من لا تزال آمالنا وأمانينا أمانة في أعناقهم، وأنهم سيناضلون عنها ويكافحون من أجلها».

وجاء في قصاصة جريدة الحرية التونسية بتاريخ فبراير ١٩٩٥ في ركن «ملامح» ١/٤٩٨: «يتعب الكل، ولا يتعب هو.. رجل نذر نفسه وحياته للقلم والفكر والذاكرة.. راحته يجدها في إبداعه وفي تحقيق الإضافة... أحب الشابي كما لم يحبه أحد غيره، وكان أول من كتب عنه ولحن آثاره وأحب قفصة، مسقط الرأس ومرتع الصبا والشباب، فنقب عن كل تاريخها وأحب ابن خلدون، فكان أول تونسي يكتب عنه .. أصدر سلسلة (كتاب البعث) فخدم بها الثقافة التونسية كما لم يخدمها أحد سواه ثم أصدر مجلة الثقافة فكانت صوتًا مختلفًا عن السائد».

وعندما يعنى الأستاذ كرو بالكتابة عن المرأة تنتصب المرأة العراقية شامخة بقامتها في التحرر من قيود الجهل والتحرر من قيود التبعيّة، وسيبهره فترة إقامته ببغداد أواخر الأربعينيات ما للمرأة العراقية من حضور لافت للانتباه لا يفوقه إلا حضور المرأة المصرية في الساحة الفكرية والأدبية والسياسية، فكانت هذه المرأة صورة مشرقة للمرأة العربية وهي تخط طريقها نحو التألق في الحياة العامة.

يشغل الحديث عن بعض الشاعرات العراقيات الجزء الأول من المجلد الثالث من (حصاد العمر) ويختار لهذا المجلد عنوانين: شاعرات عراقيات، وفي الشعر والشعراء، يقول الأستاذ كرو ٣/٨: «في العراق شواعر نابغات يقفن بحق إلى جانب عدد ليس

بالقليل من شعراء العرب المعاصرين.. وعدد الشاعرات العراقيات لا يقل عن عشرة يمكن للدارس أن يقف على آثارهن وأن يجد فيها متعة رفيعة للنفس والقلب والشعور».

من الشاعرات العراقيات سلمى الملائكة أم نازك، يعجب بها الأستاذ كرو ويثني على جرأتها وشجاعتها في توجيه اللوم إلى الضمير العربي الغائب بعد أن استعمر المستبد الأراضي الفلسطينية، وينوه بانصرافها إلى تصوير الواقع المفجع لأبناء فلسطين، فهي «تبكي في أشعارها مصير شعب كامل قضت عليه المؤامرات والدسائس وأيضًا السلبية والاتكال، ويجد في قصيدتها «جراحنا الدامية» روحًا عالية من الإحساس القومي المستنير ومن الشاعرية الفياضة التي تلتقي مع الاتجاه السديد الذي ينبغي أن يسير عليه شعرنا الحديث» ومن الشاعرات اللائي خصهن بحديث مثمر نازك الملائكة ولميعة عباس ومقبولة الحلي، مستشهدًا بنماذج مختارة من أشعارهن، فمن شعر نازك الملائكة في تصوير معاناة المعذبين في الأرض أو الأشقياء في الكون: ٣/٤٥

أنا من غنّت دموعَ الأشقياء
وبكت أشعارها.. للأبرياءِ
كَمْ صريعٍ قَبْرُهُ ثلجُ الشِّقَاءِ
ويتيمٍ مَهْدُه شوكُ العَراءِ
وصَبَايا كَرَعَتْ سُمَّ القضاءِ
قبلَ أنْ ترشفَ كأسًا من هَناء
صُغْتُ أحزانَهُمُ لحنَ شقاءٍ
هو أحزاني .. وحبِّي ووفائي

ويقول عن لميعة عباس «شاعرة شابة، في شاعريتها طاقة فنية ومقدرة فائقة للتعبير عن آلام النفس وأحزان الحياة، في شجاعة نادرة وصبر قوي، في شعرها عمق الإحساس وحرارة العاطفة، وقوة الاحتمال ومأساة الإنسان، في مصائبه ومحنه، وهذا ما يضفي على شعرها عذوبة مفعمة بالروح الإنسانية والتشوف المثالي النبيل» ٣/١٢٨.

ويحضر المغرب العربي في كتاباته بصورة واضحة وبدفاع مستميت عن حرية الأوطان وتقدير لجهود المناضلين في المغرب والجزائر وتونس يندد بالمستعمر وجبروته،

ومكره وطغيانه يقول ١٨٣/١: «إن العربي الذي يهتف باستقلال تونس أو الجزائر أو مراكش يلقى به في غياهب سجون مظلمة، ويلاقي شتى أصناف التعذيب والتنكيل، وقد حاولت حكومة فرنسا في السنة الماضية إصدار تشريع يحرم (التلفظ) بكلمتي (الحرية والاستقلال) في أقطار المغرب العربي (فقط) وعلى العرب (وحدهم).

ويتحدث الأستاذ كرو عن نضال حرب الاستقلال في المغرب فيقول: ١٩٦/١: «ورغم حركات التنكيل والاضطهاد والعدوان والبغي التي قام بها الفرنسيون ضد أعضاء حزب الاستقلال وضد قادته، إذ أبعدوا القادة إلى الصحارى وإلى جزيرة كورسيكا، وكان (علال الفاسي) يومئذٍ لا يزال سجينًا في الغابون، وقامت السلطات الاستعمارية بحملات إجرامية فظيعة ضد أبناء الشعب الذين أخذ هياجهم وتأييدهم لحزب الاستقلال ووثيقته يزداد قوة وعنفًا، كلّما ازداد الاضطهاد والطغيان، مما شكل خطر الثورة التي دامت متأججة جامحة مدة شهرين كاملين» ويختم حديثه قائلاً: «الحياة لك يا مراكش والخلود لأبنائك والموت للاستعمار واللعنة على المستعمرين».

أما الجزائر التي احتلت سنة ١٨٣٠ فهي حاضرة في كتابات الأستاذ كرو يتابع أخبارها ويندد بالمستعمر الظالم يقول ١٤٢/١: «لقد قاوم الشعب الجزائري في كل مكان الغزو الفرنسي ببسالة نادرة وشجاعة لا مثيل لها... إن ثورة الجزائر مثل عشرات الثورات السابقة واللاحقة كرد فعل عما ارتكبه الاستعمار من اضطهاد وتنكيل بالشعب العربي في الجزائر، ولما يفرضه من ميز عنصري في سياسة العباد وإدارة شؤون البلاد».

أما عن احتلال تونس فهو كما يقول: «١/١٥٠: «مأساة فظيعة أخرى، نكبة جديدة حلّت بالمغرب العربي بحلول شهر مايو من سنة ١٨٨١ حيث أجهز الاستعمار الفرنسي على الشعب التونسي، لكن الشعب التونسي لم يخلد إلى السكينة ولم يخضع للواقع المفروض والأوضاع الذليلة بل قاومها جميعًا وثار عليها كلها».

لقد أكد الأستاذ كرو بكتاباته المتنوعة انفتاحه على عالم الكتب وعلى عوالم الأدباء والشعراء قارئًا وباحثًا ومشاركًا، لم تصرفه الأحداث السياسية التي عرفها الوطن العربي

عن الكتابة والتأليف، ولم تصرفه الكتابة عن الانشغال بهموم الوطن العربي بل والمشاركة في الحركات التحررية التي كانت تندد بالاستعمار في تونس والمغرب والجزائر ومصر وسورية والعراق، فناضل كغيره من الشباب الثائر في واجهات متعددة أهمها توعية الشعوب العربية بأخطار الاستعمار وويلاته، داعيًا إلى الصمود والمقاومه، عاملاً على خدمة أمته وبلاده من المحيط إلى الخليج، معتزاً بمواقفه النضالية عبر مراحل حياته، مؤمنًا بانتصار الحرية والعدالة مهما طال الزمن، متحديًا بإرادة صلبة ما يقوم به المستعمر من استغلال للبلاد واستعباد للعباد إذ يرى بأن تغيير الواقع الفاسد هو أبرز محطة لبناء واقع سليم «ينبض بالحياة ويفيض بالخير والرفاه، ويحقق للمواطن العربي حريته وكرامته، ومستوى رفيعًا من الحياة السعيدة، في ظل دولة عربية واحدة» ٢٠٥/١.

لقد شكلت كتابات الأستاذ أبي القاسم محمد كرو في مجملها أنماطًا من فنون القول وألوانًا من الأجناس الأدبية فهي تتناول المقالة الوطنية والسياسية والاجتماعية وتراجم الأعلام المنسيين والمعروفين، وما سجله قلمه تعريفًا بمؤلفات أعجب بها فقدمها لقرائه إغراء لهم بقراءتها والاستفادة، منها، وما كتب عن مدن زارها وأعجب بها، وهي ذات بصمات متميزة في التاريخ الإسلامي إضافة إلى ما كتبه دفاعًا عن الثقافة العربية في عصر الاستبداد والطغيان إلى غيرها من الموضوعات. وبصفة عامة فالأستاذ كرو من الأعلام العرب والمغاربيين الذين ناضلوا بأقلامهم وكتاباتهم في سوح ممتدة من المحيط إلى الخليج بروح وطنية صادقة وحب دافئ يعطران الأجواء في كل مكان وزمان.

أما الأستاذ كرو الإنسان فلا يمكن للمرء إلا أن يحتفي به في وطنه وخارج وطنه، فهو ذو شخصية منفتحة على الآخر، يبدي استعدادًا لمعرفة كل من التقى به في ندوة علمية أو مؤتمر أدبي، اجتماعي بطبعه، متواضع في تعامله، أخلاقه دمثة وهمته عالية يفيدك بهدوء ويبدي النصح برفق، يبني علاقاته مع الآخر بسرعة كلما توسم فيه خيرًا ومروءة وعلمًا وإفادة فيقبل عليه بمرح وانشراح، ويسأل عنه إن بعدت المسافة كتابة أو مهاتفة، اسعدني الحظّ بالتعرف إليه في المغرب وفي تونس في ندوات علمية وأدبية فاستفدت من تجربته وعلمه وحرصت على مداومة الاتصال به كلما أتيحت الفرصة لذلك،

وكان لدماثة خلقه لا يبخل بالسؤال ولا بإهداء كتاب، ومن ثم كان تبادل إهداءات الكتب متصلاً بيننا مباشرة أو عن طريق البريد، خاصة وأنه صاحب مؤلفات أثارت نقاشات حادة أحيانًا ولقيت قبولاً طيبًا حينًا آخر، وقد عملت على تقديم بعض إنتاجه إلى القارئ المغربي في جريدة العلم المغربية، فلقيت استحسانًا عنده مما يؤكد تواضعه وحسن تشجيعه لكل كتابة اتفقت معه أو اختلفت، وهذا سلوك حضاري يُحِلّه مكانة متميزة في الأوساط الثقافية وغيرها، وبذلك يدعو إلى التعارف بطريق أو بآخر، وتكسير الفجوة بين الكتاب والمبدعين في المشرق أو المغرب.

كيف نجح الأستاذ كرو في اختراق المسافات مع مجايليه وأصدقائه وطلبته، كيف نجح في الحفاظ على علائقه الممتدة في كل قطر عربي؟ يصعب تحديد جواب لتعدد الأجوبة، فهو يجهد في ربط علاقاته مع أصناف عديدة من الباحثين والمثقفين. مع كبار السياسيين والزعماء مع الطلاب النجباء والصحفيين اللامعين، يحرص على الحفاظ عليها وعلى تمتينها في كل وقت، ومن ثم اكتسب عالمًا متميزًا من الأصدقاء المتعددي المشارب والمختلفي الانتماءات في وطنه تونس أو خارجه في أقطار عربية كثيرة منذ فترة الشباب الأولى وهو طالب بالعراق مرورًا بالمناصب الثقافية التي تقلدها إلى أن أحيل على التقاعد اليوم.

وخلاصة القول فالأستاذ كرو ممن التأم حوله شمل أصدقائه ومريديه، وطلبته ومحبيه، ومن ثم دعت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري في دولة الكويت إلى تكريمه والاحتفاء به، والحديث عن خصاله الخلقية وأعماله الأدبية، ولملمة ما سيخصُّ به من دراسات وشهادات في كتاب تكريمي يبعث الدفء في أوصال المحتفى به ويزيد تنويهًا بالمؤسسة وصاحبها وما له من أياد بيضاء على نشر الثقافة العربية، وتشجيع المثقفين في الوطن العربي على الكتابة والتأليف، فللمؤسسة خاص التقدير وجزيل الشكر، ولمؤسسها وراعيها الأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين المزيد من التوفيق والسداد في مشاريعه ومنجزاته، وأدام الله عليه نعمه ظاهرة وباطنه، لينتظم عقد جهوده قلادة في جبين المشروع الثقافي العربي من المحيط إلى الخليج.

****

لمحات عن العلامة:
«أبـو القاسـم محمـد كـرو»

أ. هلال ناجي(*)

(١)

ولد العلامة أبوالقاسم محمد كرو بمدينة «قَفْصَة» التونسية في الأول من تموز عام ١٩٢٤. وقَفْصَةالمدينة العربية الأصيلة الموغلة في أعماق «الجريد» التونسي، كانت ومنذ القديم موطن الشجعان المتمردين على السلطان.

قال ابن حوقل: قفصة مدينة حسنة ذات سور ونهر أطيب من ماء قسطيلية.. قال وأهلها وأهل قسطيلية والحمّة ونفطة وسماطة شُراة متمردون من طاعة السلطان.

ويقول ياقوت عنها: هي بلدة صغيرة في طرف أفريقية[١] من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام... يشتمل سورها على ينبوعين للماء؛ أحدهما يسمّى الطرميذ والآخر الماء الكبير، وخارجها عينان أخريان إحداهما تسمى المطويّة والأخرى بيّش، وعلى هذه العين عدة بساتين ذوات نخل وزيتون وتين وعنب وتفاح، وهي أكثر بلاد أفريقية فُستقًا ومنها يحمل إلى جميع نواحي إفريقية والأندلس وسجلماسة وبها تمر مثل بيض الحمام. وتميز القيروان بأنواع الفواكه.. وقد قسم ذلك الماء على البساتين بمكيال تُوزَنُ به مقادير شربها معمولة بحكمة لا يدركها الناظر لا يفضل الماء عنها ولا يعوزها، تشرب في كل خمسة عشر يومًا شربًا، وحولها أكثر من مائتي قصر عامرة آهلة تطرد حواليها المياه تعرف بقصور قفصة، ومن قصور قفصة مدينة طرّاق وهي مدينة حصينة أجنادُها أربابها لها سور من لبن عالٍ جدًا طول اللبنة عشرة أشباب، خرّبه يوسف بن عبدالمؤمن[٢] حتى ألحقه بالأرض لأن أهلها عصَوْا عليه مرارًا..[٣].

---

١ - أفريقية: الاسم القديم لتونس.

٢ - يوسف بن عبدالمؤمن: إمبراطور الموحدين.

٣ - معجم البلدان: ياقوت بن عبدالله الحموي - بتحقيق فردينان وستنفيلد - لايبزغ ١٨٦٩ ١٥١/٤ - ١٥٢.

(*) محقق وشاعر وباحث عراقي من مواليد القرنة عام ١٩٢٩م، انتخب رئيسًا لاتحاد الكتاب العراقيين عام ١٩٧٣، له العديد من الدواوين الشعرية والأعمال الإبداعية والمؤلفات تقارب المائة عمل إبداعي، فاز بالعديد من الجوائز. وكتب عنه وعن آثاره أكثر من (١٠٠) دراسة جمعت في كتاب تذكاري.

والعلماء في القرون الحديثة يؤكدون أثر البيئة الكبير في تكوين شخصية الفرد وسيرته، وحين يكون هذا الذي نحتفي به قد ولد ونشأ وترعرع وشبَّ عن الطوق حتى بلغ العشرين من سنيه حين غادر «قفصة»، ندرك على الفور واحدًا من أسرار ثوريته وتأبّيه وطموحه.

فموطنه موطن «الشُّراة» وهم من أشد الخوارج صلابة في التاريخ، كذلك فإن مسقط رأسه هذا ثار مرارًا على امبراطور المغرب السلطان يوسف بن عبدالمؤمن رافضًا السلطة المفروضة عليه من خارج تونس.

وبعد أربعة أعوام قضاها في الدراسة بالزيتونة في العاصمة تونس، نرى هذا الشاب الطموح الثائر يبحث عن بلد يستكمل فيه علومه، فيقصد مصر أولاً في بواكير عام ١٩٤٨ ثم ينتقل في أواخر العام ذاته إلى العراق في أول بعثة تونسية أرسلها مكتب المغرب العربي في القاهرة.

وإذ دخل هذا الشاب العربي المتمرد الطموح وطنه الثاني - العراق - وجد فيه ما يوافق هواه، فبغداد تغلي كالبركان، كانت هناك محاولة لربط العراق بعجلة الامبراطورية البريطانية بمعاهدة سميت معاهدة «بورتسموث»، استطاع الشعب العراقي بمظاهراته المتلاحقة وتضحياته الجمة وتكاتف الأحرار فيه، إسقاطها وإسقاط الوزارة التي جاءت بها[1] وكان قرار تقسيم فلسطين وما تبعه من أحداث وهزيمة الجيوش العربية وفضائح الأسلحة الفاسدة، وراء غليان شعبي عارم، لم تجد السلطة سبيلاً لكتمه إلا بإعلان الأحكام العرفية العسكرية وفتح أبواب السجون والمعتقلات، في تلك الظروف الرهيبة حين كانت هناك معارضة منظمة لها صحفها وأقلامها وشعراؤها وكتابها وخطباؤها وقادتها، في تلك الظروف الرهيبة، جاء هذا الثائر التونسي إلى بغداد، فاعتنقت في نفسه ثورتان، ثورة جرت في دمائه وحملها معه في أعماقه من «قفصة» المتمردة عبر التاريخ، وثورة جارفة تموج بها الساحة العراقية يعيشها ويحياها كل يوم، التحق بدار المعلمين العالية التي كان يدرس فيها جمهرة من أعلام الأدب والفكر ممن ظلَّت أسماؤهم أعلامًا مضيئة في تاريخنا الفكري المعاصر أمثال الدكاترة: مصطفى جواد ومحمد سليم النعيمي وطه الراوي وكمال إبراهيم وجميل سعيد وعبدالرزاق محيي الدين، بل إنها الكلية التي درَّس فيها علمان مصريان شامخان هما: زكي مبارك وأحمد حسن الزيات قبل ذلك بسنوات.

---

١ - هي وزارة صالح جبر التي اسقطتها وثبة كانون.

وبسبب من حدة ذهن صاحبنا ونشاطه الدؤوب وثوريته التي لا تعرف كللاً ولا مللاً، فقد شدَّته إلى جمهرة نابهة من شعراء الشباب القوميين الثائرين آنذاك صلات مودة وتآلف، بعد إذ ضمهم مسار فكري واحد يتلخص في إيمانهم بوحدة الأمة العربية وبوحدة الوطن العربي الكبير، وكان كاتب هذه السطور من بينهم.

ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن نشاطه لوحده - في ما كتب للصحف العراقية والعربية والإذاعات، وفي ما ألقى من محاضرات - خلال أربعة أعوام، كان بحق يوازي عمل سفارة للمغرب العربي الكبير في بغداد، بل يزيد عليها، يوم لم تكن لدول المغرب العربي سفارات في بغداد، إذ لم تكن قد نالت استقلالها بعد، فمن خلال ما كتب وأذاع وحاضر، كان يجلو الحقائق بذهنه الوقَّاد ويحشد المشاعر ويعبئ القوى لنصرة قضايا التحرير في المغرب العربي الكبير، وليطلع العراقيون وهم في أقصى المشرق على المآسي التي كانت تجري في المغرب العربي الكبير على يد جلاديه من المستعمرين الفرنسيين.

لقد نجح ثائرنا الشاب رغم طراوةِ عوده إلى عرض صور من تاريخ الكفاح القومي في المغرب العربي الكبير وكشف ألوانًا من الظلم والعسف والإرهاب والوحشية التي قام عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في جناح العروبة الأيسر - على حدّ تعبيره - وكانت محاضرته التاريخية الشهيرة المعنونة «ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي» والتي ألقاها في نادي البعث العربي ببغداد مساء الخميس الموافق العاشر من مايس ١٩٥١ من أخلد محاضراته عندنا[١].

وحين أعاد طبع الكتاب بعد خمسة أعوام في تونس، كانت الأوضاع السياسية في تونس ومراكش (المملكة المغربية) قد تغيرت ونالا استقلالهما، لكن الثورة الجزائرية كان قد بزغ فجرها في جبال الأوراس، فكان لثائرنا المحتفى به موقف جدير بالإشادة أكده في مقدمة الطبعة الثانية، إذ دعا إلى دعم ثورة الجزائر لأنها تشكل مع تونس ومراكش وحدة

١ - طبعت هذه المحاضرة في بغداد سنة ١٩٥١ ثم طبعت في كتاب مستقل في تونس في ماي ١٩٥٦.

تامة تاريخياً ودينياً وثقافياً واقتصادياً، «ومن هذه النظرة الواقعية للمستقبل والمصير وتلك العوامل القومية التي تجمع أقطار المغرب العربي كشعب واحد له تاريخ وآمال وأهداف ومصالح واحدة تتكون واجبات جسيمة ومسؤوليات كبرى، وأنه لا يجوز التفرج على حرب دموية يشنها الاستعمار على جزء من شعبنا العربي ليبيده وينفيه، فالتاريخ لن يرحمنا».

ولقد عبرت مقدمته للطبعة الثانية عن إيمانه العميق بحتمية انتصار الثورة في الجزائر واندحار الاستعمار.

إن هذا الحس القومي الصادق وهذه النظرة المستقبلية المتماثلة كانتا من ملامح شخصية أبي القاسم محمد كرو المتميزة.

وعاد ثائرنا إلى تونس بعد أن أمضى أربعة أعوام في العراق وعامين في ليبيا. عاد ليواصل نشاطه بشكل يثير الإعجاب والدهشة معًا، لقد أدرك بثاقب فكره أن أبرز الثغرات في نهضة المغرب العربي كائنة في عدم انتظام حركة النشر فيه، وأن نتاج أدبائه ومفكريه مجهول ومغمور، فعمد إلى النهوض بمشروع ضخم عُدّ أول مشروع من نوعه في المغرب العربي وهو إصدار سلسلة كتب بعنوان «كتاب البعث» وتحت شعار «فكر وحياة أفضل» صدر أول كتاب منها بقلمه وعنوانه «نداء للعمل» في أكتوبر ١٩٥٥، والكتاب في جوهره ضم محاضرتين أولاهما عن النوادي والجمعيات في العراق ألقاها في تونس العاصمة بإشراف جمعية قدماء الصادقيّة، وعنوان الثانية إمكانياتنا الاجتماعية ألقاها في بنزرت، وكلتا المحاضرتين ألقيتا في شباط ١٩٥٥.

أما المحاضرة الأولى فهي تلخيص لواقع النوادي والجمعيات في العراق الذي ارتسم في ذهنه خلال أيام دراسته الجامعية في العراق، وأما الثانية فقد عرض فيها لمخلفات الاستعمار وعرض للمشاكل التي تواجه التونسيين بعد الاستقلال وأبرزها معالجة مشكلة البطالة وتوزيع الأراضي على الفلاحين وتوطين البدو الرحل وتأميم الشركات الكبرى وكافة مصادر الثروة العامة وتعديل نظام الضرائب وإحياء الأرض وتعمير البادية في الوسط والجنوب التونسي ومعالجة مشكلة الأمية ومشكلة الطفولة والتشرد والعناية

بمشكلة التعليم وخاصة التعليم الثانوي، والدعوة الى تعريب البرامج التعليمية ومعالجة فساد الجهاز الإداري وغير ذلك. إن الذين تسلموا الحكم في تونس بعد إلغاء حكم «البايات» الوراثي، كانوا لا يؤمنون أساسًا بتعريب التعليم، وكانوا يؤمنون بالفرنكفونية وهي اتخاذ اللغة الفرنسية أداة علم وعمل في الدواوين وكل مؤسسات الدولة، وأما العربية فمكانها الشارع والمنزل، وكان بورقيبة الذي تولّى السلطة على رأس هؤلاء الفرنكفونيين، ومن هنا بدأت معاناة الداعين إلى تعريب التعليم في تونس.

السلطات الفرنسية من جهتها سعت إلى أن يكون لها وجود ثقافي ولغوي دائم في مستعمراتها السابقة، ولن يكون ذلك إلا بإبقاء لغتها لغة علم في المدارس والجامعات ولغة عمل في الدواوين والمؤسسات الحكومية، ومن أجل ذلك سنّت تشريعات من بينها اعتبار الخدمة التعليمية للغة الفرنسية التي يقوم بها فرنسي في تونس لمدة عامين مجزية عن الخدمة العسكرية في وطنه، وهكذا بقي عشرات الآلاف من الفرنسيين في تونس بعد الاستقلال وكانت مهمتهم تدريس اللغة الفرنسية، وظلت هذه اللغة مسيطرة على الأوساط الجامعية في تونس عقودًا بعد ذلك.

إن دعوة العلامة أبوالقاسم محمد كرو إلى تعريب التعليم في تونس حفرت خندقًا بينه وبين ذوي الأمر في تونس منذ ذلك التاريخ.

إن دعوة أبي القاسم إلى تعريب التعليم في تونس والتي أطلقها في بنزرت في (فيفري شباط ١٩٥٥) بشكل بالغ الاختصار والتركيز، عاد إلى توضيحها في محاضرة ألقيت في صفاقس في (أيلول – سبتمبر ١٩٥٥) واستعيدت في بنزرت في شمالي تونس في الشهر ذاته، ثم نشرها في كراس عنوانه «التعليم التونسي بين الحاضر والمستقبل». وفي مقدمة هذا الكراس جاهر بالقول: «بأن السير في تيار الآراء والبرامج الفرنسية خطر على شعبنا وعلى مثله العليا في الحياة، وعلى كيانه وشخصيته. ودعا إلى تعريب التعليم بمراحله الثلاث: الابتدائي والثانوي والعالي. وإعطاء اللغات الأجنبية مكانة ثانوية في البرامج بعد اللغة القومية، أي أن تكون لغات إضافية يستكمل بها الطالب عناصر ثقافته، وتساعد على مواصلة تعليمه العالي في أوربا، أما جميع مواد الدراسة فيجب أن تكون باللغة العربية».

وعالج في بحثه مشاكل تعريب التعليم بأسلوب موفق من حيث المدرسين والكتب والمصطلحات، وانتهى إلى الدعوة بتأسيس الجامعة التونسية، وبإمكانية ذلك في العام الموالي عن طريق دمج المعاهد العليا القائمة آنذاك ودمج كلية الفلاحة العليا معها. لقد كانت تلك الدعوة القومية في ذلك الوقت المبكر شيئًا خطيرًا يثير الوجود الثقافي الفرنسي في تونس ويؤرقه. وكان أيتام الثقافة الفرنسية أشد الناس عداءً لهذه الدعوة ولصاحبها.

☆☆☆☆

وأعود للحديث عن سلسلة (كتاب البعث)، فأقول إن هذه السلسلة واصلت الصدور بمعدل عشرة كتب في العام الواحد حتى دخلت عامها الرابع.. وقد أسهم فيها كبار الكتّاب التونسيين والمغاربة والجزائريين والكاتب المصري المهاجر أحمد زكي أبو شادي (مؤسس جماعة أبوللو) بمصر، ونزيهة الدليمي الكاتبة العراقية. ومواصلة صدور هذه السلسلة في الظروف التي أحاطتها كان يمثل عملاً ثقافيّاً ضخمًا هدفه بعث الثقافة العربية في المغرب العربي، وإذكاء عروبة الجماهير وشدها إلى روح حضارتها وقيم العصر مع الاعتزاز بالتراث العربي الخالد.

وفي هذه الأعوام كانت لأبي القاسم وقفات عند أربعة من أعلام تونس عبر التاريخ: ابن خلدون – الشابي – الطاهر الحداد – خير الدين التونسي.

«خلدون» الابن الثاني لأبي القاسم محمد كرو. وهذه التسمية تعكس مدى حب علامتنا لابن خلدون وإكباره له ولما قدمه لأمته والفكر العربي والعالمي بعامة، وهو يجاري في هذا صنيع المرحوم المفكر القومي الكبير ساطع الحصري. الذي سمى ابنه «خلدونًا» والذي أنصف ابن خلدون من أمته ومن التاريخ، في كتابه الرائد «دراسات عن مقدمة ابن خلدون».

وأبوالقاسم صنف كتابه «العرب وابن خلدون» ونشره عام ١٩٥٦ وأهداه إلى الأستاذ ساطع الحصري، منصف ابن خلدون. ثم أعاد طبعه ثانية في بيروت سنة ١٩٧١ وثالثة في تونس سلسلة ١٩٧٧ بعد أن ألحق بالطبعتين الأخيرتين ثلاثة فصول تناولت ثلاثة كتب خصّت ابن خلدون مما صدر بعد الطبعة الأولى.

حدّد أبوالقاسم دوافعه إلى كتابة كتابه هذا، بأن في مقدمتها رغبته في رفع الظلم عن مظلوم ظلمه أعلام أمته قبل غيرها نتيجة الخطأ في فهم تعابيره ومدلول بعض الكلمات في زمنه. ومن دوافعه تألمه البالغ من أقوال «سامي شوكة»[1] في جمهور حاشد ببغداد دعا فيه إلى نبش قبر ابن زيدون وحرق «مؤلفاته!!» وثالثها محاولته ردّ تهمة تتناول تاريخ المغرب العربي كله باتهام البربر بالشعوبية وأن ابن خلدون نشأ بينهم متأثرًا بهذه الأفكار!!

وجوهر الكتاب هو تصويب الخطأ الذي وقع فيه كتاب عرب كثيرون حين فهموا أن كلمة عرب التي استخدمها ابن خلدون في (مقدمته) تعني الأمة العربية، على حين أنه وبقرائن كثيرة كان يعني الأعراب سكان البوادي، وكلمة (التوحش) التي استعملها بمعنى (التبدّي) أو الإيغال في التبدّي وظنها الطاعنون فيه أنها تعني (الوحشية).

لقد ناقش ابو القاسم المطاعن التي وجهها طه حسين وسامي الكيالي وأحمد أمين وسلامة موسى وغيرهم إلى ابن خلدون نقاشًا مفصلاً ودحض غالبية التهم التي وجهوها، وقد كان موفقًا في ذلك غاية التوفيق.

ولي ملاحظات تدعم وجهة نظر أبي القاسم:

أولها: أن ابن خلدون استخدم كلمة (عرب) وهو يقصد (الأعراب البُداة) وأضاف إليهم أمثالهم من بدو المغرب من قبائل زناتة وصنهاجة ومن في معناهم (أي من كانوا بدوًا مثلهم) من الأكراد والتركمان، فالأعراب وبدو المغرب وبداة الأكراد والتركمان كلهم أقدر على التغلب والاستبداد واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم، (فهم) ليس لهم وطن يرتزقون منه ولا بلد يجنحون إليه فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء...»

١ - وللأمانة التاريخية اقول إن (سامي شوكة) هذا من اسرة غير عربية توطنت في العراق، ومع ذلك حاول ان يتزعم حركة الشباب القومي فيه، حتى قال شاعر عراقي فيه:

قل للاكارم من مَعَدٍّ — شيخ العروبة «كولندي»

وكولند مدينة آسيوية.

ابن خلدون دونما شك كان يتكلم عن البدو من العرب والبربر والأكراد والتركمان، ولم يكن يعني بلفظة (عرب) الأمة العربية إطلاقًا، بل (الأعراب) الذين وصفهم الله تعالى بقوله في محكم كتابه: «الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله»، يؤكد ما ذكرناه قول ابن خلدون في مقدمته (وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهابٍ وعبث ينتهبون ما قدروا عليه.. ويفرون إلى منتجعهم بالقفر).

ومعلوم لغةً أن المنتجع هو مكان النجعة أي المكان الذي تسرح فيه إبلهم، والقفر تعني البادية، ولا يمكن أن تعني المصر أو المدينة أو حتى الريف.

وثانيها: أن ابن خلدون على الرغم مما ذكره من صفات هؤلاء (الأعراب) وإدانته لها، عاد في مقدمته فأنصفهم بقوله نصّاً «وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات، فإن كل مولود يولد على الفطرة»[1] فهل رأيت إنصافًا لهؤلاء (الأعراب) البداة أصدق وأجمل من هذا الإنصاف الذي أسبغه عليهم ابن خلدون في تجرد العالم ونزاهة أعلام القضاة؟!

وثالثها: أن لفظة (التوحش) التي وصف بها ابن خلدون (الأعراب) لا تعني الوحشية والتجرد من الإنسانية بمعناها المعاصر عندنا. إنه استخدمها مرادفة للتَّبدِّي أي الإيغال في البداوة، فالذين ألفوا الفلوات والعيش فيها والتنقل في أجوازها تغدو (الوحشة) من الإنس جزءًا من طباعهم، وإلى هذا أشار الحطيئة يصف أعرابيّاً جوادًا صاحب صيد ألوفًا للفلوات[2]:

وطاوي ثلاثٍ، عاصبِ البَطْنِ، مُرْمِلٍ
ببيداء لم يَعْرفْ بها ساكنٌ رَسْما
أخي جَفْوَةٍ، فيه من الإنس وَحْشَةٌ
يرى البُؤسَ فيها، من شراسَتِه نُعْمَى

١ – مقدمة ابن خلدون – المكتبة التجارية الكبرى بمصر ص ١٥١.

٢ – ديوان الحطيئة – تحقيق نعمان امين طه – مصر ١٩٥٨ – ص ٣٩٦ – ٣٩٧.

تفــــرد في شــــعبٍ عــــجــــوزًا إزاءها
ثلاثةُ أشــبــاحٍ تخــالُهمُ بَهْــمــا
حــفــاةٌ، عــراةٌ، مــا اغــتــذوا خــبــز مَلَّةٍ
ولا عــرفــوا للبُــرِّ مــذ خُلقــوا طعــمــا

يقال: أرض وَحْشَةٌ أي قفر، وتوحَّش المكان: خلا وذهب عنه الناس، وبات وحَشْاً وَوَحِشًا أي جائعًا لم يأكل شيئًا فخلا جوفه والوحش والموحش: الجائع من الناس لخلوِّه من الطعام. وتوحَّش جوفُه: أي خلا من الطعام. ويقال للجائع الخالي البطن: قد توحَّش الوَحشَةُ: الخلوةُ والهمُّ[1].

فالتوحش الذي وصف ابن خلدون به الأعراب، هو العيش في الأرض الوحشة أي في البوادي والقفار بعيدًا عن الإنس والأمصار والحواضر، وكثيرًا ما يكون هذا التوحش مرافقًا لخلو البطن، فالتوحش عند ابن خلدون هو التبدي والعيش في الفلوات بعيدًا عن الأمصار، هذا لا يكون إلا للأعراب البدو.

ورابعها: إن لفظة (عرب) تطورٌ معناها عبر الزمن، ففي عراقنا العربي ومنذ قرون تطلق هذه الكلمة في استعمالنا اليومي بمعنى سكان الريف والبادية.

ومعروف أن العراق زاخر بالقبائل العربية التي ما تزال – حتى اليوم – تحمل أسماءها الجاهلية القديمة، فعندنا: الأوس والخزرج وربيعة وطيء وكعب وخفاجة وكِلاب وزبيد وقيس وحِمْير وأسد وتميم وباهلة وخزاعة وشيبان وغيرها كثير.

فكل هؤلاء وسواهم وأبناء المدن عندنا يستعملون كلمة (عرب) بمعنى سكان الريف والبادية وعندما أقول: ذهبت إلى (العرب) فإنما أعني أنني ذهبت إلى الريف أو البادية أو جئت منها، فإذا كان الأمر كذلك في تطوّر معاني الكلمات. فلماذا ننكر على ابن خلدون استخدامه في زمنه كلمة (عرب) وهو يقصد الأعراب سكان البوادي؟! ولماذا نصمه

1 – ينظر لسان العرب مادة (وحش).

بالشعوبية وهو يصف حتى (الأعراب) بسلامة الطباع وبراعتها مذ ذميم الأخلاق وأنهم أسرع الناس قبولاً للحق؟! وثمة ملاحظات جانبية وددتُ الإشارة إليها استكمالاً لعمل العلامة ابي القاسم، والخصها في الآتي:

١ – إن كتاب «نقد النثر» الذي حققه ونشره طه حسين وعبدالحميد العبادي منسوبًا إلى قدامة بن جعفر، قد ثبت علمياً أنه ليس لقدامة، فاسم الكتاب الحقيقي «البرهان في وجوه البيان» ومصنفه أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب من رجال القرن الرابع الهجري، وقد نشر كاملاً في بغداد سنة ١٩٦٧ بتحقيق الدكتورين أحمد مطلوب وخديجة الحديثي بعد الظفر بنسخة كاملة منه، فيستحسن الرجوع إلى النص الكامل الجديد وتصحيح اسمه وتسميته في الطبعة القابلة.

٢ – رأيت الأخ العلامة يثبت نُقولاً من أقوال الثعالبي في فقه اللغة وابن الأثير في «المثل السائر» بالرجوع إلى كتاب المرحوم ساطع الحصري «دراسات عن مقدمة ابن خلدون» وكان الأوثق علميّاً الرجوع إلى هذه النقول في مظانها الأصلية وهي مظان مطبوعة ومعروفة.

وهذه كما قلت ملاحظات جانبية، لا تؤثر في جوهر كتابه الذي أتحف به المكتبة العربية وكشف غاشية الظلم عن عالم جليل هو من الأعلام الراسخين في تاريخ أمتنا وبعد: فما زلت أذكر – أنني في أيام جاهليتي في شبابي – التقيت بشابة فرنسية قادمة من بياريتز – في جنوب فرنسا – وضمنا مقصف من مقاصف لندن، كانت الشابة الفرنسية عميقة الثقافة، من النوع العقلاني الذي يستجيب لعقل الرجل قبل مظهره فسألتني عن قمم الفكر في قومي، فذكرتهم لها وكان من بينهم – ابن خلدون – وفصلت القول في إبداعاتهم وعبقرياتهم، فأعجبها الحديث عن هؤلاء العمالقة وكانت ليلة لا تنسى، وقد سجلت ذلك في ديواني «مرفأ الذكريات» إذ قلت من قصيدة عنوانها «نيكول كستان»:

ومضينا لمشربٍ وغرقنا
في حديثٍ عن موطنِ الأحباب
سألتني عن قمة الفكر في قوْ
مِي ذكرتُ الكنديَّ والفارابي

والغزاليّ والرئيسَ ابْنَ سِينا
وابنَ خلدون كوكب الأعراب
والمعري الذي تحدث جَهْرًا
قبل دانتي عن ثورة الأقطاب
في جحيمٍ مُعَفَّرٍ بلهيبٍ
ونَعِيمٍ مزخرفِ الأكواب
فتراءَتْ جَذْلى وذابتْ يداها
بين كَفَّي كنفْحَةِ الأطياب

✡✡✡✡

حَدِّثيني يا حلوتي حدثيني
عن عيون الاشعار عن الفرنجَةْ
حدثيني فَحدَّثتْ عن «دوفيني»
رَدَّدَتْ شعرَه باعذبِ لَهْجَه
ترجمي لي يا حلوتي ترجمي لي
وغرقنا ما بين كاسٍ وبهجه
ولحونٍ منغَماتٍ وَجَوٍّ
شاعريٍّ يثيرُ في الصَّخرِ مُهْجَه

✡✡✡✡

ويبقى بعد هذا تعقيب موجز على ما ذكره «برنارد لويس» أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط في جامعة لندن في كتابه «العرب في التاريخ» إذ قال: «وأصل كلمة «عربي» ما يزال غامضًا على الرغم من أن علماء اللغة قد قدموا تفسيرات تختلف جودة وقبولاً.. حتى قال: والاشتقاق العربي المأثور الذي يشتق الاسم من فعل (أعرب) ومعناه: أبان وأفصح يكاد يكون بالضبط قلبًا للتطور التاريخي»[1] وأقول: إن بعض اللغويين أرجع كلمة عرب إلى يعرب جد القحطانية، وبعضهم قال إنها مشتقة من وادي عربة في تهامة.

---

١ - العرب وابن خلدون ص ٣٨ - ٣٩.

واذكر أنني قرأت رأيًا في تفسير هذه الكلمة، ملخصه: أنها منحوتة من لفظتي (على الربْ)، لأنهم كانوا بدوًا يعتمدون في عيشهم على الله منزل الغيث. وفسر لفظة (عجم) بأنها مشتقة من لفظتي (على الجمّ) أي على الماء، أي يعتمدون في عيشهم على مياه الأرض، وهذا التفسير على كل حالٍ موضع نظر. وتعقيب آخر حول ما قاله برنارد لويس أيضًا ونصه[1]: وقد «ولد استعمال جديد تحت تأثير الغرب، وأصبح في السنوات الخمسين الأخيرة يتزايد أهمية، وهو الاستعمال الذي يعتبر الشعوب الناطقة بالعربية «أمة» أو مجموعة من الأمم الشقيقة بالمفهوم الأوروبي، توحدها بلاد مشتركة ولغة مشتركة وثقافة مشتركة وتشوق مشترك إلى الاستقلال السياسي».

يقول هلال بن ناجي: إن هذا الكلام مردود، ذلك إن استعمال كلمة (أمة) للعرب، ليست استعمالا جديدًا وجد تحت تأثير الغرب!! فالقرآن الكريم استعمل هذه اللغة عشرات المرات وصفًا لأمة العرب: قال تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»[2] وقال جلّ من قائل: «وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»[3]، وقوله تعالى: «كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك»[4]، ونعتقد أن المعني (بأمة) في كل الآيات الكريمات السابقات هي أمة العرب وليس غيرها.

☆☆☆☆

أبو القاسم وطه حسين

إن موقف طه حسين المنتقص من علم ابن خلدون وقدره وشخصيته، ترك أثرًا سيئًا في نفس أبي القاسم، وحدث أن زار عميد الأدب العربي تونس بدعوة من حكومتها للإشراف على امتحانات «دار المعلمين العليا» وقد ألقى بعض المحاضرات والأحاديث،

---

١ - العرب وابن خلدون ص ٤٠.
٢ - الآية رقم ١١٠من سورة آل عمران.
٣ - الآية رقم ١٤٣من سورة البقرة.
٤ - الآية رقم ٣٠من سورة الرعد.

وكان التونسيون والجزائريون يعتقدون أن الدكتور طه حسين سيتعرض في محاضراته لمأساة الجزائر وما يعانيه شعبها على يد الفرنسيين من إبادة وتشريد، ولكن الدكتور صمت! فاستنكروا سكوته، وضجَّت الصحف التونسية بالتنديد بموقف عميد الأدب العربي، وقد أثار هذا الموقف المتخاذل اللامبالي الأديبَ المغربي محمد الصباغ، فكتب كلمة قاسية عنوانها - قف عن الحديث - وقد اغتنم أبوالقاسم هذه الفرصة ليثأر لابن خلدون في شخص العميد طه حسين فنشر هذه المقالة ومجموعة مقالات ثائرة غنت لأقطار المغرب العربي أيام محنته وثوراته كتبها الأديب محمد الصباغ ونشرها في سلسلة البعث بعنوان - شلال الأسود -، وما من شك أن هذا الكتاب وموقف الصحف التونسية آنذاك كان من أقسى ما واجهه طه حسين في حياته، افتتحه بقوله: قف عن الحديث أيها العميد فالقول منك رماد وتبن، قف عن الحديث! أقولها لك بعويل آلاف الأيتام وصراخ آلاف الثكالى، ومحراث النار يشق حنجرتي في أرض الجزائر، المفروشة بالموت والرهبة والجزع والهلع... لعل جملة واحدة كنت توجهها إلى إخوانك الجزائريين الملهوفين، أولئك الذين أتوا إلى منبرك لتكون بلسمًا لجراحهم العميقة، وتعزية في مصائبهم الجريحة، ولكنك أسفًا أحجمت، ولست أدري، أهو الجبن، أم لأمرٍ أنت تعلمه!

موقف أبي القاسم من ثورة الجزائر:

لعل واحدًا من أروع المواقف القومية التي اتسم بها تاريخ أبي القاسم السياسي هو وقوفه بصلابة إلى جانب ثورة الشعب العربي في الجزائر فأصدر كتابه «صوت الجزائر» في ديسمبر - كانون الأول - ١٩٥٦، وعُدَّ إسهامًا في الذكرى الثانية لاندلاع ثورة التحرير الجزائرية، وصدرت منه طبعة ثانية بعد عامين من ذلك، وكان الكتاب في جوهره صورة مصغرة لبعض جوانب الثورة وحقائقها، اقتبسها أبوالقاسم من مراجع متعددة، أبرزها بلاغات جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وكان هدفه من ذلك: إيصال صوت الثورة الجزائرية إلى كل مكان، والدعوة إلى مساندتها قولاً وعملاً، وإيضاح كثير من حقائقها التي حاول الاستعمار تشويهها، وتسجيل بعض خطوات تلك الثورة الخالدة، وعرض أبوالقاسم نماذج من وحشية المستعمرين وجرائمهم ضد الآمنين من أهل الجزائر، وما يقابلها من مواقف الرجولة والشرف التي وقفها المجاهدون الجزائريون وقيادتهم، وكان أبوالقاسم شديد الإيمان بحتمية انتصار الثورة الجزائرية على الاستعمار، وهكذا كان.

أبوالقاسم محمد كرو وأبوالقاسم الشابي:

لم يحظ شاعر عربي في القرن العشرين بعناية مفرطة من عالم جليل كما حظي الشابي بعناية أبي القاسم محمد كرو، ولم يتفرغ كاتب وأديب عربي لأبي القاسم الشابي كما تفرغ أبوالقاسم محمد كرو له.

كانت تشد صاحبنا إلى الشابي وشائج تاريخية وعاطفية غير منظورة وأحسب أن في مقدمتها انتماؤهما معًا إلى بلاد الجنوب التونسي، وثورية الشابي التي عرف بها منذ صباه الباكر، ونبوغهما المبكر معًا.

فَعلاَّمتنا صنف كتابه الأول عن الشابي وعنوانه «الشابي: حياته وشعره» سنة ١٩٥٠، ولما يزل بعد طالبًا لم يستكمل دراسته في الجامعة العراقية، ثم طبعه عام ١٩٥٢، وكانت له طبعة ثانية في بيروت سنة ١٩٥٤، ثم طبعه طبعة ثالثة في بيروت سنة ١٩٦٠، فأبوالقاسم كان يرى «الشابي نسيجًا من العبقرية وحده، مجددًا بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ ومفاهيم...، بل زعيمًا جريئًا بين المجددين..».

تناول علامتنا حياة الشاعر بتفصيل دقيق جزم فيه بأنه ولد في ربيع عام ١٩٠٩م بالشابية إحدى ضواحي مدينة توزر التونسية في بيئة ساحرة الطبيعة، وجلا الوهم الذي علق بنوع مرضه فهو لم يمت بالسلّ بل بضيق أنين القلب، معززًا ذلك بالوثائق الرسمية، وتحدّث عن تأثير شخصية الأب - الذي كان قاضيًا - على تفكير ابنه ونفسيته ثم أثر وفاة أبيه عليه. وأن آلام الاستعمار وآلام الركود والاستسلام وآلام جسده تعاورت عليه ودفعته إلى نهايته المحتومة دون أن يتم السادسة والعشرين من عمره. ثم عقد فصلاً للأدب المهجري وأثره في شاعرية الشابي، وهو رأي خالفه فيه عميد (مدرسة أبوللو) الشاعر المصري الكبير أحمد زكي أبو شادي، الذي رأى أن الشابي تأثر بشعراء المشرق وبشعراء (مدرسة أبوللو) بوجه خاص وبدواوين رائدها أبي شادي قبل كل شيء[1]، وأضاف علاّمتنا عوامل أخرى تأثر بها الشابي هي: الأدب الغربي المترجم - لأنه لم يكن يحسن لغة أجنبية - وأسلوب طه

١ - انظر نص كلمة ابي شادي في مجلة الأديب اللبنانية عدد اغسطس ١٩٥٣، واعاد نشرها الأستاذ (كرو) في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «الشابي: حياته وشعره» (ص ١٨ - ٢٥).

حسين وتفكيره – والأدب العربي القديم – وأكد أن شاعرية الشابي تنماز بصدق في التعبير ودقة في التصوير، لكنه ارتفع بشعره عن الأغراض الصغيرة والشؤون العابرة. حتى قال: «إن الشاعر حين نكب بوفاة والده، وكان لديه أعز شيء في الوجود لم يستطع أن يرثيه بشيء مما اصطلح عليه في عالم الأدب بشعر الرثاء»[1] يقول هلال بن ناجي: إن قدرات الشعراء تختلف باختلاف الأغراض الشعرية، فهنالك من يحسن الوصف ولا يحسن الرثاء، وهناك من يحسن القول في فنون شعرية كثيرة ولكنه لا يحسن الهجاء، ومن النادر جدًا أن نجد شاعرًا يحسن القول في كل اغراض الشعر. وعندنا مثل عايشناه فقد كان السيّاب شاعرًا موهوبًا وشاءت الصدف أن يخاصم شاعرًا موصليّاً هو المرحوم «حازم سعيد»، فاستطاع حازم أن يهزم بدرًا السياب ويبكيه، بما يملكه من قدرة في الهجاء ورسم الصورة الساخرة، واضطر بدر أن يذل ويقرّ بالهزيمة.

ومثله حصل للشاعر الكبير «نزار القباني» فنزار شاعر المرأة دون منازع لكنه لا يحسن الهجو، وحين اختصم مع أحد شعراء عصره هجاه الأخير بقصيدة ساخرة جعلته يسيخ في الأرض، وعجز عن الردّ عليه.

الشعراء إذن يختلفون في قدراتهم باختلاف الأغراض الشعرية، والذي يبدو لنا أن الشابي كان لا يحسن الرثاء رغم قدراته الفنية العالية.

ورأى أبوالقاسم أن الشابي تزوج ولم يكن موفقًا في حياته الزوجية، إذ لم يجد في زوجته تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في أشعاره ويتغنى بها في قصائده، لذلك لم يلبث أن وقع في شراك حب عنيف.. حيث رتل (صلواته في هيكل الحب)...[2].

وصديق الشابي ورفيقه محمد الحليوي يؤكد أن الموصوفة في قصيدة (صلوات في هيكل الحب) هي سائحة أجنبية كانت تلتقط الصور في أرياف تونس، لم تربطها بالشاعر أية صلة.

---

١ – الشابي: حياته وشعره – ط الثالثة ص ١٠٨.

٢ – نفس المصدر ص ١١٢.

ويقول هلال بن ناجي عن تجربة حقيقية: إن قصائد الحب الحقيقي هي في الأعم الأغلب وليدة الحرمان، فإذا نال الشاعر ما اشتهى انصرف عن التغني بمحبوبه، وقصيدة (صلوات في هيكل الحب) وليدة الحرمان، ولو أن الشاعر نال من المصورة الأجنبية ما اشتهاه، لعزف عن كتابة رائعته هذه.

ثم عرض لمؤلفات الشابي فذكر عشرة منها، وقد طُبع من هذه المؤلفات كتابان: الخيال الشعري عند العرب، طبع أول مرة في تونس سنة ١٩٢٩.

ويقول هلال بن ناجي: إن هذا الكتاب قد أعيد طبعه من قبل الشركة القومية للنشر والتوزيع في تونس سنة ١٩٦١، والكتاب في جوهره دراسة نقدية مقارنة بين الخيال الشعري عند العرب وعند الأوروبيين، انتهى فيه الى تفضيل خيال الغربيين.

وأما الكتاب الثاني فهو ديوان شعره «أغاني الحياة» وقد طُبع في مصر سنة ١٩٥٥ ووجّه أبوالقاسم نقدًا مرّاً لهذه الطبعة الشوهاء الناقصة.. وكان محقّاً في ذلك للأسباب المفصلة التي ذكرها.

ويمكن أن نضيف إلى هذين الكتابين كتاب صدر بعنوان «رسائل الشابي» ضمَّ الرسائل المتبادلة بين الشابي وصديقه محمد الحليوي، وأضاف محمد الحليوي إليه الرسائل المتبادلة بينه وبني محمد البشروش، وقد طُبع هذا الكتاب في جانفي ١٩٦٦ على نفقة أبي القاسم محمد كرو ضمن منشورات دار المغرب العربي في تونس.

لقد كان أبوالقاسم يؤكد في أكثر من موضع أن تمجيد الشابي لا يتم إلا بنشر مؤلفاته المخطوطة المتناثرة بين الناس.

وقد ختم العلاّمة أبوالقاسم كتابه عن الشابي بمختارات مبوبة من ديوانه «أغاني الحياة» ثم بنماذج من نثره.

يقول هلال بن ناجي: أن كتاب «الشابي: حياته وشعره» سدّ فراغًا في موضوعه، وجلا حقائق مهمة، غير إني وجدت الأخ العلاّمة يقتبس بتصرف[1] كلامًا للمرحوم عثمان

---

١ - الطبعة الثالثة ص ٢٣ - ٢٤.

الكعاك نشره في مجلة المباحث التونسية، ذكر فيه أعلام تونس عبر التاريخ وفيه أوهام عدة منها قوله: (أما... ابن خلدون فهو أول من وضع علم التدريس وخصّه بالتأليف، أما الملك المعز بن باديس فهو أول من ألفّ في فن الخطوط وأنواعها وصناعة الرق والورق والتجليد وأما.. إبراهيم الرقيق القيرواني (فهو) من عظماء المؤلفين في فن الموسيقى في تاريخ الثقافة العربية).

والذي نعرفه أن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، ولا نعرف أنه أول من صنف في علم التدريس، ولم يصنف المعز بن باديس كتابًا في الخطوط وأنواعها وصناعة الورق والرق والتجليد. وإنما هو مما صُنِّفَ برسمه. وهذا الكتاب قد طُبع بتحقيق الدكتور عبدالستار الحلوجي وعلي عبدالمحسن زكي وعنوانه «عمدة الكتَّاب وعدة ذوي الألباب» ونشر في مجلة معهد المخطوطات العربية - الجزء الأول - المجلد السابع عشر - مايو ١٩٧١ ص ٤٣ - ١٧٢. وأما الرقيق القيرواني - الذي كان حيّاً سنة ٤٢٣هـ حسبما تحقق لنا ذلك في مخطوطة باريس من كتاب قطب السرور - فلم يُصَنِّف في فن الموسيقى مطلقًا. لقد كان الرجل مؤرخًا من كبار المؤرخين في زمنه، فهو صاحب كتاب تاريخ إفريقية والمغرب في عشر مجلدات، وقد نشر قطعة بقيت منه «المنجي الكعبي» في تونس سنة ١٩٦٨، ومن مصنفاته المفقودة أخبار بني زيري الصنهاجيين، ونظم السلوك في مسامرة الملوك، والراح والارتياح، والأغاني نحا فيه نحو أبي الفرج الأصفهاني، والنساء، والمتيّمين، والاختصار البارع في التاريخ الجامع، وكلها مفقودة.

ووصلنا من مصنفاته كتاب ضخم عنوانه «قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور»، نشر أحمد الجندي الجزء الثاني منه في دمشق - ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية فيها، وما زال جزؤه الأول غير منشور، وكانت نشرة الجندي غير علمية لاعتمادها مخطوطة المتحف البريطاني وحدها، رغم وجود مخطوطات عدة للكتاب ذكرها بروكلمان، فالرقيق القيرواني لم يصنف في فن الموسيقى كما توهم الكعاك رحمه الله، فهذه أوهام تقضي أمانة العلم بعدم الأخذ بها.

ثم أصدر العلامة أبوالقاسم كتابه الثاني عن الشابي وعنوانه «كفاح الشابي»، وقد طُبع الكتاب ثلاث طبعات أولاها في بيروت سنة ١٩٥٤ والثانية في تونس سنة ١٩٥٧ والثالثة في بيروت سنة ١٩٦٠، والمؤلف في المقدمة يصرح إنه أحب الشابي كأقوى ما يكون الحب، ولذلك اعتبره أعظم شاعر أنجبته الأمة العربية في عصرها الحديث(١).

يقول هلال بن ناجي: إن الاتجاه الرومانسي الذي ضم الشابي في تياره، هو المفسّر لكثير من قصائده، وأن رومانسية الشابي كانت رومانسية ثورية، فالشاعر الرومانسي يتصف شعره بعدم الرضا عن الواقع والثورة عليه، قال الشابي:

وبقيتُ في وادي الزما
ن الجهم أداب في المسيرْ
وأدوس أشواك الحيا
ة بقلبِيَ الدامي الكسير
وأرى الأباطيل الكثيـ
ـرةَ والمآثمَ والشُّرور
وتصادمَ الأهواء بالـ
أهواء في كلٍّ الأمور
ومذلّةَ الحقِّ الضعيـ
ـفِ وعزَّةَ الظُّلمِ القدير

وقوله:

انتَ يا كاهنَ الظلام حياةٌ
تعبدُ الموتَ، انتَ روحٌ شقيٌّ
كافرٌ بالحياةِ والنورِ لا يصغـ
ـي إلى الكون قلبُهُ الحجريُّ

١ - الطبعة الثالثة ص ١٩ من كتاب «كفاح الشابي».

انتَ دنيا يظلُّها افُقُ الما
ضي وليلُ الكآبة الأبديُّ
والشقيُّ الشقيُّ في الأرضِ شعبٌ
يومُهُ مَيِّتٌ وماضيهِ حيُّ

وقوله:

لو كان هذا الكونُ في قَبْضَتي
ألقيتُه في النار: نارِ الجحيم
ما هذه الدنيا وهذا الورَى
وذلك الأفْقُ وتلك النجوم
النار أولَى بعبيد الأسى
ومسرحِ الموتِ وعُشُّ الهموم

كما يتصف شعر الشاعر الرومانسي بالشعور العميق بالوحدة[1] والسعي للهروب من الحياة: قال الشابي:

ليت لي أن أعيش في هذه الدُّنْـ
ـيا بعيدًا بوحدتي وانفرادي

وقال:

وتغشَّى الضبابُ نفسي فصاحتْ
في مَلالٍ مُرٍّ إلى اين امشي
قلتُ: سيري مع الحياة، فقالتْ:
ما جنينا تُرى من السَّير امس؟
فَتَهافتُ كالهشيم على الأرْ
ضِ وناديتُ: اين يا قلبُ رفْشِي

١ – خير مثل على هذه الوحدة والغربة ما كتبه في يومياته بتاريخ ١٩٣٠/١/٧، انظر كفاح الشابي ص ٧٠.

هـاتِـةِ، عـلِّـنِـي اخُـطُّ ضــــريـحــي
فـي سكـون الـدُّجـى وادفـنُ نـفـــسـي

✡✡✡✡

ثـم مــــاذا؟ هـذا انـا صـــرت فـي الدنـ
يـا بـعـــيـــدًا عـن لـهـــوهـا وغـنـاهـا.
فــي ظـــلامِ الـــفَـــنـــاء ادفُـــنُ ايّـــا
مِي ولا اســــتـطـيـعُ حـــتـى بـكـاهـا
وزهـورُ الـحـــيـــاةِ تـهـــوي بـصَـــمْـتٍ
مـــحـــزنٍ مُـــضْـنْـــجـــرٍ عـلى قـــدمـــيَّـــا
جفَّ ســحــرُ الـحـــيـــاة يـا قـلـبيَ الـبـــا
كي فــــهـــيَّـــا نُـجــرِّبُ المـوتَ هـيَّـــا

وانظر قصيدته «الأشواق التائهة».

كذلك يتسم شعر الشاعر الرومانسي بإضفاء الطابع الرومانتيكي على الطبيعة وعلى الماضي. أما إضفاؤه على الطبيعة فواضح كل الوضوح في رائعته (النبي المجهول) وقصيدته الجميلة «من أغاني الرعاة»، وغيرهما، وأما إضفاؤه الطابع الرومانتيكي على الماضي فيتجسد في قصيدته «أغاني التائه».

وكما قلنا فإن مظاهر التيار الرومانسي كانت واضحة كل الوضوح في شعر الشابي، لكنها كما قلت رومانسية ثورية، وليست رومانسية تقليدية.

ولست أدري ما الذي دفع علاّمتنا إلى تجريح «المتنبي» وهو في مقام إعلاء شأن الشابي؟، الموازنة بين الشعراء تكون بين شاعرين عاشا في زمن واحد أو أزمان متقاربة، كالموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتري.

ولكنها لا تصح أن تقوم بين شاعرين تفصل بينهما عشرة قرون، لاختلاف المعايير الاجتماعية والخلقية والنقدية.

ولست أدري لِمَ لمْ يوازن – أخي أبوالقاسم – بين الشابي وبين معاصريه من شعراء تونس الذين لم يخجل عشرات منهم من الوقوف كل عام بين يدي بورقيبه يمدحونه وينشدون عكاظياتهم التي طبعت منها أجزاء خمسة، اليس موقف هؤلاء أولى بالتجريح والنقد وهم يحجون إلى – المنستير[1] – ليلقوا قصائدهم بين يدي طاغوت تونس، وكثير منهم ممن أدرك الشابي وعاصره؟!

إن السبب الرئيسي في خلود شعر الشابي هو أنه من الشعر الصافي الذي لم يرتبط بشخص ولا بمناسبة، وقصيدته «إرادة الحياة» الخالدة، جسَّدت الثورة على الواقع الفاسد.

والشابي بعد يرى أن الشعر فيض العواطف، وليس نتاج العقول:

عشْ بالشعور وللشعور فإنما
دنياكَ كونُ عواطفٍ وشعور
شِيدَتْ على العطفِ العميق وإنها
لتجفُّ لو شِيدَتْ على التفكير
والعقلُ رغمَ مشيبهِ ووقاره
ما زال في الأيامِ جِدُّ صغير
وهو المهشَّمُ بالعواصف يا له
من ساذجٍ مُتَفَلْسفٍ مغرور[2]

خلافًا للمتنبي وكل الشعراء الحكماء الذين يرون أن الشعر وليد العقل.

وقد سئل أحد النقاد القدامى فقال، أبو تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري فالمتنبي خَلَدَ بِحِكَمِهِ التي جسَّدت ضمير الأمة، والشابي خَلدَ بشعره الصافي البعيد عن الأشخاص والمناسبات المستوحى من عواطفه الصادقة المشبوبة.

وقد شدَّ نظري ما كتبه الأخ العلاَّمة من أن مؤرخي الأدب العربي «يتجاهلون تمامًا هذا الشمال الأفريقي من حدود مراكش إلى حدود مصر الغربية، كأن هذه الرقعة الكبيرة

١ – المنستير: مسقط راس بورقيبة.
٢ – تنظر قصيدته (فكرة الفنان).

من الأرض ليست داخلة في خريطة العالم العربي قديمًا وحديثًا[1]» ويقول هلال بن ناجي: إن مؤرخي الأدب العربي القدامى لم يبخلوا بتوفير مادة البحث لمؤرخينا المعاصرين، فأنت واجد في «يتيمة» الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ودمية الباخرزي (ت ٤٦٧هـ) وخريدة العماد (ت ٥٩٧هـ) ومعجم ياقوت (ت ٦٢٦هـ). مادة وفيرة تخص المغرب والأندلس وصقلية، وقد استقى العماد خاصة من مراجع مغربية بعضها مفقود كان له الفضل في حفظ ما حفظ من نصوصها.

ويخيّل إليّ أن السبب ليس في انصراف المشارقة عن أدب المغاربة، وإنما السبب في عدم توافر النصوص المغربية للباحثين في بواكير هذا القرن. حتى إذا ما صارت المصادر في متناول الباحثين والمؤرخين، نَهَدوا الى تَوْرَخَةِ الحركة الأدبية في هذا الجزء الغالي من وطننا العربي الكبير، وأعمالهم اليوم أكثر من أن تحصى أو تحصر.

وفي فصل عنوانه «شاعر جبار» نقف عند قول المؤلف: «إن تونس الخضراء لم تعرف في تاريخها الأدبي شاعرًا يقف بحقّ بين الشعراء الكبار ويحتل مكانة سامية في عالم الخلود بعد شاعرنا ابن هانئ إلا الشابي»[2].

لقد أعادتني هذه الفقرة إلى المتنبي مرة ثانية. فالمؤلف يعتز بابن هانئ الأندلسي ويعدّه ممن يحتل مكانة سامية في عالم الخلود، وهو شاعر كبير حقًا في رأينا أيضًا.

يقول هلال بن ناجي: ومحمد بن هانئ الأندلسي هذا كانوا يلقبونه بمتنبئ المغرب، وجلّ شعره نظمه في مدح المعز لدين الله الفاطمي واستجدائه، أليس هو القائل في مطلع مدحة له[3]:

مـــا شِـــئتَ لا مـــا شـــاءتِ الأقـــدارُ
فـــاحكمْ فـــأنت الواحـــدُ القـــهَّـــارُ

١ - كفاح الشابي ص ٣٦.
٢ - المصدر السابق ص ٤٣.
٣ - ديوان محمد بن هانئ الأندلسي بتحقيق محمد اليعلاوي - ص ١٨١.

وكـــــانما انتَ النبيُّ مـــــحـــــمـــــدٌ
وكـــــانما انصـــــاركَ الأنصـــــار

وأتساءل هل انحدر المتنبي إلى هذا المستوى في مدائحه؟ فلماذا رضي أبوالقاسم أن يبقي ابن هانئ المداح محتلاً مكانة سامية في عالم الخلود، في حين أسقط المتنبي – بسبب مدائحه لسيف الدولة – عن مكانته؟!

إنني أعتقد أن هذه العبارات كتبت في فورة الشباب وأبوالقاسم دون الثلاثين، وبقيت على حالها دون تغيير، ولو أنه أعاد قراءتها في ضوء علمه وفضله الذي بلغه لشطبها جملة وتفصيلاً، ودليلنا على ذلك ما كتبه بعد عشرين عامًا عن ابن هانئ.

✲✲✲✲

ولقد كان أبوالقاسم موفقًا غاية التوفيق في عرض وإيضاح مفهوم الشعر ووظيفته عند الشابي، مستشهدًا بشعره ونثره[1].

وفصّل القول في وطنية الشابي ومحاولاته الدائبة لإيقاظ شعبه من سُباته، وكانت قصيدته «أيها الشعب» من أروع النماذج أسلوبًا ومعنى وفي بيت من أبيات هذه القصيدة ضمّن الشابي شطرًا للمتنبي تضمّن حكمة من حكمه الخالدة قال الشابي:

أيُّ عـــــيشٍ هذا وأيُّ حـــــيـــــاةٍ
رُبَّ عـــــيش أخَفُّ منه الحِـــــمَـــــامُ!

وعجز البيت من شعر المتنبي القائل:

ذلَّ مـن يـغـــــبطُ الذليـلَ بـعـــــيشٍ
رُبَّ عـــــيشٍ أخفُّ منـه الحِـــــمَـــــامُ

وكانت محاولات الشابي الشعرية لإيقاظ شعبه مخلصة وصادقة ومؤثرة، ولقد جوبهت هذه المحاولات بالعداء والرفض من قبل بعضهم وكانت مجلة (النديم) التونسية الأسبوعية مسرحًا لهؤلاء الخصوم[2]. وحين قوبلت دعوات النهوض التي أطلقها الشابي

---

١ – ينظر الفصل المعنون «قمة الشابي».
٢ – كفاح الشابي ص ٧٧.

بالجحود والنكران واتهم بالكفر، ثار على خصومه فكتب رائعته الخالدة المعنونة (النبي المجهول) وأولها:

أيها الشعبُ ليتني كنتُ حطّا
بًا فأهوي على الجذوع بفأسي!
ليتني كنتُ كالسيولِ إذا سا
لَتْ تهدُّ القبورَ رمسًا برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوي
كلَّ ما يخنق الزهورَ بنحسي
ليتني كنت كالشتاء أُغَشِّي
كلَّ ما اذبلَ الخريفُ بقرسي
ليت لي قوةَ العواصف يا شَعْـ
ـبي فألقي إليك ثورة نفسي
ليت لي قوّةَ الأعاصير إنْ ضَجْـ
جَتْ فأدعوك للحياة بنبسي
ليت لي قوّةَ الأعاصير! لكن
انتَ حيٌّ يقضي الحياة برَمْس!
انت روحٌ غبيةٌ تكره النو
رَ وتقضي الدهورَ في ليل مَلْس
انتَ لا تُدرك الحقائق إن طا
فَتْ حواليكَ دون مَسٍ وجَسٍّ

والقصيدة من عيون شعرنا المعاصر الداعي إلى إيقاظ الشعب من رقدة الكهف، وقد كان الشاعر موفقًا فيها غاية التوفيق في اختياره السين الهامسةِ قافية، وفي سلاسة ألفاظها، وفي التعبير بصدق عما جال في نفسه من ثورة على غطيط شعبه في نومه، وعدم استجابته لدعوات النهوض وكسر الأغلال التي أطلقها الشاعر ورواد النهضة، ثم صوّر لنا بأسلوب أخاذ كيف مضى هذا الشاعر النبي المجهول الى الغاب ليمضي أيامه وحيدًا في أحضان الطبيعة.

كم كان بودي لو أن علاّمتنا حاول في طبعة من طبعات الكتاب، تحليل هذه القصيدة الجميلة الخالدة، وإبراز عناصر الجمال الفني فيها، بل كم كنت أتمنى لو انه كرَّس فصلاً في كتابه للحديث عن القيم الفنية في شعر الشابي، فهو موضوع جدير بالوقوف عنده طويلاً.

لقد أحسست وأنا أقرأ القصيدة أن القوافي كانت تضيق بالشابي فيعمد الى تكرارها مما أوقعه في عيب من عيوب القافية هو الإيطاء. ومثاله: تكراره القوافي التالية: نفسي - كأسي - يأس - رمس - أمس - قدس - جنس - رجس - تمسي، وغيرها.

وقصور هذه القوافي عن التعبير عما في جوانحه دفعه إلى اختيار بضعة قوافٍ وحشيَّةٍ مستوعرة غير مألوفة، تشعر وأنت تقف عندها أنها قلقة غريبة على أسلوبه. اضطر الى استعمالها بحثًا عن كلمة (رويّ). ومثالها: بقرسي - مغسي - ملس - حرسًا بحرس - المغسِّي - قنس.

فهي كلمات قاموسية معجمية حقًا، لكنها غريبة على أسلوب الشابي السلس المطواع وغريبة على العصر دفعته إليها القافية.

لكن هذا كله لا يسلب الشاعر إيمانه بمستقبل شعبه وحتمية انتصاره ويقظته ومن هذا المنطلق حبَّر قصيدته «إلى طغاة العالم».

ختم المؤلف كتابه بفصل عن الطبيعة عند الشابي، ووقف عند مصطلح «يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة» وافتتان الشابي به، وكيف كان يرى أن يقظة الإحساس هي روح الحياة المنتجة الولود التي تصقل العبقرية وتؤجج نيران النبوغ، وأنه ظل يردد هذا السر سرّ الحياة العميق حتى عزف نشيده الخالد في رائعته «إرادة الحياة».

وقد أشار الأخ المؤلف إلى ما ذكره الدكتور علي سعد من وجود نَفَس نيتشي[1] في هذه القصيدة المتضمنة فكرة العودة الدائمة والحياة المتجددة.

١ - نسبة إلى «نيتشه» الفيلسوف الألماني الشهير.

وكان بودي لو أن علامتنا عقد مقارنة عميقة بين أفكار نيتشه في العودة الدائمة وأفكار الشابي في خالدته «إرادة الحياة»، لأن ذلك يساعدنا على معرفة بعض روافده الثقافية، ومواطن الإبداع والاصالة والتفرد في شعره. فعسى أن يكون لديه مستقبلاً من الصحة والوقت ما يسمح بولوج هذا الباب.

✡✡✡✡

إنّ اهتمام علأمتنا بالشابي وإيلاءه ما هو جدير به من وقت وجهد ومال، باعتباره نسيج وحده في ديوان الشعر التونسي الحديث، دفعه إلى إصدار كتاب موسع عنوانه «آثار الشابي وصداه في الشرق» وقد صدر هذا الكتاب في بيروت سنة ١٩٦١ متضمنًا فصولاً عن حياة الشابي وآثاره وصداه في الشرق وباقة من شعره ونثره ومنتقى مما كُتب عنه، ثم ألحق به فصلاً ببليوغرافيًا مهمًا سماه «دليل الباحثين».

إن الفصل المعنون «صدى الشابي في الشرق ١٩٣٣ - ١٩٦٠» كشف فيه المؤلف أن اتصال الشابي بمجلة أبوللو المصرية وتوثق صلته بصاحبها المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي، كان المنطلق لشهرة الشابي في المشرق، وهو أمر فصل القول فيه في ما بعد عدد ممن صنفوا الدراسات الأدبية عن «مدرسة أبوللو» الشعرية.

ويقول هلال بن ناجي: إن هذا الانتماء الأبوللي، يفسر سرّ الأسى العميق الذي شعر به شعراء مدرسة أبوللو من المصريين حين فجعوا بوفاة الشابي المفاجأة فرثوه من أعماقهم بقصائد أشار إليها مؤلفنا ومنها مراثي المرحومين: أحمد زكي أبو شادي ومختار الوكيل وصالح جودت وحسن كامل الصيرفي ومحمد فوزي العنتيل. ثم مراثي شعراء كبار لم يعاصروا الشابي - ما زالوا أحياء بيننا مثل: سليمان العيسى ومحمد الفيتوري.

وأجد من الأمانة العلمية القول بأن مؤلفنا ذكر أسماء ستة وثلاثين شاعرًا رثوا الشابي ينتمون إلى أقطار متعددة من الوطن العربي الكبير.

وهذا ما أحسب الشابي قد تفرَّد فيه بين شعراء العربية، وهو يعكس من جهة أخرى المكانة الرفيعة التي احتلها هذا الشاعر المبدع بين إخوته من شعراء العربية.

وأما المنتقى مما كتب عن الشابي فقد ضَمَّ كتابات أبي شادي ومختار الوكيل ومحمد فهمي وصالح جودت وبديع حقي وسعاد أبوشقرا وعبدالقادر القط ومحمد مندور وإبراهيم ناجي وعزيز أباظه وعبدالفتاح غبن وعيسى الناعوري.

ولأبي القاسم محمد كرو فضل كبير في جمع هذه الدراسات المتناثرة ولمها في كتاب واحد، لقد أعاد علاّمة تونس طبع هذا الكتاب مرة ثانية في بيروت في خريف عام ١٩٨٨ لنفاد الطبعة الأولى وتكريمًا للشابي.

✡✡✡✡

ويجيء الكتاب الرابع الذي كرسه علاّمة تونس لأبي القاسم الشابي بعنوان دراسات عن الشابي[١] ليضيف بحوثًا جادة كثيرة صنّفها المؤلف صنفين: دراسات مغربية ودراسات مشرقية، فأما الدراسات المغربية فقد ضمت أبحاث السادة: الشاذلي القليبي وأبوالقاسم محمد كرو ومحمد فريد غازي والعمروسي المطوي وخليفة التليسي - عميد أدباء ليبيا - وعامر غديرة ومحمد بدرة وعبدالله شريط - الكاتب الجزائري - ومحمد البشروش وإبراهيم بورقعة والبشير الفورتي.

وأما الدراسات المشرقية فقد ضمت أبحاث السادة: محمد مندور ومصطفى بدوي وحسن محمد محمود ونظمي خليل وكلهم من مصر، وعبدالمجيد عابدين من السودان وشوقي أبو شقرا من لبنان. وبعض هذه البحوث كان قد ألقي في حفل الأربعين التأبيني الذي أقيم بتونس، وبعضها الآخر نشر في شتى المجلات العربية على امتداد ثلث قرن من الزمن، وليس ثمة شك في أن جمع هذه الدراسات المتناثرة وإصدارها في كتاب كان يمثل جهدًا عَصيّاً تنوء به عصبة من الرجال، لأن هذه الدوريات تغدو نادرة بعد مضي سنوات على صدورها، فكيف يكون الأمر وقد مرّت عقود ثلاثة على بعضها. لكن علاّمتنا استطاع إنقاذها من الضياع والتشتت وبذل من ماله الكثير حتى يسرّها للقراء ومحبي الأدب.

---

١ - صدرت طبعته الأولى في تونس في شباط - ١٩٦٦.

وحين نفدت الطبعة الأولى، أعاد نشر الكتاب في طرابلس الغرب سنة ١٩٨٤، وكان صنيعه هذا لا ينسى.

لم تقتصر عناية أبي القاسم محمد كرو على العلمين التونسيين الشامخين: ابن خلدون والشابي، بل امتدت عنايته لتشمل أعلامًا آخرين مثل خير الدين التونسي الذي كان مصلحًا إداريًا[1]، ومثل الطاهر الحداد الذي كان مصلحًا اجتماعيًا كبيرًا[2]. كما عني بعلمين تونسيين آخرين هما: عبدالرزاق كرباكة[3] ومحمد الخضر حسين[4].

١ - خير الدين التونسي (١٨١٠ - ١٨٨٩) جركسي جاء به احمد باي تونس من الآستانة وعني به عناية خاصة حتى تخرج ضابطًا في الفرسان ثم صار اميرًا للخيالة. عين وزيرًا للحربية سنة ١٨٦٢ وأصلح شؤون وزارته وعمر ميناء حلق الوادي وانشا مصنعًا للسفن ونظم الطرقات وبسعيه اعلن الدستور التونسي وانبثق عنه مجلس تشريعي، وتحت ضغط دسائس القناصل الأجانب والرجعية في تونس اضطر للاستقالة واعتزل وانصرف للتاليف فصنف كتابه الجليل «اقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، وهو كتاب إصلاحي قيم، ثم غرقت تونس في الديون فعينه الباي رئيسًا للجنة المالية المكونة من اعضاء انكليز وفرنسيين وطليان مهمتها حماية الديون الأجنبية، ثم عينه الباي رئيسًا للحكومة سنة ١٨٧٣ فقام بإصلاحات جبارة في ميادين الاقتصاد والتعليم والتشريع، ثم اضطر للاستقالة سنة ١٨٧٧ ورحل إلى الآستانة وعين صدرًا أعظم ثم استقال بعد عام واحد، وامضى حياته الباقية في الآستانة حتى توفي سنة ١٨٨٩م. انظر بعض إصلاحاته في الصفحات ٤٠ - ٤١ من كتاب ابي القاسم عنه وهو العدد ٣١ من كتاب البعث.

٢ - الطاهر الحداد (١٨٩٩ - ١٩٣٥) زعيم نقابي، وحامل لواء الدفاع عن حقوق المراة التونسية وشاعر وكاتب، له موقف وطني مشهود من قضية التجنيس التي سعى إليها الاستعمار الفرنسي في تونس فقاومها المخلصون وباءت بالفشل. تنكرت له الرجعية في تونس وجعلت سنواته الأخيرة مليئة بالمرارة والأحزان اصدر عنه العلامة أبوالقاسم محمد كرو العدد الحادي والعشرين من سلسلة (كتاب البعث) وكانت له الريادة في ذلك وبعد سبعة أعوام أصدر الكاتبان التونسيان محمد المرزوقي والجيلاني بلحاج يحيى كتابهما المعنون «الطاهر الحداد: حياته تراثه».

٣ - عبدالرزاق كرباكة (١٩٠١ - ١٩٤٥) شاعر وناثر وصحفي وقاص تونسي، وكان كاتبًا للأغاني العامية ومؤلفًا مسرحيًا ايضًا، وكتاب ابي القاسم عنه نشر سنة ١٩٦٥ بتونس.

٤ - محمد الخضر حسين (١٨٧٦ - ١٩٥٨) جزائري الأصل تونسي المولد، ولد في نفطة بالجنوب التونسي، اصدر اول مجلة تونسية سنة ١٩٠٤ باسم «السعادة العظمى»، كان مدافعًا عن الحرية وداعية للإصلاح وتنقل في البلدان العربية وبعد سقوط دمشق بيد الفرنسيين هاجر إلى مصر واستقر بها واحتضنه العلامة احمد تيمور وكان من اسباب اشتهاره تصنيفه كتابًا في الرد على الشيخ علي عبدالرزاق اسمه (نقض كتاب الإسلام واصول الحكم) وكتابًا آخر في الرد على طه حسين اسمه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، ثم منح الجنسية المصرية وعين مدرسًا بالأزهر الشريف ثم عضوًا في مجمع اللغة العربية بمصر وفي سنة ١٩٥٢ صار شيخًا للأزهر الشريف ثم استقال سنة ١٩٥٤ وتوفي في القاهرة سنة ١٩٥٨، له ديوان شعر مطبوع عنوانه «خواطر الحياة»، وكتب كثيرة ذكرها الأستاذ أبوالقاسم في كتابه المعنون «محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق»، تونس - ١٩٧٣.

كما صنف كتابًا عن ابن هانئ الأندلسي صدرت طبعته الأولى في تونس سنة ١٩٦٧ وهو كتاب صغير صدر في سلسلة أعلام المغرب العربي، وأعادت طبعه الدار العربية للكتاب (ليبيا - تونس سنة ١٩٧٧)، وأجود ما في هذا الكتاب الفصل الذي عقده لأوجه الشّبه وأوجه الاختلاف بين المتنبي وابن هانئ، وهو فصل فيه ملاحظات قيمة جديرة بالتأمل لا يتسع المقام لذكرها فاكتفينا بالإشارة، وثمة كتاب صدر بعنوان «شخصيات أدبية» - تونس ١٩٥٨، شاركه فيه الأستاذ الجزائري عبدالله شريط، وهو كتاب مدرسي تناولا فيه الأدب العربي في عصوره المختلفة، يجري مجرى الكتب المدرسية المعروفة.

٭٭٭٭

وأرى لزامًا عليّ وأنا أقترب من نهاية هذا البحث أن أشير إلى اهتمام علامة تونس الأخ أبوالقاسم محمد كرو، بالعلامة التونسي الكبير ابن منظور مؤلف (لسان العرب)، لقد انعكس هذا الاهتمام بِبَلَديِّه، في الملتقى الأول والملتقى الثاني اللذين عقدا في (قفصة) في عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ وسميا باسم (ملتقى ابن منظور الأفريقي) وقد طبعت بحوث الملتقى الأول عام ١٩٧٢، كما طبعت بحوث الملتقى الثاني عام ١٩٧٤ في تونس، إنّ المتأمل المدقق في البحث العلمي الدقيق الذي قدّمه أبوالقاسم بعنوان «حقائق جديدة عن ابن منظور» يكشف أمرين أساسيين:

أولهما: مقدار الدقة العلمية التي تحلّى بها كاتب البحث.

وثانيهما: الجهد الضخم في تتبع المخطوطات والمطبوعات المتناثرة للوصول إلى النتائج العلمية التي توصل إليها الباحث. وهذا البحث في نظري هو أرْصَنُ بحثٍ قدِّم للملتقى كشف بعض الغوامض من حياة ابن منظور وتاريخ أسرته.

وقد سعدت حقاً بالدقة العلمية التي تحلّى بها البحث. وبعد:

وإذ أضع القلم بعد رحلة ممتعة في آثار صديقي وأخي علاّمة تونس الأستاذ (أبوالقاسم محمد كرو) - الذي شدتني إليه روابط أخوة موغلة بجذورها عبر السنين - أرى ضرورة الوقوف عند جملة حقائق:

أولهـا: أن أبا القـاسم كان في كل آثاره يرفض تعـبيـر «الأمة التونسـيـة» ويؤكـد أن الشـعب التونسي جزء من أمة عربية لها وطنها الكبير، ومن هذا المنطلق فـهو بحق رائد الفكر العربي القومي الوحدوي في تونس في القرن العشرين.

وثانيـهـمـا: أن حبـه للعلم وهـي خِلَّة إنماز بهـا، جـعلتـه يمد يد العـون إلى البـاحـثين والمحـققين ممن كانوا يحـتـاجون إلى مـصـورات بعض المخطوطات الثـاوية فـي دار الكتب الوطنيـة في تونس، فكان يسـارع الى مدهم بهـا، وقـد أشـار غيـر واحـد من هؤلاء إلى هذه الأفـضـال العلميـة ومن بينهم مُـحبِّر هـذه المقالة والدكتـوران يحيى الجبـوري وعلي جواد الطاهر وسواهم.

وثالثـهـا: رفضـه الخيـانة العلميـة والسطو على جـهـد الآخـرين، وله في ذلك مـواقف مشهودة من بينها كشفه لصوصية د. حاتم صـالح الضامن على كتاب «مواد البيان» الذي نشـر في ليبيا سنة ١٩٨٢ بتحقيق الدكتور حسين عبداللطيف، فسطا عليه المذكور متنًا وتحقيقًا ونشره منجّمًا في مجلة «المورد» العراقية الشهيرة عام ١٩٨٧.

فكان للرسـالة التي كتبـهـا العـلامـة أبوالقـاسم إلى مـجلة «المورد»، وقع الصـاعـقـة في أوساطنا العلمية العراقية.

ورابعها: خلّة الوفـاء للراحلين ممن أحبهم وعرفـهم في حياته أمثال: سـاطع الحـصـري وعبدالسلام محمد هارون وسواهم، فكتب ما كتب مؤبنًا لهم، أو مهديًا لأرواحهم الطاهرة بعض آثاره.

إن الحديثَ عن علم شامخ كأبي القاسم قصير وإن طال، ثم إنني أكتب هذا وفي البال بلبالٌ، مما يحيط بنا، والهمُّ يلقي بجـرانه على الخـاطر المكدود فيعنق في درب ويغفل دروبًا، وإنني اسأل الله – جلّت قدرته – أن يمنح أخي الصحة وطول العمر، إنه السميع المجيب.

****

لمحات عن العلامة:
«أبو القاسم محمد كرّو»

أ. هلال ناجي

(٢)

يمثل أبوالقاسم محمد كرو الوجه المشرق الأصيل للأدب المعاصر في تونس العربية. وشخصيته الأدبية متعددة الجوانب، فعلى امتداد عشرين عامًا وزيادة، رفد «كرو» الأدب العربي بعشرين مصنفًا من مصنفاته.

البعد الحقيقي للمعركة الثقافية في مغربنا العربي ليس صراعًا حول الشكل بين قديم وجديد، وليس نزاعًا بين رجعية وتقدمية، وإنما هو معركة عميقة وواسعة بين دعاة التعريب ودعاة التغريب.

دعاة التعريب الذين يريدون إبراز الشخصية العربية لتونس ولسائر المغرب العربي في ثقافته وفكره. ودعاة التغريب الذين يريدون اعتبار الفرنسية لغة علم وعمل، لغة تدريس ولغة دواوين وهي جوهر الدعوة للفرنكفونية.

وصاحبنا أبوالقاسم من أعلام التعريب في تونس، هذه الدعوة التي جرت عليه كثيرًا من المتاعب، حتى وصفه بعض أذناب الفرنسة بأنه من دعاة التبعية للمشرق. تلك ميزة أولى من ميزات كرو.

والميزة الثانية انه في عمله الثقافي استطاع ان يستقطب ابرز الاقلام الخيّرة على امتداد المغرب العربي الكبير، في مجلته «الثقافة» التي صدرت بتونس. ثم في مشروعه القيم «كتاب البعث» الذي صدر من أجزائه نحو الستين جزءًا، وأسهم فيه كل ذوي القدرات الخلاقة في ذلك الجزء الغالي من وطننا.

وهذا المشروع الثقافي الذي عجزت حكومة تونس عن القيام به، استطاع أن ينهد به فرد واحد هو «كرو». والذين يعرفون تكاليف الطباعة الخيالية في تونس يدركون أية أعجوبة صنع أبوالقاسم بمشروعه هذا أداءً لرسالة ثقافية وقومية هدفها الإسهام في نهضة المغرب العربي، وتسجيل تاريخه الحديث فكرًا وأدبًا ونضالاً ومنع تراثه الحديث من التلاشي والإهمال.

كل الأقلام الكبيرة التي اشتهرت في ما بعد عرفت طريقها أولاً عن طريق هذه السلسلة التي أصدرها أبوالقاسم.

إن الحديث عن مصنفات «كرو» لا تتسع له هاته الصحائف المحدودة، لكن مالا يدرك كله لا يترك جله.

فأبوالقاسم منح «الشابي» اهتمامًا خاصًا وأفرد له ثلاثة من مصنفاته هي:

١ - الشابي: حياته وشعره. ٢ - كفاح الشابي. ٣ - آثار الشابي وصداه في الشرق.

كما كرس بعض مصنفاته لعدد من الأعلام التونسيين مثل كتبه التالية: ١ - الطاهر الحداد. ٢ - خيرالدين التونسي. ٣ - العرب وابن خلدون. ٤ شوقي وابن زيدون في نونيتهما. ٥ - عبدالرزاق كرباكة. ٦ - ابن هانئ المغربي الأندلسي.

وهناك بعض مصنفاته التي واكبت معارك التحرير في المغرب العربي وأبرزها:

١ - ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي. ٢ - هتاف للجمهورية. ٣ - الشهيد أحمد رضا حوحو.

وله في أدب الخواطر والمقالة كتابان: ١ - كفاح وحب. ٢ - حصاد القلم.

ومن كتبه التعليمية: ١ - دروس في التاريخ الابتدائي. ٢ - شخصيات أدبية. ويبقى بعد هذا كتاباه: حديث رمضان. والتعليم التونسي بين الحاضر والمستقبل.

ثم كانت انعطافته نحو التراث حدثًا مهمًا في تاريخه الثقافي بعكوفه على تحقيق كتاب «الأنموذج» لابن رشيق.

✡✡✡✡

إن كتابه الصادر مؤخرًا بعنوان «محمد الخضر حسين» هو إضاءة أخرى للتعريف بعلم من أعلام العربية انجبته تونس وتقلبت به الأحداث وكان شعلة من نشاط وولي مشيخة الأزهر.

والشيخ محمد الخضر حسين، جزائري، رحلت أسرته إلى الجريد التونسي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر واستقرت بـ «نفطة» حيث ولد الشيخ سنة ١٨٧٦.

وقد تتبع المؤلف مراحل حياته المختلفة تلميذًا وأستاذًا وصحفيًا فقاضيًا. ثم عرض لاستقالته من الوظيفة وعودته للتدريس بالزيتونة والصادقية والخلدونية.. وأشار إلى بروز نزعاته الإصلاحية والوطنية في محاضراته وفي مساندته لإصلاح التعليم الزيتوني وتأييده للجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي. وذكر الأسباب التي دعته إلى السفر إلى الآستانة حيث كان رجال الدين يرون فيها رمزًا للخلافة الإسلامية ومركزًا للإشعاع الديني والفكري.

وقد ارتأى المؤلف أن السبب الأساسي الذي دفع المترجم له إلى هجرة تونس هو حرمانه ظلمًا وعدوانًا من النجاح في مناظرة للتدريس من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وكان هو في الطبقة الثانية من المدرسين.

وقد كان حرمانه – على رأي المؤلف – بسبب سياسة المحاباة المسيطرة على الحياة العلمية في تونس آنذاك.

لقد كان هذا الحرمان من العوامل الحاسمة في هجرته من تونس مع إخوته الأربعة عام ١٩١٢ وبهذه الهجرة افترق عن زوجته التونسية.

في المرحلة الثانية من حياته التي ابتدأت بعد الهجرة زار عددًا كبيرًا من الأقطار واستقر بدمشق مدرسًا في المدرسة السلطانية بها حتى عام ١٩١٧ وفي هذه المرحلة كان يدعو إلى تضامن عربي – تركي في ظل الخلافة العثمانية. وأصاب المؤلف إذ قال: إنه كان «في ذلك يدعو عن عقيدة صادقة أساسها ثقافته الدينية من ناحية، وإحساسه الخاص من ناحية أخرى والبيئة الفكرية والسياسية التي نشأ وترعرع فيها بتونس من ناحية ثالثة».

ومع ذلك ألقى به جمال باشا السفاح في السجن مدة تجاوز الستة شهور بتهمة العلم بالحركة السرية المعادية للأتراك. وقد قدم للمحاكمة وثبتت براءته. فعاد إلى عمله التدريسي، ثم ألحق منشئًا عربيًا بوزارة الحربية في الآستانة، حيث استطاع هناك التعاون مع بعض الزعماء التونسيين والجزائريين وعلى رأسهم (علي باش حانبة) لتنظيم الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي مستغلين وجود عدد ضخم من المجندين المغاربة في الجيش الفرنسي وفي واجهات القتال بالخصوص. كان هدف (علي باش حانبه) ورفاقه بثّ الدعاوة في صفوف هؤلاء المغاربة داخل الجيش الفرنسي وبين أسراهم في ألمانيا لحملهم على القتال ضد فرنسا وليس معها لأن مصلحة بلادهم في ذلك. وكانت الدولة العثمانية تساعدهم في هذا الأمر ماديًا ومعنويًا. وقد حل الشيخ الخضر في ألمانيا مع بعثة من العلماء المسلمين بينهم الشيخ التونسي صالح الشريف وتعلم الألمانية وأدى مهمته، وظلك يتردد بين الآستانة وبرلين إلى أواخر الحرب العالمية الأولى وبعدها نزح الى دمشق ومحنة الاغتراب تلح عليه فقال يصف حاله:

أنا كـــــــاسُ الـكـريم والأرضُ نـادٍ
والمطايا تطوفُ بي كـــالسـقــاةِ
رُبَّ كــاسٍ هـوت إلى الأرض صـدعًـا
بـين كـفٍّ يـديـرهـا والـلـهـاة
فـاسـمـحي يا حـيـاة بي لبـخـيلٍ
جـفنَ سـاقـيـهِ طافحٍ بالـسـبـات

وفي منتصف عام ١٩١٩ تأسس المجمع العلمي العربي بدمشق وعين الشيخ الخضر عضوًا عاملاً فيه، لكنه اضطر إلى الرحيل عن دمشق منتصف عام ١٩٢٠ بعد الاحتلال الفرنسي لها، خوفًا من معاقبة الفرنسيين له لسبق تعاونه مع الألمان ضدهم، وبثه التمرد بين جنودهم المغاربة. وبرحيله إلى مصر بدأت المرحلة الثالثة من حياته.

في مبدأ الأمر اشتغل مصححًا بدار الكتب المصرية، ولاحتضان العلامة أحمد تيمور له استطاع النشاط في ميدان الكتابة في المجلات والمحاضرة في الجمعيات

والتدريس في المساجد. كما عمل على تنظيم شؤون المغاربة في مصر فأسس سنة ١٩٢٣ جمعية تعاون جاليات شمالي إفريقيا.

ثم أقبلت الفرصة الذهبية حين أصدر الشيخ علي عبدالرزاق كتابه المعروف «الإسلام وأصول الحكم» عام ١٩٢٥ زاعمًا أن الخلافة ليست من الاسلام في شيء، وكان انصار الملك فؤاد يروجون لانتخابه خليفة بعد إلغاء الخلافة في الآستانة.

فتصدى الشيخ الخضر للرد على الكتاب بكتاب سماه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم». وفي عام ١٩٢٦ أصدر طه حسين كتابه المعروف «في الشعر الجاهلي» فرد عليه الخضر بكتاب سماه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي».

إن الكتابين المذكورين قفزا بالشيخ إلى الطليعة بين أدباء مصر وكتابها وعلمائها. كما أن الكتاب الأول فتح أمامه الأبواب الرسمية فمنح الجنسية المصرية وتقلد الوظائف الرسمية.

وقد ارتأى المؤلف وهو محق في ما ارتآه: «أنه لا يمكن أن نصف ردوده على طه حسين وعلي عبدالرزاق إلا بأنها ردود عقائدية».

وفي عام ١٩٢٨ عين أستاذًا للأزهر، وأسس جمعية الهداية الإسلامية وتولّى رئاستها وإدارة مجلتها، كما رأس تحرير عدد من المجلات الأزهرية مثل «نور الإسلام» و«لواء الإسلام». وكان من مؤسسي جمعية الشبان المسلمين. وفي عام ١٩٣٢ انتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعيد تأسيسه.

وعقب الحرب العالمية الثانية أسس «جبهة الدفاع عن شمالي إفريقيا»، للدفاع عن قضايا المغرب العربي، وكانت مجلة – الهداية الإسلامية – التي رأس تحريرها شديدة الاهتمام بالقضايا المغربية.

وفي عام ١٩٥٢ انتخب شيخًا للأزهر في العهد الجمهوري واستقال من منصبه في بواكير عام ١٩٥٤. وتوفي بمصر عام ١٩٥٨ ودفن في تربة آل تيمور.

✲✲✲✲

بعد هذا تحدث المؤلف عن جوانب من شخصية الشيخ الخضر شاعرًا ومؤلفًا وصحفياً. ووقف عند ديوانه المطبوع «خواطر الحياة» وقفة قصيرة ثم تحدث عن المرأة في شعره زوجةً وأمّاً، ودافع عنه دفاعًا موفقًا في أمر زواجه من شابة صغيرة وهو شيخ للأزهر في الثمانين.

وذكر مصنفاته بشكل علمي جيد وانتقد - وهو مصيب في ذلك - الطريقة التي اتبعها حفيده للاخ (علي الرضا التونسي) حين أعاد طبع بعض مؤلفات عمه واقترح طريقة مقبولة.

ملاحظة واحدة أحببت إيرادها تدور حول كتاب «تراجم الرجال» الذي ذكره المؤلف ضمن الكتب التي ذكرتها المراجع ولم يرها.

والحق أن عنوان هذا الكتاب هو من وضع ناشره السيد علي الرضا التونسي وقد جمع فيه ما نشره الشيخ الخضر من مقالات عن أعلام الإسلام في مجلتي الهداية الإسلامية ونور الاسلام وما القاه من محاضرات في النوادي الإسلامية بهذا الخصوص ورتبها وفقًا للتسلسل التاريخي معتمدًا تواريخ الولادة، دون نظر إلى تاريخ نشر المقال أو إلقاء المحاضرة.

والكتاب مطبوع في المطبعة التعاونية في ١٢٨ صحيفة. وقد تضمن الفصول التالية: نظرة في ناحية من خلافة عثمان - موسى بن نصير - علي زين العابدين - محمد الباقر وزيد - عمر بن عبدالعزيز - مالك بن أنس - صقر قريش - أبو داوود وكتاب السنن - أبو الحسن الأشعري - أبو الحسن الجرجاني - الغزالي - ابن العربي - أحمد تيمور.

هذه محتويات الكتاب احببت سردها استكمالاً لعمل المؤلف الفاضل.

✡✡✡✡

ثم تحدث المؤلف عن الخضر صحفياً فذكر انه لم يرتزق من الصحافة كمهنة ولكنها مارسها كرسالة. ثم سرد أهم المجلات والصحف التي عمل بها أو تولّى تحريرها أو أسهم

في الكتابة فيها. كل هذا في القسم الأول من الكتاب وفي القسم الثاني أورد نصوصًا مختارة من شعر الخضر ونثره.

وبعد: فقد كان كرو في ما كتب رائدًا للذين يرومون التوسع والتخصص في دراسة آثار الشيخ الخضر وحياته.

✡✡✡✡

إن نشاط أبي القاسم محمد كرو الفكري قد توج بانتخابه عضوًا مراسلاً في مجمع اللغة العربية بمصر. وإنه لجدير بذلك.

(بغداد ١٩٧٥)

****

أبوالقاسم محمد كرو: شهادة عاطفية

أ. وديع فلسطين(*)

«تلقيت بالفرح المجنون دعوتكم» - مستعيرًا هذه العبارة من الشاعر القروي رشيد سليم الخوري - للمساهمة في الكتاب التكريمي الذي تعتزمون إصداره عن شقيق الروح وصفي الوجدان وحبيب القلب «أبوالقاسم محمد كرو» اعترافًا بأياديه البارة السخية على الأدب والفكر والتراث على الصعيد العربي كله.

ولا أملك عند الحديث عن أخي على الدهر «أبوالقاسم محمد كرو» إلا أن أكون عاطفياً، بل مفرطًا في العاطفية، لأن بيني وبينه من الأخوّات والمودات ووشائج الحب ما امتد على أكثر من ثلاثين عامًا خلت من كل ما يعكر صفوها. وأقر باديءَ ذي بدء بتقصيري المتطاول - بل المخزي - في حق «أبوالقاسم محمد كرو» لأنني لم أكتب عنه شيئًا ذا بال إلى هذه اللحظة، على الرغم من أنه غمرني بكل مؤلفاته، وخصني بكثير من الكتب الصادرة في تونس، وهو تقصير لا يفسَّر بحال بأنني أنطوي له على سوء تقدير، وإنما تعليله الوحيد هو أن مشاغل الرزق تجتاحني، ووسائل النشر تصدني، فأكتم في صدري مشاعر الحب والتقدير والإجلال التي أكنها لأخي «أبوالقاسم محمد كرو» بكل صفاء نفس وأريحية قلب، ومن كريم خصاله أنه لم يَفُهْ أبدًا بعبارة عتاب، ولا نالني بمساءة، أو عاملني بجحود.

وإذ كنت لم أعرف «أبوالقاسم محمد كرو» إلا من نحو ثلاثين عامًا بعدما ظل اسمه يتردد في كل مسامعي من جمهرة من الأصدقاء داخل مصر وخارجها، فقد كان حريّاً بي أن ألقاه قبل ذلك بسنوات طوال حيث كان من رواد «مكتب المغرب العربي» في القاهرة الذي أقامه المجاهدون المغاربة للذياد عن قضايا استقلالهم، وما أكثر ما غشيت هذا المكتب ونعمت بصداقات جميع أعضائه قبل أن يعودوا إلى بلادهم عقب استقلالها

(*) اديب وناقد مصري ولد عام ١٩٢٣م وتخرج في قسم الصحافة من الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٢ عمل في الصحافة والترجمة، وله العديد من المؤلفات والدراسات النقدية وتراجم الأعلام.

ليتسلموا أزمّة المقادير فيها ولا أدري كيف غفلت عن لقاء الأخ (كرو) في هذا المكتب الذي يجب أن يسجل تاريخه بكل فخر في ديارات المغرب جميعًا.

وكان صديقنا وأستاذنا الدكتور أحمد زكي أبوشادي، رائد أبولو الذي آثر الهجرة إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٦ يقوم بدور الراصد للحياة الأدبية المعاصرة في المشارق والمغارب، وكان يتواصل مع كثيرين من أصدقائه في مصر - وكنت من جملتهم - وفي أمصار أخرى أيضًا، وكان لا يفتأ ينبهنا إلى أعلام الأدب في العالم العربي، ولاسيما من فطروا منهم على خلق عظيم، ساعيًا إلى عقد صداقات بيننا وبينهم، وكان أبوشادي من كبار المعجبين بـ(كرو) ومن الحريصين على تعريف الأدباء المصريين والعرب بهذه الشخصية الأدبية الفذة، بعمق أصالتها وسمو أخلاقياتها، ونقاء صداقاتها. فلما زار أبوالقاسم محمد كرو القاهرة قبل ثلاثين عامًا بادر أخونا رضوان إبراهيم - بإيعاز من أبي شادي - إلى دعوتنا للاجتماع به، واكتشفنا من الوهلة الأولى أن هذا الرجل الودود عالم أصيل تكاملت فيه جميع شمائل النبل والشهامة والأريحية وعفة اللسان وصفاء النفس وعذوبة العشرة، فضلاً عن علم غزير وإحاطة واسعة بالحركات الأدبية في الوطن العربي، فاصطفيناه أخًا أعزَّ ما تكون الأخوة، ورسولاً أمينًا ينقل إلينا أخبار الحياة الأدبية في تونس، وينقل عنا أطراف الحياة الأدبية في مصر، فكان نعم السفير الأدبي الحامل لمشاعل العرفان في مغداه ومراحه في طول الوطن العربي وعرضه.

وعندما عقدت اتفاقية ثقافية بين مصر وتونس، كان أبوالقاسم محمد كرو ضمن الوفد التونسي الذي هبط مصرًا للتوقيع عليها، ومع أنني كنت في ذلك الوقت معتزلاً الحياة العامة تمامًا، فقد دعيت - بتوجيه منه - إلى منزل السفير التونسي (صلاح عبدالله) للمشاركة في فرحة البلدين بعقد هذه الاتفاقية، وهي فرحة شارك فيها عدد من المشتغلين بفنون التمثيل والغناء والسينما، ولم يتخلف عنها حتى المطرب الشعبي المحبوب شوكوكو، ولا أعرف على وجه اليقين الدور الذي اضطلع به أبوالقاسم محمد كرو في إنجاز هذه الاتفاقية، وإن كنت أكاد أجزم بأنه كان اللولب المحرك وراءها، فهو يحب أن يعمل في الظل بحيث لا تعرف يسراه ما صنعت يمناه.

وعندما تغالظت من حولي الانكشاريات وقررت الهجرة إلى حيث أنعم بشيء من راحة البال عاقدًا العزم على عدم العودة وعلى الانصراف نهائيّاً عن الأدب وموجعاته، فحصت آخر بريد تلقيته قبل سفري، فإذا الوارد مجلتان من تونس كتب فيهما أبوالقاسم محمد كرو مقالين كريمين عني، ردًا الروح إليَّ. فقلت لنفسي وأنا في هذه الوهدة السحيقة من خيبة الرجاء:

سأشكرُ عمروًا ما تراخت مَنيَّتي
أياديَ لم تُمْنَنْ، وإنْ هي جَلَّتِ
أخ غيرُ محجوبِ الغنَى عن شقيقِهِ
ولا مُظهِرُ الشكوى إذا النعل زلَّت
رأى خلَّتي من حيث يخفَى مكانُها
فكانت قَذَى عينيْه حتى تجلَّت

ولم يكتف أبوالقاسم بذلك، بل حرص على زيارتي في مهجري - غير مسخَّرٍ ولا مأمور - لكي يطمئن على أحوالي. وكذا تكون عظائم النفوس.

وكنت ما زلت أترقب المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة لأن حفله الافتتاحي يهيئ لي مناسبة للقاء هذا الأخ الحميم الصادق الإخاء، فإن أخلف موعده، فهو - على التأكيد - قادم في مناسبة من مناسبات الأنشطة الثقافية التي يشارك فيها على الصعيد العربي كله. ولا تفوت مناسبة من هذه المناسبات، إلا وبيننا مواعيد مضروبة، وعناق يسبق فيه القلب الصدر، فما عرفت في الوفاء إلا قلة تضاهي وفاء «أبوالقاسم محمد كرو» وما شدَّتني عواطف أقوى من عواطف الحبّ المتبادلة بيني وبين «أبوالقاسم».

وأعرف، عن ثقة أن «أبوالقاسم» كان وراء توجيه دعوات رسمية إلى عدد من أدباء مصر لزيارة تونس تعزيزًا للعلاقات بين الأدباء، وعبورًا للفجوة القائمة بسبب الحواجز والتخوم المشيدة للمباعدة بين الأقطار العربية، وقد نعمت وأنا أزور تونس بصحبة «أبوالقاسم» الذي أخلى نفسه من جميع تبعاته والتزاماته لكي يتفرغ لي وكأنه دليلي السياحي المكلف برعايتي والسهر على راحتي واطلاعي على معالم الحضارة والثقافة في تونس التي أعدها وطنًا ثانيًا لي.

ولست وحدي المشمول بعطف «أبوالقاسم محمد كرو» لأن قلبه واسع واسع، وأياديه طوال في إيتاء الخير. فعندما توفي شقيقي الفنان المهاجر في إسبانيا، انبعث أبوالقاسم بوحي من قلبه الرقيق، فكتب رثاءً جميلاً له نشره في صفحة كاملة من جريدة تونسية مع أنه لم يعرف هذا الشقيق، ومع أن صحف بلاده تجاهلت وفاته وجحدت فضله، وهكذا ناب هو عن مواطنيه في إيفائه حقَّه من التكريم، وأدى رسالة الإنصاف دون أن يكلفه أحد. وهو في هذا قد انطلق من سجيته الخيرة وروحه التي أُشربت كل معاني الوفاء والإخلاص والصدق مع النفس.

ومن هذه الشاكلة عينها موقفه من زميلته في الجامعة الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة ذلك أن شائعة ذميمة انطلقت من سنوات بأن هذه الشاعرة قد أخلت مكانها في دنيانا، مع أنها ما برحت تعيش وتطالع الناس بقصائدها العصماء، ولما قرأ أبوالقاسم هذا الخبر المكذوب في إحدى مجلاتنا، تشكَّك في حقيقته فكتب مقالاً ضافيًا في جريدة «الحرية» التونسية يعرب فيه عن شكوكه القوية في هذا الخبر، ثم يستدير لكي ينصف هذه الشاعرة الرائدة التي عرفها عن قرب ونَعِم بزمالتها الجامعية وتابع مسيرتها الشعرية. وكنت من ناحيتي قد استَربتُ بدوري في هذا الخبر، فكتبت إلى أصدقائي في بغداد مستوضحًا حقيقته، فنفوه نفيًا باتًا وقالوا إن الشاعرة تعيش في بيتها مع زوجها وابنها ولم تغادر مكانها من الحياة الثقافية العربية التي عاشت دائمًا في خضمها، ولما أنهيت هذا التوضيح إلى أستاذنا «أبوالقاسم» سرَّه أنَّ تشككه السابق كان في محله، فعاد يبشر قراءه بأن نازك الملائكة ما زالت بيننا، ثم أنحى باللائمة على أولئك الحاقدين الذين يخترعون أمثال هذه الشائعات مع أنها لم تؤذ أحدًا في حياتها. فأبوالقاسم لا يأخذ الأمور بظاهرها، ولا بما يتواتر على الألسنة، ولكنه يدقق في كل ما يسمعه أو يطالعه، ولا يتقبله بيقين، إلا بعد تمحيص وتحرٍّ شخصي، ومتى وقف على الحقيقة أعلنها على الناس مجلوة ساطعة وهذه شيمة العلماء الأصلاء الذين «يعرفون الحق والحق يحررهم» بتعبير السيد المسيح.

وكنت كلما خلوت إلى «أبوالقاسم» في زياراته الدورية إلى القاهرة أزدادُ إيمانًا بأن العروبة الأصيلة هي عروبة المثقفين وليست عروبة السياسيين، فالمثقفون في عرف «أبوالقاسم» وعرفي – يهتمون بالقيم الحضارية العليا التي تجمع ولا تفرق، وهم ينظرون

نظرة زراية إلى التخوم المصطنعة القائمة بين دولٍ مفروض أنها أعضاء في «جامعة عربية» وهم يضيقون بهذه «التأشيرات» المتغالظة التي بدونها يمتنع على أي أديب أو مثقف أن ينتقل من بلده إلى بلد مفروض أنه شقيق. وهم يعجبون للقيود المفروضة على تداول الكتب والمطبوعات في عصر «الإنترنت» حتى بات الكتاب العربي يعامل وكأنه بضاعة أو مهربات وهم يدهشون لأن البريد في عصر الطائرات النفاثة يحتاج إلى أسبوعين أو أكثر للانتقال من بلد عربي إلى بلد متاخم له. وأكثر من مرة ضجَّت نفس «أبوالقاسم» ونفسي بالشكوى من هذه السدود والقيود التي لم يعرف مثلها في زمن ابن بطوطة أو ابن خلدون، أو المتنبي أو محمد الخضر حسين، ولا عرفت في أوائل هذا القرن حين كان رواد النهضة ينتقلون من الشام إلى مصر ليقيموا فيها دورًا لنشر الثقافة والتوعية بالعلوم الحديثة. وكان أبوالقاسم يقول لي: متى يَعْقلُ العرب ويلغون كل هذه الحواجز والسدود بجرة قلم؟ لو فعلوا هذا لانتهت مهمة الجامعة العربية كهيئة سياسية، ولعظمت مهمة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. فالمستقبل للمعرفة والعلم وليس لألاعيب السياسة ومناوراتها. ونحن نجرم في حق أنفسنا إذا أقمنا العوائق في وجه المعرفة والعلم وتوهمنا أن السياسة هي المنقذ.

كانت صرخات «أبي القاسم» تصادف هوًى من نفسي، بل لقد كانت أعلى منه صوتًا في الدعوة إلى إعلاء شأن العلم والمعرفة والأدب والثقافة والكتاب في وطننا العربي الذي جزأه الاستعمار ورضينا بهذه التجزئة بل كرسناها أقدس تكريس! ولقد كان أبوالقاسم بشخصه وبحياته وبكل قواه رسولاً للتآلف والتعاون والتواصل بين أبناء الأمة العربية ومفكريها. وقد حمل أمانة هذه الرسالة من باكورة حياته، وما زال يؤديها أعظم ما يكون الأداء.

ولعلي أوجزتُ في شهادتي عن الحياة الثرية المعطاء لأستاذنا الكبير «أبوالقاسم محمد كرو»، وإنما أردت أن تكون شهادتي شهادة عاطفية مضمخة بالحب العارم لشقيق روحي على الدهر «أبوالقاسم محمد كرو» الذي أجزل لي من موداته ومحبته ومكرماته وأياديه ما يعزّ على كل حصر، وما يؤودني أن أشكره عليه أو أثيبه على بعض فضله. وقصاراي أن أعانق «أبوالقاسم» على البعد، ويا طالما تعانقنا قلبًا بقلب.

****

رائد من رواد تونس في العراق

أ. د. يوسف عزالدين(*)

إذا ذكر أبوالقاسم كرّو ذكرت (تونس)، وإذا ذكرت (تونس) فقد ذكر معها أبوالقاسم؛ فقد كان رائدًا من رواد الثقافة والأدب الذي ربط بين العراق وتونس برباط وثيق من المودة والخلق الرضي والشمائل الكريمة، وتحدث الناس عن أهل تونس وفضل علمائها على الفكر العربي والتراث الإسلامي.

زرت تونس أكثر من مرة وسعدت بالتعرف إلى أدبائها وأنست بالحديث مع شعرائها وكتابها ومفكريها وبقيت العلاقة بيني وبين الدكتور نورالدين صمود والدكتور السوسي والأستاذ العروسي المطوي والأديب الحبيب شيبوب، فقد كان يكتب لي بعضهم ويهدي لي ودهم ومؤلفاتهم.

وقد سعدت في جولة في تونس ألقيت بعض المحاضرات في مدنها المتعددة، حتى وصلت إلى سوسة وقابلت العلماء والأدباء وبعض طلابي فيها، فكان أثر هذه الزيارة عميقًا في روحي، وهزّ مشاعري حب أهل تونس وخلقهم الحضاري وغيرتهم على اللغة العربية والتراث الإسلامي.

وأبوالقاسم الصديق العزيز من الرواد الذين تعرفت إليه في بغداد عندما كان طالبًا في دار المعلمين العالية (كلية التربية الآن) وكنا شابين يافعين حريصين على لغة العرب وعلى تطورها وتقدمها. وكان هو ثرّ الإنتاج يكتب في الصحف المحلية، وله صلات واسعة بالمفكرين والأدباء والشعراء ولم أجد طالبًا عربيًا وصل العراق مثله في النشاط والإبداع مع أن بغداد في تلك الفترة تعج بالطلاب من كل الأقطار العربية.

(*) أكاديمي وأديب وشاعر عراقي من مواليد بعقوبة عام ١٩٢٢، عضو المجمع العلمي العراقي ومجامع القاهرة ودمشق والأردن والهند، له عدد من الدواوين والأعمال والمؤلفات الإبداعية الأخرى.

وكنت قد تخرجت من كلية الآداب جامعة الإسكندرية وطبعت باكورة إنتاجي (في ضمير الزمن) فأهديته له تقديرًا لفكره واعترافًا بجهوده الكبيرة في ساحة الأدب والإبداع فما كان منه إلا نشر مقالٍ عنه في جريدة (اليقظة) للأستاذ سلمان الصفواني رحمه الله، وهو من رواد الصحافة والفكر في العراق. وسعدت بأبي قاسم ومقاله، كان متزن العبارة مرهف الحواس، رقيق الأسلوب، وقد أعاد نشر هذا المقال في (الندوة) في تونس.

إن حبه لأبي قاسم الشابي وتعلقه بأدبه جعله يجمع كل ما قيل عنه وينشره، وقرضت الكتاب ونقدت بعض الجوانب، فوجدته رحب الصدر راضي النفس.. ولم يهمله في كتبه التي أصدرها عن أبي القاسم الشابي.

ولم تنقطع الصلة بيننا، وكان يرسل لي مؤلفاته وأبادله بكتبي التي كنت أنشرها.. ومتى اذهب إلى (بيت الحكمة) الذي كان يظلل رواد الفكر العربي وقادة الرأي من كل العالم في اجتماعاته الناجحة وأحاول في هذه الزيارة رؤية أبي القاسم إذا كان في تونس.

ووصلت اللقاءات في مجمع اللغة العربية بيني وبينه في المؤتمرات السنوية وكان دائب النشاط وواضح المشاركة في الجلسات وكان محبوبًا من الذين عرفوه ومن لم يعرفه.

أعاد لنا أبوالقاسم في بغداد ذكر الأستاذ الثعالبي وشدة صلاته وعمق علمه الذي كان لاجئًا في العراق، وحيّاه الأستاذ معروف الرصافي بقصيدة:

اتونس إنَّ في بغدادَ قومًا

ترفُّ قلوبُهمْ لكِ بالودادِ

وكان أبوالقاسم سفير الود والحب والصداقة وذكرني بأهل تونس الكرام وتونس الغالية التي ما نسيتها، فقد قلت فيها قصيدة نشرت في (همسات حب) منها:

يا تونس الخضراء يا غاليةْ

يا ملتقَى شوقيْ وأحْلامِيَةْ

يا قبسَ المجدِ وإشعاعهِ

ودرّةً للبحرِ والباديه

جَـــــدَدْتِ لـيْ احلى زمــــانِ الصِّــــبــــا
بـروحـكِ الـفــــتَّـــــانـةِ الـشـّـــــاديَـه
فــــــرقــــــرقَ الـزهـرُ بـطيـب الـشـّـــــذا
وغـــــرّد الـبـلـبـلُ والـسَّــــاقـــــيــــــه
اتـيـت مـن (بــغــــــدادَ) فـي لَـهْــــفَـــــةٍ
وكـنـتِ امـَّــــــا بـرَّةً راعِـــــيَــــــه
فــــإنْ نـاتْ (بـغـــــدادُ) عـنـي فــــمـــــا
انـتِ ســـــوى (بـغــــدادي) الـثّــــانيــــه

وفي الوقت الذي أحيي أخي وصديقي الأستاذ الفاضل والباحث الصبور أبا القاسم كرو، أرجو له الصحة والسلامة ولن تنسى خدماته الكبيرة والعطاء الفكري المبدع وبخاصة العناية الشديدة بالشاعر المعروف أبي قاسم الشابي الذي جعله يدخل في كل بيت ويذكره كل أديب، ويترنم بشعره كل أصحاب الذوق المرهف.. فبورك بأبي القاسم كرو وأطال الله عمره في خدمة الحرف العربي المعطاء واللغة العربية والفكر الأصيل وأسبغ عليه العافية.

****

القسم الثاني

الرسائل والشعر

(ترتيب تاريخي)

أخي وصديقي الجليل الأستاذ/ **أبوالقاسم محمد كرو** **المحترم**

تحية عطرة وبعد،،،

أ. كوركيس عواد(*)

فقد وافتني بطاقة المعايدة الكريمة، التي تفضلتم بها عليَّ وعلى أفراد أسرتي. ونحن جميعًا نشكركم أطيب الشكر على هذه العاطفة الأخوية النبيلة، متمنين لكم كل خير وعافية ورخاء.

كما انتهت إليَّ رسالتكم المؤرخة في ١٩٦٨/١/٦. ثم تسلَّمتُ بعد ايامٍ قليلة رزمة الكتب التي تكرمتم بها علي، وفيها من المطبوعات:

- ابن هانئ المغربي
- أركان النهضة الأدبية بتونس
- فتوح أفريقية: للواقدي (١-٢)
- رحلة الشائشي
- القيروان عبر العصور

إن لساني ليعجز عن أداء واجب الشكر والثناء عليكم. ففضلكم في هذا الباب لا ينسى.

كتاب «نخب الذخائر في أحوال الجواهر» الذي نشره الأب انستاس، قد نفدت طبعته منذ سنوات. وبعد البحث عثرت على نسخة منه بعثت بها إليكم منذ أيام، مشفوعة بنسخة من «تاريخ واسط» لأسلم بن سـهل الرزَّاز الواسطي الذي فـرغتُ من طبـعـه في الآونة الأخيرة. أرجو قبولهما هدية صغيرة مني.

أشكركم كثيـرًا لملاحظتكم القيـمـة عن «الصـويرة» وأرغب في الاطلاع على كتـاب «إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة» لمحمد بن سعيد الصديقي، الذي نوّهتم به في رسالتكم. فإن الوقوف عليه يهمني أثناء اشتغالي بكتابي «تواريخ البلدان العراقية: قديمًا وحديثًا».

(*) اديب وباحث ومحقق تراثي عراقي.

تاريخ الدولتين للزركشي، والمؤنس في أخبار أفريقية وتونس، موجودان عندي، وقد اقتنيتهما من مكتبة المثنى في بغداد، أما قلائد العقيان، فلدي منه طبعة قديمة منشورة في باريس ١٢٧٧هـ ولا أعلم شيئًا عن هذه الطبعة التي تفضلتم بالإشارة إليها.

كم كنت أتمنى أن تكون لدي نسخ من مطبوعاتي التي رغبتم في الحصول عليها، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ونسخ «الورق أو الكاغد» و«مكتبة الاسكندرية» و«جولة في دور الكتب الأميركية» قد نفدت منذ عهد بعيد، فالأول لم يطبع لي منه سوى أربعين نسخة ذابت بين يدي في أيام قلائل. فإذا رغبتم في الوقوف عليه، فهو منشور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٢٣ - ١٩٤٨) (ص٤٠٩ - ٤٣٨). أما «فهرست مؤلفات محيي الدين بن عربي، فقد نشر أيضًا في المجلة المذكورة (٢٩ - ١٩٥٤، ص٣٤٥ - ٣٥٩، ٥٢٧ - ٥٣٦؛ ٣٠ - ١٩٥٥، ص٥١ - ٦٠، ٢٦٨ - ٢٨٠، ٣٩٥ - ٤١٠)، ولم تستخرج لي منه نسخ على حدة، ولعلي أوفق لنشره ثانية في كتاب مفرد، وأما «الأسطرلاب»، و«فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس» فسيصلان إليكم عما قريب، وقد أضفت إليهما نسخة من «المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين» و«المخطوطات العربية في دور الكتب الأميركية»، وهذه الأخيرة نشرت في مجلة «سومر» سنة ١٩٥١ واستخرجت لي منها حينذاك نسخ محدودة، نفدت هي الأخرى، وما هذه المرسلة إليكم إلا قصاصة من المجلة ذاتها، ولعل فيها ما يعوض بعض الشيء من «جولة في دور الكتب».

سرني كثيرًا اهتمامكم بكتاب «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» للتيفاشي، بل تحقيقكم له وبأنكم على وشك الفراغ من ذلك، وقد أطْلعتُ أخي ميخائيل عواد، على ما جاء في رسالتكم بصدد هذا الكتاب، وعهدي به أنه معني بتحقيقه عن نسخة لديه، سيرد ذكرها في تضاعيف هذه الرسالة. فلما رأى انصرافكم إلى هذا السِفر، آثر التخلي عنه لكم.

إن نسخة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف من «أزهار الأفكار»، ورد ذكرها في (ص٤) من «مخطوطات الخزانة المعلوفية في الجامعة الأميركية» ذلك أن الأستاذ المعلوف كان قد باع خمسمائة مخطوطة من مكتبته إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. وكتاب

التيفاشي واحد منها. فإذا رغبتم في الحصول على صورة منها بالميكروفلم، فيحسن أن تكتبوا في هذا المعنى إلى الأستاذ جبران بَخْعازي، أمين مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، ففي وسعه تيسيرها لكم.

من كتاب الأحجار للتيفاشي نسختان في بغداد حديثتا الخط. الأولى كانت في خزانتي (برقم ٤٥٢)، ثم آلت إلى «مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليا» بجامعة بغداد. وهي على حداثتها، محققة بعض التحقيق، عليها تعليق وتصحيح. والثانية في خزانة أخي ميخائيل عواد، وهي كسابقتها تحقيقًا وتعليقًا. وفي صدرها، بخط الأب أنستاس ماري الكرملي، ما هذا نصه: «شرح الرموز المستعملة في هذا الكتاب:

- نسخة ف: النسخة (الفتغرافية) المحفوظة في دار الكتب المصرية. وليس فيها تاريخ كتابتها.
- نسخة م: النسخة (المنقولة) عن نسخة قديمة، وليست مؤرخة أيضًا.
- نسخة ق: النسخة (القديمة) التي وجدناها، وتاريخ كتابتها سنة ٦٩٧ للهجرة.

وانظر: معجم المطبوعات العربية والمعربة، ص٦٥١ - ٦٥٢.

نسخة ح: نسخة الأستاذ المحامي حسين الباجه جي».

انتهى كلام الأب أنستاس. قلت: الذي يؤخذ من ذلك أن الأب كان ينوي نشر هذا الكتاب، ولكن تلك النية لم تتحقق. والنسخة القديمة المؤرخة بسنة ٦٩٧هـ، هي من حيث التاريخ كنسخة دار الكتب ونسخة عيسى اسكندر المعلوف. والأمر في اتفاق تواريخ هذه النسخ الثلاث يحتاج إلى وقوف عليها بالذات للتثبت من علاقة الواحدة بالأخرى.

أما نسخة حسين الباجه جي البغدادي، فلا أعلم أين صارت بعد وفاة صاحبها. وليس في كلام الأب أنستاس ما يفصح عن أمرها.

لقد أشار يوسف إليان سركيس، المتوفى سنة ١٩٣٢ (معجم المطبوعات العربية. ص٦٥٢) إلى نسخة أخرى من الكتاب، قال: «وقد فزت بنسخة نفيسة كتبت سنة ٦٩٥، قابلتها مع النسخة الفتغرافية في دار الكتب المصرية. وإن وفقني المولى نشرتها بالطبع».

ولست أعلم أين صارت نسخة يوسف إليان سركيس هذه. وكان الأب جورج شحاتة قنواتي، قد أطلعني في السنة الماضية في القاهرة، على نسخة من أزهار الأفكار، مطبوعة في إيطالية، ولم أكن قد وقفت عليها من قبل، وهي في مكتبة معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين في القاهرة.

ولا إخالكم إلا اطَّلعتم على ما أشار إليه بروكلمان (G.A.L., I 495, SI 904) من نسخٍ خطية لهذا الكتاب. فلا داعي إلى ذكر ذلك هنا. ولكنني أنوه بما لم يذكره. فإلى ما سبقت الإشارة إليه في هذه الرسالة، أذكر نسختين أخريين تحرزهما مكتبة (چستر بيتي) في دبلن (THE CHESTER BEATTY LIBRARY, DUBLIN). الأولى برقم ٣٢٤٨ وتاريخها ٥ رجب ٩٢٣هـ، وهي في ٧٥ ورقة، والثانية برقم ٤٠٣٣ وتاريخها: شهر رمضان ٦٩٧هـ، وهي في ٩٥ ورقة.

وهنالك نسخة أخرى، ذكرها الأب بولس سباط في فهرسته:
SBATH (PAUL), AL-FIHRIS: CATALOGUE DE MANUSCRITS ARABES (VOL.I. LE CAIRE, 1938, P. 93, NO 791).

قال إنها لدى «يوسف سابا» في حلب، ولم يزد على ذلك، ويا حبذا لو بعثتم إليَّ بالفصل المتعلق بمؤلفات التيفاشي، فلعلِّي أضيف إليه شيئًا بالرجوع إلى ما بيدي من فهارس وأثبات.

أختتم بالشكر والثناء والتقدير، مع خالص التحية والاحترام، ودمتم.

لأخيكم

كوركيس عواد

بغداد ١٩٦٨/٢/١٧

****

الأستاذ الكبير والأخ العزيز

أ. عبدالكريم غلاب(*)

تحية طيبة،،،

سعدت بتحيتك التي نقلها إليّ الأخ نجيب خداري. وشرفت بكتبك الأربعة التي قدمتها إليّ مع كتاب أبحاث ومقالات الذي كرّمت أخاك فيه مرتين بالإهداء الكريم الذي أعتزّ به، وبأبحاثك التي تضمنتها عن الشيخوخة الظالمة وبالشهادة التقديرية التي سيتضمنها كتاب التكريم (ستصدره قريبًا مؤسسة سعاد الصباح) ومن أهم ما في الكتاب الشهادات الحية (الصور) التاريخية التي يعود عهدها إلى نصف قرن وخمس سنوات. لم تضع الأحداث التي تسجلها الصور، ولو رحل معظم الذين عاصرتهم وعاصروها، غير أن الحدث ما يزال يسبح في الآفاق لا بد أن يجد مرساته، ولو قذفت به الأمواج إلى أعالي البحار. المغرب العربي سيتحقق؛ لأنه قدرنا.

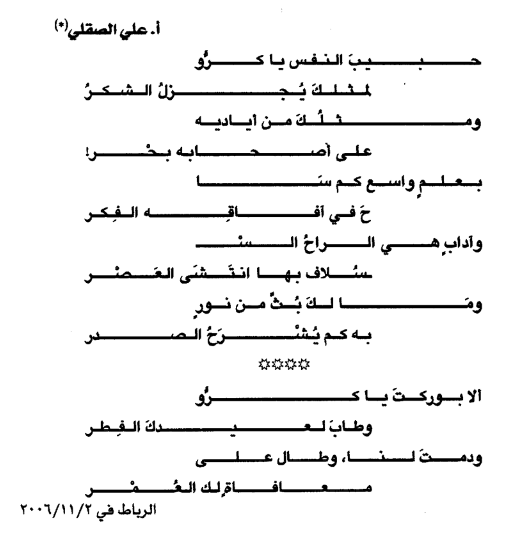
أحيي فيك حيويتك ونشاطك، وأسف لما تعاني من أعراض صحية فهي قدر مشترك بيننا، وهو ظلم جلبته الشيخوخة الظالمة.

متعك الله بالصحة والعافية وبمزيد من الحيوية والنشاط العلمي.

مع صادق تمنياتي القلبية،،،

****

(*) كاتب قصصي وروائي وناقد مغربي ولد عام ١٩١٩ بمدينة فاس، نائب برلماني ووزير سابق. له العديد من المؤلفات.



ألا بوركت

أ. علي الصقلي(*)

حبيبَ النفس يا كرُّو
لمثلك يُجزلُ الشكرُ
ومثلُكَ من أياديه
على أصحابه بحْرُ!
بعلمٍ واسع كم سَا
حَ في آفاقِه الفِكر
وآدابٍ هي الراحُ السْـ
ـسُلاف بها انتَشَى العَصْر
ومَا لكَ بُثَّ من نورٍ
به كم يُشْرَحُ الصدر

✡✡✡✡

ألا بوركتَ يا كرُّو
وطابَ لعيدكَ الفِطر
ودمتَ لنا، وطال على
معافاةِ لك العُمْر

الرياط في ٢/١١/٢٠٠٦

****

(*) شاعر مغربي من مواليد فاس عام ١٩٣٢م، له العديد من الدواوين والمسرحيات والروايات الشعرية. حاصل على جائزة الملك فيصل العالمية.

ثمَّ باركْ لشبل تونسَ عوْدًا

أ. محمد الهادي المدني(*)

قيلت في الحفل الذي أقامه نادي القلم في نوفمبر ١٩٥٤ احتفاء بالأديب العربي الكبير الأستاذ محمد أبي القاسم كرو إثر عودته من بغداد بعد فوزه بالإجازة العليا للآداب.

هـاتِ آياتِ شـعـرك الخـالداتِ
هـاتِ للحـفل جـزلَهـا الفـحلَ هاتِ
إنمـا أنـتَ في قـريضِك نحـّـا
تُ المعـاني وصـاحبُ المعـجِـزات
فَلِمَ الصَّـمتُ، والهـواتفُ من «لُبْـ
ـنانَ» تهـفـو ودجلةٍ والفُـرات؟
تتـقـاضَـيْنَكَ القـصـيـدَ مُـوشّى
بسَنا الخُلْدِ، عـابقَ النَّفـحَـات
وتُسـائلنَكَ المعـانيَ غُـرّاً
سـاحـراتٍ أعـلاقُـهـا، فـاتنات؟
ولِمَ الصـمتُ، والعـروبةُ تهـتـزْ
ـزُ بـأنجـادِها الكُمـاةِ الأباة؟
قَـدَّتِ القَـيْـدَ في طمـوحٍ عن العَـقْـ
ـلِ وقـدَّتْ عـهـدَ البـغـاةِ السُّطاة
وأقـامتْ فـوق السِّـمَـاكَـيْنِ للعلْـ
ـمِ صـروحًـا شـواهقَ الشُّـرفـات

(*) شاعر تونسي له ديوان المدني الصادر عن الدار التونسية للنشر عام ١٩٧٥م.

وجــــرى «النيلُ» بالنُّهى وجــــرَتْ «دجـ

ـلةُ» مَـــوَّارةً بفــيـض الحَـــصَــــاة

وســــقَى اللأهبين فــــيــــضَــــا رويّاً

«بَـرَدى» من آدابـه الـدافـــــقـــــات

وجــــرى شـــاطئ «ببـــيـــروت» رقْــرا

قًـــا باي من الحِـــجَــــا باهرات

وســـــــرَتْ في أشم لـبـنـانَ هـبَّــــا

تٌ بـفَــــوْحٍ من نُــهـــيـــةٍ أرِجــات

وسَـــمـــا النورُ ينشـــرُ الطهــرَ والحكْـ

ـمَـــــةُ للدهر في ذرا «عـــــرفـــات»

✡✡✡✡

إيهِ هذا المجـــالُ (فـــاصـــدعْ بما تُؤْ

مَــــرُ) وانشـــرْ آياتِك البـــيِّنات

صُغْ لأعـــلامِ يَعــرُبٍ فَلَكَ الخُلْـ

ـدِ، ونضِّـــدْ نجـــومَـــه الزاهرات

ثم بارك لشـــبلِ «تونسَ» عَــــوْدًا

لربوعِ الأَقـــةِ بالحـــيـــاة

أبَ بعـــدَ ارتشـــافِـه من بني العَـمْـ

ـمِ كؤوسًـا من حكمـةٍ مُـتـرعَـات

أبَ بعـــدَ استـــجــلائه الأدبَ العَــا

لِـيَ جـمَّ الــنـقـــــاء جَـمَّ الـرواة

أبَ للشَّــعـب بعــد أن زحــزحَ الأحْـ

ـرَارُ في الشَّــعب داجيَ الظُّلمــات

آب للشـــعبِ مُـحْكِمًـا مع غطاريـ

ـفِ الحِـمَى في «بغـداد» خـيـرَ صِلات

فلَهُ اليُمْنُ يومَ آب، ويُمْنٌ،

ثمَّ يمنٌ له بيومِ آت

وله الخلدُ في كتابٍ به الإحْـ

ـسَاسُ أملَى روائعَ الصَّفحات

وله الخلدُ في كتابٍ سميٍّ(١)

له أبدى نواصعَ الآبدات

وله الخلدُ في أثيرٍ روى السُّمْـ

ـارُ عنه لوامعَ النَّفَثات

✡✡✡✡

إيه صِفْ يا أخا النُّهى يا أبا القا

سِمِ، ما شئتَ في ضفاتِ الفرات

صِفْ مناجيدَ ذادةً صِفْ كِرامًا

صِفْ سجايا أولئك السَّرَوات

صِف بدار المنصور ما لِبَني العَبْـ

ـبَاسِ في المنشآت من آيات

وصِفِ القصرَ و«الرشيدَ» واقحَا

حًا بِثَرِّ الحلومِ مُؤتَلِقات

وصِفِ الوثبةَ الجَموحةَ، «والما

مُون» يجني النُّهى ولُبَّ اللغات

وصفِ المرصدَ الذي اخترقَ الحُجْـ

ـبَ وصِفْ كَمْ عَلاه من مِرآة

صِفْ مَجالِي الحِجا، وصِفْ في فتاهمْ

خُلُقًا كالسَّنا، وصِفْ في الفتاة

صِفْ مجاني الآدابِ والشِّعر كالكوْ
ثَرِ أو كالنَّدى على الزهرَات
صِفْ فنونَ الأعلامِ مؤتلفاتٍ
في لقاح النُّهى ومختَلِفات
وصفِ النَّخلَ باسقًا في شُموخٍ
بين سحر الظِّبا ولمعِ الظُّبات
وهلِ الجِسرُ والرصافَةُ ما زا
لا، وهل ما تزالُ عينُ المهَاة؟
وهل الكرخُ ما يزال على العهْـ
ـدِ، أريجًا مُوَشَّحَ الجَنَبات
صِفْ وصِفْ، إننا سنصغي ونصغي
وسنجني بواكرَ الثَّمَرَاتَ
وسيحيا النشءُ العتيدُ طموحًا
مُرْهَفَ الحسِّ صادقَ العزَمَات
وستحظى الخضراءُ بالنصر والفَوْ
زِ وشيكًا بأبعدِ الغايات

من كتاب (ديوان المدني - الجزء الثاني
الدار التونسية للنشر - ط١ - تونس، ١٩٧٥ ص١٠٤ - ١٠٦)

****

أخي الأستاذ الأديب الكبير أباالقاسم المحترم

إليك أطيب تحياتي ودعائي ومودتي،،،

وصلت إليَّ رسالتكم الكريمة تفيض فتوة وحيوية بالرغم من ارتعاش يد كاتبها. فهذه اليد طالما حملت القلم بإباء وكبرياء ودافعت عن أمتها، وهذه اليد طالما كتبت وألفت وخاضت في آفاق الفكر والأدب.

لقد قرأت رسالتك أكثر من مرة وسرحت في آفاق بعيدة بعيدة خصوصًا ما حملته من نبأ أخي الحبيب هلال ناجي وما أصابه من مصاب وهو في هذه المرحلة من الحياة. وقد لمَّح لي بذلك ولم يصرِّح. فساعده الله وآجره وساعد أبناء شعبنا المظلوم من نظام جائر لم يعد صالحًا للحياة ولم تعد الحياة تقبله، لذلك فهو نقيضها فاستحال عدوّاً لها. فالله هو العالم ماذا يحدث في العراق كل يوم بل كل ساعة. فحصار من الخارج وإرهاب لا مثيل له في التاريخ من الداخل، وذلك حال غريب في التاريخ.

قرأت رسالتك فكانت هذه الأبيات أهديها إليك ولتكن في كتاب التكريم إن كان فيه قسم للشعر، وسأكتب مقالة في أدبك تصل إليك أو أبعثها إلى الأستاذ عزالدين حال انتهائي منها إن شاء الله.

يطل علينا خير الشهور شهر رمضان الكريم كما يطل علينا عام جديد. لك منا أسنى الأمنيات ونراك كل عام بصحة ونشاط يفيضان خصبًا وفكرًا.

واسلم للمخلص،،،

د. زهير غازي زاهد

طرابلس – ليبيا

٢٩ شعبان ١٤١٨هـ

٢٧ ديسمبر ١٩٩٧

تحية دجلة

مهداة إلى الأستاذ أبي القاسم محمد كرّو

أ. د. زهير غازي زاهد(*)

سَلِمتَ سَلِمتَ ابا القاسمِ
وبُوركْتَ من عارفٍ عالمِ
وهُنِّئتَ من قلمٍ شامخٍ
فتيِّ الرؤى صابرٍ حازم
إليك نجيُّ السنين التي
اطلَّتْ على زمنٍ عارم
زَهَوْتَ بها زَهْوَ شمسِ الضُحى
وَقُفْتَ بها صَبْوةَ الواهم
وَجُلْتَ بارجائها حالمًا
فَطُوباكَ من يقظٍ حَالِم
نَمَتْكَ العروبةُ، حَسْبُ الإباءِ
تَوقَّدَ في صوتكَ الحاسم
تُحيِّيكَ «دجلةُ»، حُرُّ الضميرِ
وتغفو على طيفكَ الداهم
تَرَدَّدَ صوتكَ في صوتها
واشرقَ ذكركَ دنيا ظمي
ذَهبتَ فَنُزِّهْتَ من ذاهبٍ
وعُدْتَ فَحُيِّيتَ من قادم

(*) اكاديمي ومحقق تراثي وشاعر عراقي، أستاذ في جامعة بغداد وجامعة الفاتح بطرابلس الغرب.

وتَذْكُــرُ أيّامَكَ الناعمـاتِ

«بغـدادُ» ذكرى هوًى ناعـم

تُداعبُها سعَفاتُ النخيلِ

مداعبةَ الوالهِ الهـائم

ويبقى برغمِ غبارِ السنين

«هِلالُكَ» كـالقمـرِ الدائم

✡✡✡✡✡

أبا الحرفِ يا قلمًا ثائرًا

على كلِّ مُنحرفٍ ظالم

قرأناكَ في صفحاتِ النضالِ

سطورُكَ كالصَّرَمِ الصّارم

حملتَ عن الأمّةِ المبتَلاةِ

وصُنتَ حِماها أبا القاسم

ورُحْتَ تنافحُ عن مجدِها

وتدفعُ بالحرفِ والصّارم

فلا غَرْوَ حينَ يعودُ الكُمَاةُ

أنْ عُدتَ كالفارس الغانم

سلِمتَ أبا المجدِ من فارسٍ

يُصانُ به المجدُ من هاشم

فشيَّدتَ بالحرف صرحَ الحياةِ

وهدَّمْتَ صرحَ الخَنا الآثم

فبُوركتَ من مُنشِدٍ لا يُمَلُّ

وبُوركتَ من ناطقٍ كاتم

نجومُكَ يا كوكبَ المشرقيـ

ـن من «تونسٍ» فلَكُ العالَم

تدورُ فتهدي بُناةَ العقو
ل مِن روحها يقظةَ العالِم
حُروفُكَ تسبيحةُ الدارسينَ
وصوتُكَ ترنيمةُ الحَالِم
ورؤياكَ اغرودةٌ حُلوةٌ
تعطّرُ من فجرنا الجَاهم
نجومُكَ يا كوكبَ المشرقين
مرافئُ حلمٍ لنا باسم
تدورُ فيصدحُ منها الدعاءُ
سَلِمْتَ سَلِمْتَ ابا القاسم

****

القسم الثالث

أبو القاسم كرّو في الكتب والدوريات

مقالات مختارة (١٩٤٨ - ٢٠٠٤)

(الترتيب في هذا القسم تاريخي)

في الكتب

حصاد القلم
أبو القاسم في كتابه

أ. عبدالله زكريا الأنصاري(*)

الاستاذ أبو القاسم محمد كرو أديب عربي، ولا نقول تونسي، لأننا لا نعترف بهذه الحدود المصطنعة في بلاد العرب، وإن حلا لبعض الناس أن يرددوا في كل مناسبة، وفي كل مقام، هذه الجنسيات المتباينة المختلفة، ويطلقونها على أفراد أو جماعات، جنسيتهم الأولى ولغتهم وثقافتهم وآمالهم وآلامهم عربية بحتة، لا تشوبها شائبة، ولا يدخلها شك من الشكوك. ولكن رواسب الزمن القصير أو الطويل، وهذا الوضع الشاذ القلق في بلادنا، أدخل في روع الأكثرية منا أن العرب جنسيات متباينة مختلفة، وأن العرب أمم متفرقة متعددة.. وما كان هذا الشعور لينمو ويزداد حتى يصل الى هذا التطور الخطر لو لم يذكه في النفوس الاستعمار والمستعمرون، الذين عملوا ما وسعهم العمل في تفريق الكلمة، وتمزيق الشمل، وتقويض الاتحاد، ومن ثم إقامة الحدود وبنائها بناءً محكمًا على هذا الأساس:

ليس بين العراق والشام حَدٌّ هَدمَ اللهُ ما بَنْوا من حُدودِ

وما كان الاستعمار والمستعمرون ليتمكنوا من بثّ هذه الفرقة لو لم يأتوا الى العرب وهم في شبه غيبوبة عما يدور حولهم من فتن، وما يحيط بهم من أخطار، وما ينتابهم من تفكك وتخاذل، والكلام في هذا الباب ذو شجون وشجون.. ولا مجال له هنا ونحن نكتب هذه الكلمة عن هذا الحصاد الأدبي العربي.

وما قلناه الآن لا يعني أن يتغنى كل عربي بمسقط رأسه في موطنه العربي، وإنما يتغنى به كما يتغنّى الفرد من الأسرة ببيته الذي ولد فيه ونشأ على حبه، وترعرع بين حيطانه، كما نشاهد أديبنا الحر وهو يتغنّى بتونسه العزيزة عليه وعلى كل عربي أبي.

(*) أديب وشاعر كويتي من مواليد ١٩٢٢، له أكثر من (١٠) مؤلفات، شغل عدة مناصب ثقافية ودبلوماسية. توفي عام ٢٠٠٦م.

وتونس جزء من بلاد العرب التي ابتليت بالاستعمار، كما ابتلي غيرها من أجزاء البلاد العربية الأخرى، ولا غرو أن يتغنّى بها هذا الأديب في هذا الحصاد الأدبي، بل لقد تغنّى بها كثير من العرب الأحرار، وهم لم يروها قط، ولم يتنسموا تربتها الطاهرة التي طالما روتها دماء زكية طاهرة.

و(حصاد القلم) مجموعة مقالات وطنية أدبية عزّ على كاتبها أن تظل مبعثرة في ثنايا الورق المنشورة في الصحف المختلفة، لهذا جمعها في هذا الكتاب، لتظل عنوانًا خالدًا، ولتمثل ثورة الأحرار العرب على الغاصبين والمستعمرين، وهي مقالات أشبه ما تكون بالغناء والبكاء معًا. ولعل في نشرها في هذا الكتاب خيرًا للأمة العربية بأجمعها.

ونحن حينما نقرأ هذه المقالات نشعر بالنشوة الروحية، وبالاعتزاز القومي يجري في دمائنا فنظل نتغنّى بها كما تغنّى بها كاتبها، بل لعلنا نقرأها ونتأثر بها أكثر مما تأثر بها صاحبها الحر، وهو يرددها كلمات حارة شجية تبعث في النفس الحياة، وتثير في الروح الكبرياء والعزة والأنفة والتحفز لاسترداد المجد الضائع، والتراث الأدبي الخالد، والسؤدد الذي بناه أجدادنا فكان عنوانًا لفخرهم وعزهم.. ولعل يوم العز والمجد العربي يعود بانتشار مثل هذه الروح العربية الأبية في نفوس شباب العرب.

(مع الكتب والمجلات - مقالات في الأدب والسياسة والاجتماع

ص ١٨٢ - ١٨٤،

الناشر: المكتب العربي للطباعة والنشر والتوزيع - الكويت).

كتبت المقالة عام ١٩٥٤

****

قضايا الشعر المعاصر

د. أحمد زكي أبوشادي(*)

... و«أبوالقاسم الشابي: حياته وشعره»، كتاب ممتاز لأديب ممتاز عن شاعر ممتاز. ألّفه أحد نوابغ الأدباء التونسيين السيد «أبوالقاسم محمد كرُّو» من خريجي دار المعلمين العالية ببغداد، ومن الشباب الناهض الواعي الوطني الغيور الذي درس وساح وفكّر، ثم بدأ يُزكّي عن معرفته لأبناء الضاد جميعًا، فأتحفنا بنخب من شعره المنثور، في كتابه (كفاح وحب)، ثم نفح العربية بدراسة ممتعة لحياة أبي القاسم الشابي وشعره، سيُتبعها بدراسة أضخم.

وتقع هذه الدراسة التي نحن بصددها، في كتاب ينتظم ثماني وثلاثين ومائتي صفحة، من القطع المتوسط مطبوعة طبعًا أنيقًا، ومزدانة بصور ملوّنة جميلة، للقصائد البديعة التي أثبتها أو على الأصح لأهمها بريشة الفنان «ع. شهال»، وقد عُنيتْ بإخراجها في صورة جذابة «المكتبة العلمية» ومطبعتها في «بيروت».

وما كان الأستاذ «كرُّو» ولا شاعرنا العبقري «أبوالقاسم الشابي، بحاجة إلى شيء من البهرج والتزويق، ومع ذلك فإنه يبهجنا أن نرى الطبع الأنيق، والشعر الأنيق، والرسم الأنيق، في مثل هذه الوحدة الجميلة الخلابة.

وبروح المعلم، وأسلوب الأديب الشاعر المعلم، يُحسن «الأستاذ كرُّو» في تقسيمه الكتاب وفي عرضه موادّه فيتحدث بعد مقدمته البليغة، عن الحياة الثقافية في «تونس» القديمة، ثم عن النهضة الحاضرة، فعن حياة الشاعر وبيئته الاجتماعية، وعن تأثره بالأدب المهجريّ، وعن طاقته التصويرية والتعبيرية، ثم عن زواجه وحبه وعن مؤلفاته، ثم يأتينا بمختارات شائقة من شعره فيقسمها قسمين:

(*) من مواليد القاهرة عام ١٨٩٢م، عاش بين وطنه مصر وامريكا. انشا جماعة ابولو عام ١٩٣٢، وهاجر إلى امريكا عام ١٩٤٦ وتوفي بها عام ١٩٥٥ له (١٧) ديوانًا شعريًا.

أولهما: ما يرجع إلى ما قبل العشرين، وثانيهما: ما يرجع إلى ما بعد العشرين من سني الشاعر حتى وفاته، ثم يختم كتابه بنماذج رائعة من نثر الفقيد ومعظمه بمثابة شعر منثور.

وليس بوسعنا في هذه الإلمامة أن نتناول تفاصيل ما عرضه المؤلف الفاضل، تمهيدًا للكلام عن المعيَّة «الشابي» ولكن بحسبنا أن نشير إلى أن هذا النابغة ظهر – ككثير من النوابغ – في وسط متأخر بحكم الظروف السياسية والاجتماعية المعروفة، فلم يتجاوب ذلك الوسط معه، ولكنه ارتفع فوق الوسط كما ترتفع المنارة، فلا تحس بها الأرض التي تحتها، ولكنها تشع إلى مسافات بعيدة.

وفي بداية الكتاب اهتم المؤلف بالتنبيه إلى أن صحة اسم شاعرنا هي «الشابّيُّ» لا «الشَّابِي»، نسبة إلى «الشابيّة» إحدى ضواحي مدينة «توزر» كبرى بلاد «الجريد» بالجنوب التونسي. وهذا غير مجهول في الشرق العربي الذي يميل أهله عادة إلى تخفيف النطق بالأسماء – ولاسيما في مصر – ومن ثمة نطقوا اسم شاعرنا المحلّق بالباء المخففة والياء الممدودة، وجاراهم الخاصة في هذا النطق، وإن لم يجهلوا الوضع الأصلي لاسمه.

وقد أعجبنا بتحليله للعناصر التي أسهمت في تكييف حياة الشاعر، وأغلبها مزيج من الأحزان والحرمان، ويالها من عناصر أثيمةٍ تألبت على كثيرين من الموهوبين فصهرتْهم صهرًا، وضحّتْ بهم لتغنمَ نورهم الوهاجَ المنبعثَ من احتراقهم!...

وبين الخيوط التي حاكها «الأستاذ كرُّو» في نسج سيرة «الشابيّ» بيئةُ الطبيعة الجميلة التي حفّت بالشاعر، ودراستُه الواسعةُ، التي انتهت بتخرجه في كلية الحقوق التونسية في سنة ١٩٣٠م، وهو في الحادية والعشرين، ونكبته بوفاة والده عائل الأسرة، وفشله في زواجه، ومرضه الطويل المؤلم إلى أن توفي في الثامن من شهر أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٣٤م غيرَ متجاوزٍ خمسةً وعشرين عامًا، إذ ولد مع الربيع في آذار من سنة ١٩٠٩م.

يقول المؤلف الكريم في رسالةٍ أدبيةٍ إلينا بتاريخ الخامس من مايو سنة ١٩٥٣، جاءتنا إثر تسلُّمنا كتابه الممتع:

«يسرني أن تتفضلوا بإبداء رأيكم... خصوصًا أن لكم صداقة شخصية قديمة بالفقيد «الشابيّ»، ويعود لكم الفضل الأول في تعريف القراء بأدبه منذ عشرين سنة مضت، وحتى اليوم، وأنتم تكتبون عنه في مناسبات مختلفة دراساتٍ عميقةً قوية، ومع ذلك فإن أدب «الشابيّ» لا يزال بحاجة كبيرة إلى البحث والكتابة والدرس.. وكم كان مؤسفًا حقًا موقف أهله بعد موته. ورغم مرور ثمانية عشر عامًا على وفاته فإنهم لا يزالون مصرّينَ - في عناد الحمقى والجهلة - على عدم نشره، لا لسبب سوى عقلية محنَّطة وأفهام متحجرة. وهكذا لم أجد مناصًا من العمل، بكل ما لديَّ من جهود وإمكانيات، على خدمة هذا الفقيد المنكوب في حياته وبعد موته..

لقد كان أهله سببَ موته المادي، وهاهم أولاء اليوم يتآمرون على قتله المعنوي، فيرفضون في عنادٍ نشرَ مؤلفاته وديوانه المعد للطبع رغم كل العروض المغرية التي عرضت عليهم. وقد كان الفقيد أعدَّه للطبع واتفق معكم - حسبما أظن - على طبعه في مصر، ثم عاجله الموت قبل أن يرسل إليكم الديوان بيوم واحد. هذه حقائق لست أدري إذا كان لكم علمٌ سابق بها أم لا.

وقد رأيت - كأحد مواطني «الشابيّ» - أن أنشر عنه كل ما هو عندي من أدبه ومعلومات حياته خدمة له وللأدب العربي الذي يعتز بالشابي. فكان أول عمل قمت به هو نشر كتاب يشمل دراسة طويلة لحياة الفقيد وبيئته ومؤلفاته ثم عرض نماذج مختارة من شعره ونثره لتكون لدى القراء صورة كاملة عنه. ولست أدري مدى نجاحي في عملي هذا، ولكني أعلم مدى إخلاصي فيه وحبي للشابي. على أنني سوف لا أقف عند هذا، بل إنني سأواصل العمل على إنجاز كتاب ضخم عن «الشابي» يكون أكبر مرجع لحياته وأدبه. وأنا الآن بصدد إعداد هذا الكتاب الذي يحتاج إلى زمن طويل؛ كي ينجز على أكمل وجه مستطاع، وإنني أرحب سلفًا بكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم وتوجيهاتكم، ويسرني كل السرور أن ألقى منكم كل اهتمام وعناية ومعونة!...».

وإننا لنبادر فنقول:

إن العمل المجيد الذي قام به «الأستاذ كرُّو» هو في حدٍّ ذاته خدمة جليلة لذكرى «الشابيّ» وأدبه، ونحن على علم بما ذكره، وقد كانت رغبة الفقيد العزيز أن نكتب مقدمة دراسية تحليلية لديوانه، وأن تتولى إصداره في مصر «جمعية أبولو» التي كان في طليعة أعضائها المراسلين، وأن وصيته لم تنفذ!... لقد تجمعت لدينا رسائلُ كثيرة من الفقيد العزيز، تعد بأسلوبها العالي وبصراحتها الوجدانية من عيون الأدب الفكري والعاطفي معًا، ولكنها، مع مئات الرسائل الأدبية من أدباءَ وشعراءَ اعلامٍ شرقًا وغربًا – وبينهم شعراء وأدباء بارزون في المهاجر – قد ضاعت تحت وطأة العهد البائد في مصر قبل هجرتنا وبعدها، وكنا نُؤثر ضياع بقية مكتبتنا المخزونة على أن تنال الأيدي المتطاولة المتجسسة ذلك الأدبَ الحيَّ والتاريخ الأدبي المعاصر الذي سُلِب منا، وقد جاء ضياع تلك الرسائل القيمة التي تجمعت لدينا منذ ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٤٦م. من اقسى المآسي الأدبية المتعددة التي نُكبنا بها في حياتنا المضطربة.

أما وهذا المصدر الهام لدراسة نفسية «الشابي» ليس تحت أيدينا، فليس لنا إلا أن نُشاطر الأستاذ «كرُّو» الأمل في أن أصدقاء الفقيد العزيز، وفي مقدمتهم الأديب الموهوب الأستاذ «محمد الحليوي»، وشقيق الفقيد الأستاذ «محمد الأمين الشابي» سيتمكنون أخيرًا من إنقاذ الآثار الباقية للشاعر الفقيد، من أيدي أسرته، ونشرها للعالم العربي، ولعالم المستشرقين، ودارسي الأدب المقارَن، ففي ذلك تشريف للأسرة بالذات وتشريف لأبناء الضاد جميعًا.

وبعد، فقد رأينا «الأستاذ كرُّو» يتحدث عن تأثر «الشابي» بالأدب المهجري، وعندنا أنه لم يتأثر به أي تأثرٍ خاص، ولو جاء شطر أو بيت له في صياغته الكلاسيكية – مع اختلاف المعاني – مماثلاً لصياغة «جبران» أو سواه، مثلما تقع الحافر على الحافر؛ كما يقال.

لقد كانت للشابي ذاكرة «فوتوغرافية»، وهو الذي أتم حفظَ القرآن الشريف في التاسعة من عمره حفظًا كاملاً؛ كما كان له اطلاع واسع – عن طريق اللغة العربية التي لم

يكن يعرف سواها – على آداب شتى مترجمة، لا على الأدب العربي وحده، وكانت له قبلَ كل هذا وبعده لوذعيةٌ أصيلة حلّقت فوق كل تقليد وتأثر حتى منذ نعومة أظفاره، وعلى ذلك لنا أن نعتقد أن أية مشابهة بين شعره، وبين بعض الشعراء المهجريين، هي من باب المصادفة لا أكثر. ولعل أعظم تجاوب للشابي كان مع زملائه شعراء «أبولو» حتى قبل ظهور مدرستها!... ونحن شخصياً أولعنا بالشابي لا لعبقريته الفنية فحسب، بل لإنسانيته الرفيعة ولوطنيته السامية أيضًا. وكان التجاوب بيننا تاماً مع تميزه هو بأناقةٍ لا نعرف لها نظيرًا إلا في قصائد الشاعر الفحل العظيم «بشارة الخوري»، مثالُ ذلك موسيقى «الشابي» في قصيدته الخالدة «صلوات في هيكل الحب» التي يقول في مطلعها:

عذبةٌ أنتِ كالطفولة، كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد!...

فهي متجاوبة مع قصيدة «عرس المأتم» التي كان يعجب بها «الشابي» «ديوان زينب» وقد جاء في مطلعها غير المسبوق إلى طرازه:

عذبةٌ أنت في الخفاء، وفي الهجر، يا أغاني الظلام!...

بلّغي العاشقَ الأمين مدى العمر شقاءً لقلبه المستهام!...

وارقئي أدمعي، فحسبي عزاءً أن يُسَرَّ الحبيبُ من إيلامي!...

ومثال آخر قصيدته العظيمة «إرادة الحياة» فإنه متجاوب في مغزاها مع الشطر الأخير من قصيدة «النهضة إرادة» «ديوان الشفق الباكي»، وقصيدته الجميلة «الصباح الجديد» التي يقول في مطلعها:

اسكتي يا جـــراحْ واسكني يا شـــجـــونْ!

فهو متجاوب فيها بطراز موسيقاها مع قصيدتين رائدتين هما «قصيدة الوداع»، «قطرة من يراع – الجزء الثاني» وقد جاء في مطلعها:

انْتَـــهِبْ يا شـــعـــاعْ

نبضَ قلْبي الحـــزينْ

حـــــــانَ وقـتُ الـوداعْ
لـيــــــتَـــــه لا يَـحـينْ
انتــــهبْ يا شـــعـــاعْ
أنـا ذاك الـقـــــــريـبْ
إنَّ روحـي مُــــشــــاعْ
في مَـــداك الـعـجــيبْ!...

وقصيدة «بعد الصيف» «ديوان أشعة وظلال» التي جاء في مطلعها:

اضـــــحكي يا رمـــــالْ
مِـن هـديـرِ الميـــــــاه
غـــابَ مُلْكُ الخــــيــالْ
وتجـلَّـى سِـــــــــواه
ذاك بحـــــرُ الدمـــوعْ
مـن بكـاء الـزَّمـــــان
فــــهــو دوْمًــا مَــرُوعْ
مِن مـــــالِ الـهــوان
كـلُّ حُـــــــسْنٍ بَـنـاهْ
بـيـــــــــديْـهِ يَـزول
ومِـــــــــرارًا رثَــاه
وأطـال الـعـــــويـل
اضـــــحكي يا رمـــــالْ
مِن فُـــتـــوني العظيم
أنا عـــبـــدُ الجـــمـــالْ
الـضَّــــريـرُ الحـكـيم!

وكان «الشابي» كما كان «ناجي» – رحمة الله عليهما – معجبًا بكلتا القصيدتين، وكلاهما نسج على منوالهما. فإذا أراد «الأستاذ كرُّو» التوسع في مبلغ تجاوب «الشابي» مع شعراء عصره، فليتجه إلى الشرق قبل اتجاهه إلى الغرب.

ومهما يكن من شيء فإننا نؤمن بأن «الشابي» كان ذا عبقرية فنية أصيلة في منتهى الأناقة، كما كان وطنياً عظيم الإخلاص متأهبًا للزعامة في بيئته، وفي هذا يختلف عن «ناجي» الذي اقتصر جلُّ شعره على وجدانياته الذاتية، وغنائياته العاطفية، ولم يسهم في الحركة الوطنية.

وكان هذا من أسباب ولوعنا بالشابي الذي يوصف إجمالاً بأنه الفنان المبدع المحلق، والإنساني النبيل والوطني الغيور المضحِّي. وقد حقق بمثاليته الشريفة تأميلنا في أن يكون الشاعر زعيمًا هاديًا بين بني قومه، إن لم يكن أيضًا زعيمًا إنسانياً. وفي هذه النزعة والتعبير عنها كان تجاوب «الشابي» معنا كاملاً، وكنا نعمل كجنود في فرقة واحدة.

أما ما نقترحه إلى جانب استقصاء التفاصيل للدراسة، فهو شرح شعر «الشابي» ونقده نقدًا فنياً مقارنًا قصيدة فقصيدة، فتنتج عن ذلك دائرة معارف أدبية لغوية فنية واسعة يخدم بها الأدب الحديث؛ كما تنصف به مواهب شاعرنا الخالد الذكر.

إننا لمشغوفون فخورون بتدريس شعر الشابي وأدبه وبالتحدث عن سيرته الزكية ولن نملَّ ذلك، ونعتقد أن قراء العربية لن يملوا من قراءة ما كُتِب وما سيكتب عنه، ولو تعددت التراجم والدراسات، ونعتقد أت كتاب «الأستاذ كرُّو» هو من خيرة الدراسات التي قرأناها عن أي شاعر أو أديب، فإليه نكرر التهنئة كما نزجيها إلى الناشرين المحْسِنِين.

من كتاب: (قضايا الشعر المعاصر - أحمد زكي أبوشادي،
ص ١٤٤ - ١٢٢،
الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر)
القاهرة ١٩٥٩

****

أبو القاسم كرو

أ. أنور الجندي(*)

«كان الاستعمار الفرنسي في أثناء احتلاله البغيض الطويل لوطننا، يهدف في ميدان الثقافة والفكر إلى غايتين خطرتين بين غاياته الخطرة المتعددة هما:

١ - نشر الجهل الكامل بكل ما يتعلق بتاريخنا وماضينا، وكل ما يتصل بتراثنا الممتاز ورجالاتنا الخالدين بين المتعلمين في مدارسه، حتى يشب أبناؤنا وهم لا يعلمون عن تاريخ شعبهم وأمجاده وتراثه أي شيء، بل يعتقدون أن شعبهم ليس له تاريخ ولا ماض ولا تراث أو رجال يُعتز بهم، بل هو شعب تافه ضائع عبر العصور، تاريخه ظلام وماضيه عقيم.

٢ - تعليم أبنائنا كل صغيرة وكبيرة عن تاريخ فرنسا وأمجاد فرنسا، وجغرافية فرنسا، وأبطال وعظماء فرنسا، حتى يشبوا وهم يعتقدون أن فرنسا هي موطن الحضارة ومنبع المعرفة، ومصنع العباقرة الخالدين من علماء وأدباء وفلاسفة وفنانين ونبغاء في شتى الميادين.

وغاية الاستعمار من هذين الهدفين واضحة كل الوضوح، وهي أن يثير في نفوس أجيالنا الاشمئزاز من الانتساب إلى أمتهم، واحتقار ماضيها الفارغ وتاريخها السقيم، وجعلهم ينظرون إلى فرنسا في هالة من الإجلال والتقدير، دونها جلال الآلهة وتقديس الأنبياء.

والأمة التي يستطيع الأجنبي أن يغير مقاييسها ويبدل ولاءها ويزيف شخصيتها ويمسخ عقلها إنما هي أمة تافهة حقاً، ضائعة فعلاً، مصيرها الفناء ونهايتها الزوال.

والاستعمار بعد ذلك يرمي إلى وأد الشعور بالكرامة والإحساس بالذات التاريخية التي تملأ النفس اعتزازًا والقلب إيمانًا والفكر بصيرة ووعيًا بكيان الأمة وحقها التاريخي - فضلاً عن الواقعي والطبيعي - في أن تعيش أمة مستقلة بحياتها ونظامها وشؤونها مثلما هي مستقلة بذاتها وتاريخها وأمجادها.

(*) اديب وشاعر من مواليد سلمية محافظة حماة بالجمهورية العربية السورية عام ١٩١٧م.

ولهذه الأسباب مجتمعة كانوا يعلمون أولادنا في مدارسهم عظمة ديكارت ونابليون وجول فيري، ويهملون تمامًا عظمة ابن خلدون، وأسد بن الفرات، وخير الدين التونسي. بل إن ضميرهم قد بلغت به الغواية والإثم حدّاً سمح لهم بأن يعظِّموا «جول فيري» الذي فرض على تونس الاحتلال والأغلال، وما يتبعهما من عبودية ومهانة، أن يعظموه بكل مظاهر التعظيم والإكبار، فأقاموا له تمثالاً في أعظم شارع بعاصمتنا، وأطلقوا اسمه على نفس الشارع، بل بلغت بهم الحماقة وجرأة التحدي أن سمّوا مدينة كاملة باسمه «فيري فيل» بينما لا نجد أي ذكر لرجل آخر عاصره وقاوم سياسة بلاده التي كانت تكيد لنا وتهيئ الظروف لاستعماره وابتلاع وطننا، ذلك هو «خير الدين» الذي كان يبذل كل جهد، ويعمل بكل وسيلة لإيقاف الخطر المتربص.

ويصل الاستعمار إلى نهاية الضلال والأنانية العمياء، حين يمحو كل أثر لخير الدين في هذا الوطن، وخاصة في المدرسة الصادقية، ذلك المعهد الذي أسسه خير الدين ليكون نواة المعرفة الحديثة، ومصنع الرجال الجسورين الذين سيغيرون وجه التاريخ، ويتحملون الأعباء التي عجز خير الدين عن حملها، ويحفظون لتونس كيانها وشخصيتها».

✡✡✡✡

تتمثل في كلمات «أبي القاسم كرو» معالم فكره، وصورة أهدافه، في عمله الكبير الذي قام به منذ عام ١٩٥١، عندما أصدر كتابه «ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي».

وقد جعل من دراسات الأعلام مجاله الأوفى، وله في هذا أربع دراسات هامة عن: خير الدين التونسي، ابن خلدون والعرب، الشابي (كتب عنه ثلاثة مؤلفات) وطاهر الحداد، ومن أعماله سلسلة (كتاب البعث) التي أصدرها وأولاها جهده سنوات متوالية استوعبت دراسات بأقلام أغلب كتّاب تونس: عثمان الكعاك، محجوب بن ميلاد، محمد الحليوي، محمد مزالي، محمد العروسي المطوي، الطاهر الخميري، مصطفى رجب، عبدالكريم بن ثابت.

كما نشر لكتّاب الجزائر والمغرب من أمثال: أحمد رضا حوحو، وعبدالمجيد بن جلون، ومحمد الصباغ، ومبارك الميلي.

واستوعبت السلسلة دراسات للمرأة العربية: ناجية ثامر، ونزيهة الديلمي، أما أبو القاسم نفسه فقد قدم بها عديدًا من الدراسات المنوعة، وشارك بها في أحداث العالم العربي وقضاياه، وأمامي كتابه (صوت الجزائر) الذي آزر به ثورة الجزائر في إبانها بعمل فكري نافع. وفي كتابه «مايو أو ماي شهر الدماء والدموع» صور رائعة عن كفاح المغرب العربي، واحتلال الجزائر وتونس وقصة الظهير البربري (المغرب) والمؤتمر الأفخارستي (تونس) وحادث سطيف (٨ ماي) في الجزائر. وقد استعنا بهذه الأبحاث في دراساتنا عن المغرب العربي، ولا شك أن (كرو) كان «أول من اهتم بالشاعر التونسي المغربي النابغ «الشابي»، وكتابه عنه أول ما كتب في الأدب العربي المعاصر، وهو الذي فتح الباب لعشرات الدراسات والبحوث.

كما أولى ابن خلدون اهتمامًا كبيرًا، وناقش كل ما وجه إليه من اتهامات، وما كتب عنه طه حسين وأحمد أمين وسلامة موسى ومحمد عبدالله عنان..

يقول «في اعتقادي أن لبعض المستشرقين يدًا آثمة، في إفساد تاريخنا وتشويه حقائقه وأمجاده، وهو ما يمكن تمامًا اعتباره امتدادًا للشعوبية الفارسية القديمة، حيث أصبح لأوربا، وللغرب بوجه خاص، هدف معلوم ومقصود لتشويه تاريخنا وإعطاء حوادثه وحقائقه تفسيرات خاصة، تهدف إلى التقليل من شأن العرب، وإلى إحداث الفتنة والبغضاء بين أفراد الشعب الواحد، بدعوى اختلاف العرق أو السلالة أو اللغة والتاريخ».

✡✡✡✡

وأبو القاسم محمد كرو من أبرز كتّاب المغرب العربي، وقد أعد نفسه لكشف الصفحات المجيدة في تاريخ تونس والمغرب.

أعطى أسلوبه هذا الطابعَ المشرق تعدُّدُ مناحي ثقافته الزيتونية القاهرية العراقية، فقد أتيح له أن يتلقى دروسه الأولى في الزيتونة موئل الضياء في الشمال الإفريقي، ثم هاجر ١٩٤٨ إلى الشرق العربي عن طريق ليبيا، حيث التحق بالجامعة المصرية، ثم كان في أول بعثة تونسية للعراق، أرسلها مكتب المغرب العربي بالقاهرة، فالتحق بالكلية العسكرية، والتحق بالمعلمين العالية وتخرج فيها ١٩٥٢.

فلما عاد إلى «قفصه» مسقط رأسه أسس جمعية شباب ابن منظور، ومنذ ذلك الوقت بدأ نشاطه وعمله في مجال التأليف والنشر، فكتب للإذاعات العربية والصحف العربية، وألقى عديدًا من المحاضرات، وأتيح له أن يزور الشام وأن يقيم بالعراق أربعة أعوام، وليبيا عامين، حيث اشتغل بالتدريس في مدرسة طرابلس الغرب الثانوية، فتولّى التدريس في الزيتونة، وقد أصدر أخيرًا مجلة (الثقافة)، وله كتابات منثورة في معظم صحف المشرق والمغرب، وله اهتمامات كبيرة بالأدب العراقي، وبالشعراء العراقيين على وجه الخصوص.

ولم يدع كرو مجالاً دون أن يثبت قدمه فيه، وفي مجال القصة له «كفاح وحب» تأثر فيها بأسلوب المهجريين، مع الاحتفاظ بطابعه ككاتب مغربي عربي.

من كتاب «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا»،

ص ٢٤٨ - ٢٥١،

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر

القاهرة: ١٩٦٥

****

(الشابي... حياته وشعره)(*)

تأليف: أبوالقاسم محمد كرو

أ. رضوان إبراهيم(**)

لا يملك مؤرخ الأدب المعاصر أن يُغفل عن سجل الشعراء الخالدين شخصية أبي القاسم الشابي وتراثه.

كما لا يملك وهو يكتب عن الشابي أن يستغني عن المصدر الغني والأصيل في التعريف الكامل بالشابي، وهو كتاب الكاتب الناقد التونسي أبي القاسم محمد كرو.

والكتاب الذي نعرضه اليوم هو أول كتاب عام مستفيض كتب عن الشابي، وهو كذلك أول إنتاج لأبي القاسم كرو ولكنه بحث علمي مكتمل الجوانب، يدل على قدم راسخة في البحث، وليس تجربة كاتب مبتدئ.

ومن المقدمة يتبين لنا منهج الكتاب وهدفه، كما يستبين الجهد الذي بذله المؤلف ليجيء كتابه مرجعًا يطمئن إليه الباحثون والدارسون في أدب الشابي، فقد أراد أن يعرِّف الشابي إلى القراء العرب في أقطار الشرق، باعتباره علمًا من أعلام النهضة في تونس، وشاعرًا من زعماء المجددين في الشعر العربي المعاصر، كما أراد أن يعرض على الناس آلامه وعذابه وشقاه وأساه مجموعة في أول كتاب عن حياة الشابي وأدبه.

ولقد استقى الحقائق من مصادرها الأصلية، واستخلص المعلومات من البيئة التي عاش فيها الشاعر، ومن كل المنابع ذات الصلات الوثقى بالشاعر وبحياته، واتصل بمعاصريه ومخالطيه، وكان يبحث في كل كبيرة وصغيرة، ويسأل عن الأشياء القليلة الأهمية والبالغة القيمة، ما دام في معرفتها شيء من العلم والفهم لنواح جديدة من حياة الشابي وأطوار شاعريته.

(*) طبع لأول مرة في بيروت عام ١٩٥٢ والكاتب يتحدث عن الطبعة.

(**) أديب مصري ولد بالقليوبية عام ١٩١٩ وتوفي في القاهرة عام ١٩٧٦م.

والحق أن الشابي ظاهرة عربية في الأدب المعاصر، نضج في وقت مبكر من حياته واختطفه الموت في وقت مبكر من الفجر كذلك، وعاش حياة قصيرة ولكنها عميقة كأبطال الأساطير.

وحفاوة المؤلف به تجعلنا نعايشه ونتعاطف معه ونحنو على آلامه.

والكتاب يضم قسمين: القسم الأول وهو الدراسة، والقسم الثاني المختارات، وهذه المختارات يصنفها المؤلف صنفين: شعر الشابي قبل العشرين، وشعره بعد العشرين، إذ من المعروف أن الشابي قد ولد عام ١٩٠٩، وفارق الحياة في عام ١٩٣٤، ويرجع تاريخ بعض قصائده إلى عام ١٩٢٣، أي أنه مارس القريض وهو في الرابعة عشرة من عمره، واستمر أحد عشر عامًا يفيض عنه الشعر العبقري كما يفيض الماء العذب عن المنابع الطاهرة، وعطاؤه يزيد ويصفو حتى آخر أنفاسه.

والقسم المخصص للدراسة يجري في فصول قصار تشكل لمحات عن:

– الحياة الثقافية التي تنبئ بأن القطر التونسي عامر بالحركات الأدبية والثقافية والشخصيات المفكرة في القديم، ومن أبرز مفكريها ابن خلدون وابن منظور، وصاحب زهر الآداب، وفيها الجامعة الزيتونية، وجامعة دار الحكمة بالقيروان.

– أما النهضة الحاضرة فترجع جذورها إلى الوزير خيرالدين الذي وضع الأسس المتينة لنهضة عربية معاصرة بإنشاء المدرسة الصادقيّة وإدخال اللغات الأجنبية، وحتى بعد أن طمس الاستعمار معالمها وارتد بالبلاد إلى الوراء، صمدت الطلائع الواعية للكفاح حتى استطاعت أن تسير بتونس في طريق النور والحرية، وكان الشابي أحد المشاعل، وطليعة المناضلين في العقد الثالث وبداية الرابع من هذا القرن حتى تقهقرت الرجعية وبدأت حركة التجديد.

– وعن حياة الشاعر يتحدث عن زمان ومكان ميلاده في الشابية من ضواحي توزر في إقليم الجريد جنوبي تونس، الغني بمفاتن الطبيعة، وكيف بدأ تعليمه في الكتّاب فحفظ القرآن في التاسعة، وأخذ والده – وهو خريج الأزهر – يلقنه مبادئ العلوم، وسمح له

بقراءة كتب الدين والتصوف والفلسفة، وفي الثانية عشرة يلتحق بالزيتونة في تونس عام ١٩٢١، فيتخرج منها عام ١٩٢٨، وكان انتقاله إلى العاصمة نقطة تحول في حياته لأنه وجد فيها الانطلاق والتحرر والنشاط الأدبي، وفيها قرأ الكثير من إنتاج الأدب المهجري الذي وجهه إلى نقد الحياة والثورة على الأوضاع، كما وجهه إلى الصوفية، والأسلوب الساخر، إلى جانب قراءته في أمهات الأدب العربي القديم، وفي الشعر المعاصر، وفي ما ترجم من روائع الأدب الأوروبي.

ثم التحق بكلية الحقوق التونسية وتخرج منها عام ١٩٣٠، وكان في كل هذه المراحل يشارك في الحياة الأدبية مشاركة جادة، ويتزعم الاتجاه إلى إصلاح التعليم، وتأسيس الجمعيات مثل «جمعية الشبان المسلمين» و«النادي الأدبي».

وقد سبب له موت والده صدمة كبيرة غيَّرت الكثير من حياته، وكان بداية متاعبه ومسؤولياته، مما جلب عليه الآلام وأمراض القلب، حتى انتهت حياته نهاية مؤلمة.

- وفي البيئة الاجتماعية رأى الشابي من حوله مجتمعًا مريض الجسد والروح مستسلمًا للاستعمار والرجعية والتعاسة والبؤس، وأعلن آراءه بجرأة وحماسة في شعره وفي نثره، وأخذ يستنهض همم شعبه، ويحفزه للنضال، ويضم جوانحه على الألم والمرارة وهو يحطم الحواجز والسدود أمام مجتمع لينطلق ويحلق.

أما عن حياة الشاعر الخاصة فقد تزوج وترك الحياة ومن خلفه طفلان، ويرجح كتاب سيرته أنه لم يكن موفقًا في حياته الزوجية لأن زواجه المبكر كان إرضاء لوالده من جهة، ومن جهة أخرى لأنه لم يجد في زوجته الصورة الشاعرية التي رسمها في شعره للمرأة، ولهذا اتجه بحبه إلى امرأة خيالية.

وعن مؤلفات الشابي يحدثنا المؤلف عن ديوانه «أغاني الحياة» وعن كتاب «الخيال الشعري عند العرب» وعن رسائله الأدبية وعن يومياته وقصصه ورواياته النثرية والشعرية، ومنها رواية في المقبرة، وصفحات دامية، وجميل بثينة، ومسرحية السكير، ومن محاضراته ومقالاته، ومعظمها مخطوط لم ينشر.

وإذا انتقلنا مع المؤلف إلى القسم الثاني من الكتاب، وهو المختارات التي نشرها من شعر الشابي، والتي كانت أكبر مجموعة من شعره تنشر قبل صدور ديوانه كاملاً، فقد قسمها المؤلف إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل العشرين، ومرحلة ما بعد العشرين.

ففي المرحلة الأولى يختار عشرين قصيدة ومقطوعة، تمثل العناوين: شعري – تونس الجميلة – زئير العاصفة – الحرب – لعلعة الحق – في الظلام – الزنبقة الذابلة – الدموع – أغنية الأحزان – نظرة في الحياة – مأتم القلب – الأمل والقنوط – شكوى اليتيم – أيها الليل – الملل الأليم – أيها الحب – حيرة – جدول الحب – أنشودة الرعد – يا شعر.

أما ما بعد العشرين فقد اختار منها ثلاثين قصيدة ومقطوعة هي: مناجاة – الإيمان بالحياة – الجمال المنشود – يا ابن امي – إلى طغاة العالم – إرادة الحياة – صلوات في هيكل الحب – الساحرة – ألحاني السكرى – تحت الغصون – قلب الشاعر – الأبد الصغير – قال قلبي للإله – زوبعة في الظلام – قلب الأم – أنا أبكيك للحب – الجنة الضائعة – أغاني التائه – في ظل وادي الموت – الأشواق التائهة – الرواية الغريبة – الناس – أمل الشاعر – النبي المجهول – أيتها الحالمة بين العواصف – في ظلال الغاب – فكرة فنان – من أغاني الرعاة – نشيد الجبار – الصباح الجديد.

ومع أن المؤلف لم يوضح لنا ملامح كلتا الفترتين، ولم يستند إلى مرجع تاريخي يجعلنا نتأكد من أن هذه القصائد تنتمي إلى هذه الفترة أو تلك، إلا أننا نلمح من مجرد عناوين القصائد أن إنتاج المرحلة الأولى يتسم بسمات الصبا، ويغرق في رومانتيكية المراهقة، على حين تتجه مختارات المرحلة الثانية إلى المجتمع، ومسائل الحياة، والنزعة الفلسفية، وعمق التحليل لعناصر الطبيعة.

وعلى كل حال فهي ثروة من شعر الشابي لم تتجمع من قبل في وعاء واحد حتى صدور هذا الكتاب.

وينتهي الكتاب بإيراد نماذج من نثر الشابي، وقد يكون أولّ تعرُّف بالشابي الناثر، ومن بين هذه النماذج خواطر، وبحوث قصيرة، ولوحات من الشعر المنثور، مثل: الشعر: ماذا يجب أن نفهم منه؟ وما هو مقياسه الصحيح؟ ويقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة، وصفحات دامية، وأغنية الألم.

ولكن هكذا ينتهي الكتاب كما ترى، دون تحليل لشعر الشابي، والتعريف بخصائصه الفكرية والفنية، وبيان اتجاهاته، ومواطن التجديد عند الشابي، وعناصر هذا التجديد.

ولكن حسب هذا الكتاب أنه كان بداية للتعريف بالشابي وإضاءة لجوانب شخصيته واستلالها من خضم الظلام والجهالة التي كادت تطمر حياة الشابي، لولا أبوالقاسم كرو وكتابه عن «الشابي... حياته وشعره».

من كتاب (التعريف بالأدب التونسي، رضوان إبراهيم)
ص ١٠٣ - ١٠٩،
نشر الدار العربية للكتاب - ط١ - ١٩٧٧ - تونس

****

(كفاح الشابي)

تأليف: أبوالقاسم محمد كرو

أ. رضوان إبراهيم

في يقيني أن الأديب - كاتبًا أو شاعرًا - لا يحسن أداء فكرته ما لم يحسن تجربتها، ويتفاعل معها، ويحياها حياة عميقة نابضة بكل قواه المدركة واللامدركة، وإلا فهو منمق ألفاظ ليس غير.

وأديبنا الباحث أبوالقاسم كرو ينبض قلبه نبضات صادقة محتدمة بكل معاني الحياة في كل ما يكتب، وتحس حرارة قلمه تقطر من دمه وأعصابه، وقد قرأت له أخيرًا «كفاح الشابي» وأشهد لقد كانت حرارة إيمانه ببطولة الشابي تندمج بكيانه، فتجعله يحيا تجربة الشابي ونضاله الرائد، ويحكي حكايات قلبه الثائر الجبار.

وقد بلغ قمة التوتر وهو يتحدث عن حياة الشعب التونسي النبيل المعدن، الذي زرع في الشابي إيمانه بنفسه وبأمته، فوهبها شبابه وفنه، وفَنِيَ في أمواجها الهادرة المتأبية على قيود الشواطئ والخلجان.

وكان يحلّق إلى قمم الشابي مخلفًا عند السفوح أولئك الهازلين من الشعراء الذين كفروا بالشعب، وآمنوا بمصالحهم الضرورية أضعف الإيمان، فأوصدوا قلوبهم دون الشعب الكادح، وانطووا على أنفسهم يغنونها أغنيات متخاذلة خرساء.

لو قلت إن كرو تعصب للشابي حتى رفع صاحبه فوق مستوى الشعراء - بلْهَ البشر جميعًا - لما عدوت الصواب، ولا تثريب عليه إن هو فعل، فشخصية الشابي الماردة في دنيا الأقزام، وحياته الخاطفة التي توشك أن تكون أسطورة وشعر الشابي المعدود في الروائع الإنسانية الخالدة، وآراء الشابي الرائدة من جيله المتخلف - كل ذلك جدير بأن يأسر مؤرخ أدب الشابي فيدعه يتعصب له على غير وعي منه، وتلك خصيصة لا بد أن

يصطحبها كتّاب التراجم الناجحون ولو ساعة يسجلون حياة أبطالهم، وهي ظاهرة نلمسها في كل ما يكتب كرو عن بطله الشابي الخالد.

ولكي يحدد كاتبنا الموفق مكانة الشابي في ركب الشعر عرض لنا قصة الشعر العربي منذ عرف، مبرزًا عيوبه ومزاياه ومسجلاً ما فيه من وثبات تطورية، ذاكرًا لذوي الإحسان أياديَهم حتى يبلغ الذروة فيجد الشابي هناك.

ولكي يحدد مكانة الشابي بين رواد الوطنية، عرض للبيئة عرضًا خفيفًا تلمح في ظلاله كيف شق البطل طريقه بين صخور الجمود والرجعية والتزمت والاستعمار، وكيف دوت آراؤه الوطنية الإصلاحية الحرة رغم القماقم والسدود، ولم ينس أن يذكر الذين شدُّوا أزر الشابي أو سلكوا طريقه وإن تخلّفوا عنه مراحل ومراحل، وراح يوازن بينه وبينهم لينتزع له كأس البطولة، ويتوج هامته بأكاليل النصر الساحق المؤزر.

وربما يكون صنيع الشاعر في شعبه غير ذي بال لو انه كان شعبًا متقدمًا أو كان الشاعر مسبوقًا في هذا الدرب، ولكن الشابي عاش في عصر متخلف يقتات الرجعية ويرسف في تقاليد بالية ويشهر الدين المفترى عليه سلاحًا في وجه كل مصلح، وذلك ما يبرز كفاح الشابي، ويجعله في مصاف رواد الوطنية الكبار، الذين يفتحون مغاليق العقلية البشرية، أو على الأقل يعالجون أقفالها، تارة بالترغيب وإبراز مفاتن الوطن، والدعوة إلى تغذية الروح من ينابيعه، وتارة بالحث والدفع الحاني الرقيق، وأحيانًا بالنذير الصائح المجلجل.

والظاهرة الجديرة بالالتفات أن الشعب ظهر بمعناه الكامل في شعر الشابي في وقت مبكر، وبطريقة تلقائية، يوم كان ينتفض انتفاضة الحرية في بلاد العروبة كلها، وأن الوطنية بمعناها الأمثل لازمت هذه الظاهرة في شعر الشابي، فلقد اندمج في آمال شعبه وآلامه لا ليخدعه ولا ليبكي معه، ولكن مبشرًا بالحرية يدفع الشعب نحو فجرها دفعًا قويًا، وما زالت قولته تتردد على ألسنة صبيان العروبة وكهولها وشبابها وشيوخها في كل مناسبة واعية، حتى باتت أنشودة من أناشيد الثورة، تعتمل في كل صدر وتتغلل في كيان الأحرار، وتضيء حروفها كسطور الإنجيل في قلوب القديسين:

إذا الشّــــعبُ يومًـــا أراد الحـــيـــاة

فــــلا بدَّ أن يســـتـــجـــيبَ القـــدرْ

ولا بــــدَّ لــــلــــيـــل ان يـــنـــجـــلـــي
ولا بدَّ لـلـقـــــيـــــد ان يـنـكـســــــر

ولم تكن الوطنية عند الشابي خديعة يستتر خلف جدرانها، ليكسب مجدًا رخيصًا، أو يدعي بطولة زائفة، أو يتزعم فئة من الناس، بل كان شعره ومثاليته على اتم ما يكون من التجاوب حتى جاء شعره في الوطنية أروع مثال للتضحية، واكثر جراة وحرارة، واعمق ثورة مما نرى من وطنية مصنوعة في شعر كثير من ادعياء الوطنية.

وكثيرًا ما تعني الوطنية الثائرة في شعر الكثيرين افتعال الثورة والظهور بمظاهر الهمجية التخريبية، ولكن الشابي كان مع الشعب دائمًا يمسح آلامه، ويحدد آماله، وينضج ثقافته ويغذي حاسته الاجتماعية، يريده شعبًا نبيلاً، متيقظ الفردية متماسك الجماعة.

وما كان على الشابي من حرج لو قنع بأن يكون تونسيًا، يتغنى بآلام التونسيين وحدهم، يوقظ أمانيهم، ويكابد مشكلاتهم، وهي كبيرة وكثيرة، ليكسب بطولة محلية كغيره من الشعراء الانطوائيين الذين يعيشون في أصدافهم، ولكنه غنّى كل أمة منكودة، ودفع كل شعب مغلوب، ليبحث عن حقيقته، ويغتصب حريته من الاستعمار والطغيان غير نادب ولا مؤنب، ولكن في حنو ومرحمة، وزمالة طيبة متعاونة.

هكذا يحدثنا أبوالقاسم كرو في حرارة وعمق إيمان بعبقرية الشابي.

وكان من تمام الإيمان بالشابي والانتصاف له أن يرد عنه هجمات الحاقدين وأوهام الجاهلين، وهم كثيرون، وقد فعل..

لقد تنقل بنا المؤلف في حياة الشابي وإنتاجه، فبعد الموازنة المستوعبة، يقفز إلى «قمة الشابي» فيعرض لنا صورة رائعة لهذا الملاك المحلق.

وفي الفصلين الأخيرين يتركنا مع الشابي وجهًا لوجه، يتحدث إلينا عن عالم الغيب بشعره الرائع وروحه الحنون، ويروينا من نبعه الصافي عن «الوطنية العميقة» ثم يجول بنا في معرض «الطبيعة عند الشابي» وليست الطبيعة عنده زخرفًا ولا زينة، ولكنها وسيلة جذابة للكشف عن جمال الوطن، واستقطاب محبة الشعب حوله، واستمساكه بوطنيته الصادقة.

ولم يكتف المؤلف بهذه الجولة في شعر الشابي، ولكنه ترك له قطاعًا من الكتاب يتحدث فيه عن مبادئه وفلسفته تجاه الحياة، ونظراته في الوطنية، ويروي لنا ذكرياته المحببة التي تشيع في جوانبها حرارة الكفاح.

الحق أن الذي يقرأ هذا الكتاب ينتهي من قراءته وهو مجهد مشدود الأعصاب، لأنه لا يستطيع أن يكون قارئًا فحسب بل لا بد أن يعيش الصورة التي جلاها المؤلف لحياة الشابي القلقة المتوترة والمتبرمة بالحياة، الساخطة عليها، وهي في نفس الوقت حانية عليها متفائلة بعطائها.

وقد ينقم القارئ على ما كابد الشابي في حياته من آلام الحياة، وأحقاد الناس ولكنه لا يشعر أبدًا بالرثاء للشابي أو الإشفاق عليه، لأنه كان بطلاً انتصر على آلام نفسه، وعلى معوقات شعبه وكان عملاقًا من عمالقة الأساطير، وإن اتشح بوشاح التواضع.

ولقد جهد الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو أن يجعل هذا الكتاب صورة صادقة لشخصية الشابي ونضاله وانتصاراته، حتى تأكدت عبقريته في وعي الجماهير العربية، وأصبح على قصر حياته أنشودة حلوة على كل الألسنة العربية، لقرب شعره من القلوب الفتية الطامحة إلى الحرية، ولروعة حياته الرقيقة والمليئة بالكفاح والعبقرية حتى أهمل الكثيرين من معاصريه من شعراء تونس خاصة وبعض الشعراء العرب المعاصرين بوجه عام.

وبهذا الكتاب وبغيره من الكتب أصبح أبوالقاسم كرو هو المؤرخ الصادق الأمين لحياة أبي القاسم الشابي(١).

من كتاب (التعريف بالأدب التونسي، رضوان إبراهيم)
ص ١١٠ - ١١٥،
نشر الدار العربية للكتاب - ط١ - ١٩٧٧ - تونس

****

(١) طبع الكتاب لأول مرة في بيروت عام ١٩٥٤، ونشر المؤلف مقالة عنه في جريدة الصباح التونسية عدد ١٨ - ١١ - ١٩٥٥.

تلاقي الأطراف

أ. د. عبدالعزيز المقالح(*)

... ومن حسن حظ الشاعر أبي القاسم الشابي وحظ تونس أيضًا، أن تيسر له ناقد متخصص به من أبناء تونس نفسها، وهو الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو، ومن حظ الشابي وتونس معًا، أن تصاحب العناية بالشاعر يقظة الشعور بتحدي الاحتلال وبداية الصحوة الوطنية الحقيقية، التي استمرت طوال عقد الخمسينيات، وهو أخطر العقود في تاريخ المغرب العربي بأقطاره الثلاثة.

ومع بداية الخمسينيات ظهرت أولى الكتابات الجادة والموسعة عن الشابي، وكانت تلك الكتابات بمثابة التعريف بتونس وبقضيتها من خلال التعريف بشاعرها الكبير الذي أصبح اسمه على كل لسان في وقت قصير، وصارت قصائده ذات المضمون الثوري والتعبير الرومانتيكي الشفاف، النموذج الأقرب إلى الاحتذاء في كثير من الأقطار العربية، التي اعتبرتها الشعر الحقيقي للتعبير عن الإحساس المأساوي للإنسان العربي المرزق – في لحظات التكون – بين الواقع والخيال، وبين القدرة على المواجهة الموضوعية والمثالية المغرقة العاجزة، بين التعبير الذي أوجزه أبوالقاسم الشابي في بيته الشهير الكثير التداول والترجيع:

إذا الشّعب يومًا أراد الحياة
فلا بدَّ أن يستجيب القدر

وبين بيته الشهير الآخر الأقل تداولاً وترجيعًا:

جفَّ سحرُ الحياة يا قلبيَ البَا
كِي فهيَّا نجربُ الموتَ هيَّا

والمقابلة السريعة بين هذين البيتين والتي قد تبدو لأول وهلة غير متعادلة في مستوى تعبيرها عن التداول والسيرورة، تبدو متعادلة جدًا في إشارتها أو بالأصح في دلالتها على

(*) اكاديمي وشاعر يمني من مواليد عام ١٩٣٧م، استاذ الأدب الحديث بجامعة صنعاء، ورئيس مركز الدراسات والبحوث اليمنية. له العديد من الدواوين والمؤلفات.

الواقع النفسي العربي كما كان في الخمسينيات، اندفاع لا يحدُّ وتضحية جليلة ورغبة عارمة في التغيير ولكن في ظل رؤية غائمة وغامضة، وفي ظل أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية متناقضة، ومن هنا فالبيتان المشار إليهما يكشفان المقارنة الكامنة، دعوة إلى تكوين الإرادة وامتلاك قدر الأشياء، ودعوة أخرى موازية إلى اليأس وافتراض جفاف الحياة.

ونعود إلى دور أبي القاسم محمد كرو، ذلك الحواري الأمين الذي أخلص لشعر الشابي وللشابي نفسه، ووقف منه موقف أفلاطون من سقراط - إذا جاز التعبير - وإن لم يكن قد عايشه أو أفاد منه في حياته كما أفاد أفلاطون من معلمه سقراط، وقد كانت عنايته وتفرغه لإخراج ديوانه في ثوب زاهٍ جميل، ثم إتباعه بكتاب آخر عن حياة الشابي وكفاحه بداية الاهتمام الذي وجده الشابي بعد ذلك من نقاد كثيرين في الوطن العربي، أحاطوا درسًا وتحليلاً بالعوامل التي شكلت ظاهرة الشابي الشعرية، مع بحث مظاهر التشابه القائمة بينه وبين بعض الشعراء الرومانتيكيين في المشرق العربي، وبالتحديد في مصر والسودان والشام.

وفي دراسة لي مستقلة عن الشابي وبداية الحركة الرومانتيكية (وقد ظهرت منذ عامين احتفاء بالذكرى الخمسين لرحيله) توقفتُ عند ظاهرة يكاد ينفرد بها عن شعراء مدرسته، بل عن شعراء عصره، وهي ظاهرة الإنحاء باللوم على الشعب الخامد الخاضع، بدلاً من الإنحاء باللوم على القوة الغاشمة التي أجبرته على الاستسلام والخضوع، والتي تبدو في بعض القصائد كظاهرة لهجوم مزدوج على الشعب وجلاديه دون تفريق، وهي ظاهرة جديرة بالدرس، ولم تكن ناجمة عن غربة الشاعر الرومانتيكي في واقعه الممزق، ولا عن إحساسه بالتفرد، بقدر ما هي نابعة من إدراكٍ خلاّق لمفهوم الصراع بين الشعب والطغاة، حيث ينبغي أن يثبت الشعب وجوده ويقظته، ويثبت أنه يتألف من أفراد من البشر لا من قطيع من الحيوانات، يقاد إلى المراعي كما يقاد إلى المسلخ لا يعي من أمره شيئًا ولا يملك حولاً ولا طولاً.

إن توجيه اللوم إلى الشعب بسبب خور عزيمته أو انطفاء طموحه وإرادته، ومحاولة الشاعر استفزاز صمته وهز سلبيته والخروج به من حالات الاستسلام إلى حالات الغضب والثورة، من أهم الظواهر الشعرية في العصر الحديث، ولم يتمثلها شاعر حديث كما تمثلها أبوالقاسم الشابي، وكما عبرت عنها قصائده الكثيرة التي استهدفت إيجاد وعي شعبي يجعل كل الجماهير مسؤولة عن مصيرها وعن التمييز بين غث الحكم وسمينه:

ليت لي قـــوّةَ العـــواصفِ يا شَـــعـْ
ـبِي فـــالقي إليك ثورةَ نفــــسي
ليت لي قـــوّةَ الأعـــاصــــيـــرِ، لكنْ
أنتَ حيٌّ يقـــضي الحـــيـــاةَ برمسِ
انت روحٌ غـــبـــيـــةٌ، تكرهُ النُّو
رَ وتقــــضي الدهورَ في ليلِ غَلْس
انت لا تدركُ الحـــقـــائقَ إن طا
فَتْ حـــوالـيكَ دون مسٍّ ورجس

إلى أن يقول:

في صـبـاحِ الحـيـاةِ ضـمَّخْتُ اكـوا
بِي واترعـتُـهـا بخـمـرةِ نفـسي
ثمَّ قـدَّمـتُـهـا إليكَ فـاهرقْـ
ـتَ رحـيـقي، ودُستَ يا شـعبُ كـاسي
فـتـالمتُ، ثم اسْكَتُّ آلا
مِي، وكَـفْكفتُ من شـعـوري وحـسِّي
ثمَّ نَضَّـدْتُ من ازاهـيـرِ قلبي
باقـةً لم يَمـسَّـهـا ايُّ إنسي
ثمَّ قـدَّمـتُـهـا إليكَ فـمـزَّقْـ
ـتَ ورودي ودُسْـتَـهـا ايَّ دَوْس
ثمَّ البـسْـتَني من الحُـزن ثوبًا
وبِشَـوكِ الصـخـورِ توَّجْتَ راسي
ها انا ذاهبٌ إلى الغـاب - يا شَـعْـ
ـبِي - لأقـضي الحـيـاةَ وحـدي بيـاس
ها انا ذاهبٌ إلى الغـابِ عَلِّي
في صَـمـيم الغـاباتِ ادفنُ نفـسي
ثمَّ انسـاك مـا اسـتطعتُ، فـمـا انْـ
ـتَ باهلٍ لخَـمـرتي ولكاسي

قد يكون صوت الذات الغاضبة عاليًا أكثر مما ينبغي، وذلك شأن كل شاعر رومانتيكي حريص على أن يخلط ذاته بكل ما يحيط به من أشياء حية وجامدة، لكن قصائده الأخرى لا تأخذ هذا الطابع العاطفي الانفعالي، حتى هذه القصيدة نفسها لا تستمر على وتيرة واحدة، وتتحول في بعض مقاطعها إلى نوع من التعنيف العام والتأنيب على إهمال أصوات المصلحين والمبدعين، وهو ما يحدث في كثير من الشعوب الغافلة التي لم تبلغ سن النضج ولا تريد أن تبلغ هذه السن:

أيُّها الشَّعبُ أنت طفلٌ صغيرٌ
لاعبٌ بالتُّراب، والليلُ مُغْسِ
أنت في الكون قوةٌ لم تَسُسْهَا
فكرةٌ عبقريةٌ ذاتُ باس
أنت في الكون قوةٌ كبَّلَتْها
ظُلُماتُ العصورِ من أمسِ أمس
والشقيُّ الشقيُّ من كان مثلي
في حَسَاسِيَّتي ورقَّةِ نفسي
هكذا قال شاعرٌ ناولَ الشَّعْـ
ـبَ رحيقَ الحياةِ في خير كاس
فأشاحوا عنها ومرُّوا غِضَابًا
واستخفُّوا به وقالوا بيأس
«قد أضاعَ الحياةَ في ملعبِ الجِنْـ
ـنِ فيا بؤسَهُ، أُصِيبَ بِمَسٍّ»

(ديوان الشابي)

وبفضل هذا الشعر دخلت القصيدة العربية مرحلة تحول عميق في المضمون، يساوي ما أدركها من تحول في البناء الفني والقدرة التعبيرية، وفي كتابات الشابي النثرية ما يؤكد وعيه بمهمة شعر التنوير والتحفيز، وأنه لا يكون بإضفاء العبقرية على الشعب وتمجيد ماضيه وتبرئته من تبعية التخلف والانغماس في الواقع التعس، يقول الشابي: (إذا تيقظ الإحساس في روح الشعب، تحركت في صدره – رغم كل شيء – تلك الأشواق

الطامحة والرغبات الجامحة التي كانت مكبلة في ليل الدهور وإذ ذاك يشعر بنفسه، ويعلم أنه عضو حي في هذه الجامعة البشرية، وأن عليه واجب السعي والعمل في سبيل كمال الإنسانية المنشود في سبيل مثل الحياة العليا، الحق والقوة والجمال) وحتى يتم ذلك فلا بد من ممارسة عملية الإيقاظ:

مَلَّ نــهـــــــرُ الـزمـــــــانِ أيّـامكَ المو

تَى وانقـــاضَ عُــمْـــركَ المتـــهـــدِّمْ

أنتَ لا مـــيِّتٌ فـــيـــبلَى ولا حَـــيْـ

ـيٌ فــيـــمـــشي بل كـــائنٌ ليس يُفْـــهَم

أبـدًا يـرمـقُ الـفــــــــراغَ بـطـرفٍ

جـــــامـــــدٍ، لا يرى الـعـــــوالِمَ، مُظْلِم

أيُّ ســــحْـــرٍ دهاكَ هل أنت، مَـــسْـــحُـــو

رٌ، شـــــقيٌّ، أو مـــــاردٌ يَتَـــــهكَّم؟

قد يرى البعض في هذا (الديوان) عيبًا، وعيبًا كبيرًا كيف يشتم الشاعر شعبه بمثل هذه الألفاظ القاسية، وكيف يعاتبه – إن كان عتابًا – بمثل هذه اللغة المريرة، كيف يتهمه بالرضا بموقف يتراوح بين الموت والحياة، ويرميه بالخبل وعدم الفهم؟ لكن القارئ الذكي يدرك تمامًا أن ذلك الموقف لا يخرج عن كونه مجرد انفعال داخلي، مجرد إحساس حاد يحمل من الحب أضعاف ما يحمل من الغضب، ويحمل من الحنان أضعاف ما يحمل من التعنيف. ولو أن الشعراء قد واكبوا هذا المنحى، واستنهضوا شعوبهم وواجهوها بمثل ذلك العنف الذي واجهوا به بعض الحكام الزائلين، لما استمر الشعب العربي في معظم أقطاره في حالة من الجمود والاستسلام تمر الأحداث من حوله وتسير على جسده وهو – كما كان في زمن الشابي – علامة للتضليل والعبث بالقيم النبيلة ومسرح للقمع والاضطهاد:

لــستُ أبـكـي لـعــــــــسفِ لـيـلٍ طويـلٍ

أو لـرَبْعٍ غَـــدا الـعَـــفَـــاءُ مَـــرَاحَـــهْ

إنمـا عَــــبْـــــرَتي لـعـبءٍ ثـقـــــيـلٍ

قـــــد عَــــرَانا ولـم نجــــدْ مَن أزاحَـــه

كلّما قام في البلادِ خطيبٌ
موقظٌ شعبَهُ يريدُ صَلاحَه
اخْمَدوا صوتَهُ الإلهيَّ بالعَسْ
فِ اَماتوا صُداحَهُ ونُواحَه
ألبَسُوا روحَهُ قميصَ اضطهادٍ
فاتكٍ شائكٍ يَرُدُّ جِماحَه
وتَوخَّوْا طرائقَ العَسْفِ والإرْ
هَاقِ توّاً، وما توخَّوْا سَماحَه
هكذا المصلحون في كلِّ صوبٍ
رشَقاتُ الرَّدى إليهم مُتاحه

إن اختفاء هذا الأسلوب من التعامل الشعري مع الشعب، قد أخمد جذوة التململ التي كانت الأمة العربية قد عرفت أشكالاً منها في الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن، كما أخمد معها التيار الرومانتيكي بإمكانياته الثورية ليحل مكانه تيار رومانتيكي آخر، يحاول أن يغوص في أغوار الألفاظ بحثًا عن بعض التعابير الأنيقة، بدلاً من الغوص في أغوار الإنسان لاكتشاف انفعالاته وانطباعاته المختلفة عن الطبيعة والحياة. لقد ماتت الرومانتيكية كوسيلة للتعبير الشعري في الوطن العربي قبل أن تولد، ماتت ولم تحتفظ في سجلها الصغير إلا بنماذج قليلة ومعدودة منها تلك النماذج ذات الطابع الوجداني العميق التي تركها شاعر تونس التاريخي وعنوانها الشعري الحديث.

(من كتاب: تلاقي الأطراف، ص ١٨٨ - ١٩٣، ط ١ - ١٩٨٧ - بيروت)

****

هـذا مـا حـدث

أ. د.علي فهمي خشيم(*)

... الشيخ علي يطوف كالنحلة في أروقة مكان المؤتمر[1]، يجامل هذا ويداعب ذاك، يحتفي بهؤلاء ويرحب بأولئك، ويرتب شأن هذه ويرعى تلك، فهو رئيس المؤتمر ورئيس اللجنة الداعية المضيفة. وقد استجاب للدعوة عدد كبير من أدباء تونس والجزائر والمغرب، ولست أدري إن جاء أحد من بلاد شنقيط (موريتانيا) أم لا. كما حضر جمع غفير من الكتّاب الليبيين. أذكر ممن جاء من تونس: العروسي المطوي، محمد المرزوقي، أبوالقاسم كرو.. وآخرون. ولكل من هؤلاء صلته الوثيقة بليبيا تاريخًا واجتماعًا ومشاركة ومعايشة، وكان أوثقهم صلة أبوالقاسم محمد كرو.

جاء الأستاذ كرو طرابلس في شبابه مدرسًا في مدرستها الثانوية.. في أيام الضنك والعسر.. وارتبط بعلاقات طيبة مع طلابه الذين صاروا أعلامًا فيما بعد، كما اندمج في المجتمع الليبي حتى صار يحسب منه وعليه، ولا غرو، فهو (قفصي) أصيل أولاً مما يقربه من طبيعة هذا المجتمع، وهو خريج العراق مما يوسع من دائرة حسه القومي حتى إنه أصدر سلسلة كتيبات بعنوان (كتاب البعث) وجعله يقترن بسيدة لبنانية جليلة. فإذا اهتم في كتاباته بعلماء مدينته قفصة فإنما يؤدي واجبًا لأهله، وإذا اعتنى بأدباء تونس فهو يقدم خدمة لوطنه، وإذا سخر قلمه للكتابة في القضايا القومية فإنما ينبع عن إحساس عربي أصيل. ثم غاب عن طرابلس فترة من الزمان عاد بعدها مديرًا للمركز الثقافي التونسي وقد مضى عهد العسر ليأتي على البلاد عهد اليسر، فكان له من رصيد علاقاته وصداقاته ما جعل المركز قبلة القصاد.

---

(١) يقصد مؤتمر كتّاب المغرب العربي الكبير الذي عقد في طرابلس بليبيا عام ١٩٦٩.

(*) اكاديمي وباحث ومفكر ليبي من مواليد مصراتة عام ١٩٣٦، شغل مناصب عديدة منها وكيل وزارة الإعلام والثقافة ووزير الدولة وعضو ونائب رئيس المجلس التنفيذي لليونسكو، امين عام مجمع اللغة بليبيا وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عضو سابق بملجس امناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود للإبداع الشعري.

وأسعدني الحظ بمرافقة الأستاذ كرو في الخطوات الأولى لإصدار مجلة (الوحدة) التي رأس في البداية تحريرها عن (المجلس القومي للثقافة العربية) في باريس أولاً ثم في الرباط، ثم في مناسبات كثيرة في طرابلس وتونس والرباط ودمشق والكويت، فلم أر منه إلا فضلاً وطيب خلق ورقة حاشية. وهو أصدر جملة مما كتب في مجلدات كبيرة حَوت مقالات عن بلادي، بلاده، ليبيا وذكرياته في طرابلس الغرب.

(دار الكتاب الجديد المتحدة
ط ١، ٢٠٠٣ – ص ٢٨٥ – ٢٨٦)

****

في الدوريات والمجلات
(ترتيب المقالات تاريخي)

أبو القاسم كرو

أ. عبد العزيز الشابي(*)

الشباب عدة الأمم وأمل الشعوب وسلاحها في الحياة. الشباب رمز القوة والحدة والحياة، وأي أمة ضلّ شبابها فقد باءت بالخسران.

وهل أتاك حديث الشباب العربي، أنه في مصر وفي سوريا ولبنان والعراق وفلسطين قد تقلد برعاية الشيوخ الأمانة العظمى لرعاية حقوق العروبة وشرفها والدفاع عن كرامتها في ميادين الوغى بفلسطين، وهو يخترق صفوف الأعداء ويحطم الحصون والمعاقل، ويطير على المنشآت يقذفها بحِمام الموت.

وإن الشباب في المغرب العربي لم يكن دون إخوانه في المشرق، فذهبت أخبار الحرب بفلسطين كالعاصفة تهز من الأعماق، وكالنداء تلبيه الضمائر وكالبرق تمطر له سحب الكرم بالنفس والمال.

لم يكن في مقدور الشباب التونسي أن يعمل جهرة ليكون في ساحة الشرف العربي ممثلاً أجدر تمثيل – ولكنه مع ذلك قد غامر؛ تسلق الصعاب وتجشم الأتعاب وأراد أن يشارك في الكفاح لانتصار العروبة بفلسطين. سوف نرى أن الشباب التونسي لم يتأخر عن المظاهرة العربية الكبرى ضد الاستعمار الصهيوني اللئيم، وكيف يمكن له أن يتوارى والكفاح واقف على سوقه والعدو يرمي إلى تحطيم جهاز الوطن العربي.

هذا أحد الشبان التونسيين الأمجاد أبو القاسم كرو يتخطى الحدود بروح عربية وثابة ليمثل أمته، وليرمز إلى زملائه، وليكون إن شاء الله أحد جنود النصر البواسل.

حيّا الله الشباب وحمى العروبة من كيد الكائدين.

(صحيفة لسان العرب) – تونس

السنة الثانية عدد ٨٧ – ٩ جوان ١٩٤٨

****

(*) صحفي ومثقف تونسي مدير وصاحب امتياز صحيفة «لسان العرب» التي كانت تصدر في تونس في اربعينيات القرن العشرين.

نظرة في كتاب «حصاد القلم»

أ. محمد الحليوي(*)

تفضل الصديق الكريم الأستاذ ابوالقاسم محمد كرو فأهدى إليّ نسخة من كتابه الجديد «حصاد القلم» الذي قال عنه صاحبه أنه «مقالات ودراسات في الشعر والأدب والنقد والاجتماع والوطنية» والذي قدّم له جماعة من أعضاء رابطة الأدب الحديث بالقاهرة بكلمات طيبة في تقدير الكاتب والكتاب.

ولا أدري هل وصل الكتاب بعد إلى مكتبات تونس، إنما الذي أدريه هو أن الكتاب يهم تونس والتونسيين في المقام الأول – فأبو القاسم كرو – رغم أنه يقيم في بلد ينعم بالحرية لا يغفل أمر وطنه التونسي ولا يشغله عنه شاغل، وهو دائم الاطلاع عما يقع فيه، مهتم غاية الاهتمام بأحواله وأحداثه، متصل تمام الاتصال بمفكريه وقادة الرأي فيه، يشارك – على بعد الدار وشحط المزار – في مناقشة مشاكله وعرض الحلول لها، كما يعمل للتعريف به في سائر البلاد العربية حتى قال أحد المقدمين للكتاب – وهو الأستاذ عبدالمنعم الخفاجي – «لقد كانت مقالاته ودراساته وبحوثه خير تعريف لأبناء البلاد العربية بتونس وأدبائها وشعرائها الماضين والمعاصرين، بعد أن كان الأدب التونسي في شبه عزلة عن العالم العربي في مختلف أقطاره وأمصاره» – ولك أن تقول أن أبا القاسم لا يهنا له العيش ولا تصفو لديه الحياة وهو يعلم أن وطنه يكافح ويتألم – لذلك كانت تنعكس في كل كتاباته ومراسلاته آلام وطنه مضاعفة مشجية كانها عبرات منثورة أو أغانٍ باكية – لذلك أيضًا آمن بمذهب «الالتزام» وأصبح يعتقد أن كل مفكر وكل كاتب يجب عليه وجوبًا كليّاً لا مناص منه أن يسخِّر قلمه لخدمة أمته – وهو يعجب أشد الإعجاب بكلمة أحد مشاهير الاميركيين التي يقول فيها «إن الصحفي الذي يلازم الصمت ساعة تتعرض بلاده للخطر ليس أقل جرمًا من الجندي الذي يفر من المعركة» ويعدها خير ما يعبر عن الدوافع التي

(*) اديب تونسي ولد بالقيروان عام ١٩٠٧م وكانت تربطه علاقة ود متينة بالشاعر ابي القاسم الشابي وكانت بينهما مراسلات. توفي في القيروان عام ١٩٧٨ ودفن بها.

جعلته يحس فيكتب، ثم ينشر ويذيع ثم يجمع ويعيد النشر - بل هو لا يحسّ بالقرار والهدوء في بلاد الحرية والاستقلال فيرمز الى وطنه المغربي بلفظ «الحبيبة» ثم يخاطبه في قطعة جيدة من الشعر المنثور بهذه النبرات الشجية:

هذي حبيبتي القريبة البعيدة
من حرمت أن أراها
ودفعني القهر بعيدًا عنها
ودفقت كلوم قلبي حزنًا عليها
ودميت قدماي سعيًا إليها

✡✡✡✡

هناك..... هي هناك
تنتظرني في شوق وانعطاف
وهنا... أنا هنا..
أرنو لها في صبرٍ واحتراق
تزيدها السنون فتنة وجمالا
وانا.. انا هنا..
تزيدني.. وجدًا.. وحرمانا
أواه يا حبيبتي.. الخ

والحقيقة أن أبا القاسم محمد كرو كاتب لا يشق له غبار في الوطنيات، وقد حوى كتابه منها الفصول التالية بصفة خاصة «اتونسي أنت» - «ألوان من حرية الغرب» - «هيا للكفاح يا شباب العرب» - «عواصف في الطريق» - «طريق الشباب» «الزعيم الشهيد»، وقد قالها في الذكرى السنوية لموت فرحات حشاد، ثم القطعة «أذكري تونس» وقد كتبها في مذكرة طالبة عراقية تخرجت في دار المعلمين العليا ببغداد، وأوصاها فيها أن تذكر تونس لطالباتها في كل مكان تدرس فيه، حتى يعرفن هذا الجزء الصغير من العالم العربي وينشأن على حبه، ويعطفن على آلامه وآماله.

ولعمري إن كل هذه الفصول رائعة جليلة قوية التأثير في النفس، تبعث فيها النشوة والاعتزاز، وتثير فيها الإباء والنخوة، وهي كلها تفيض بالحماس والإخلاص، وتتدفق بالحيوية والصراحة، بل هي خير مثال يقدّم على شعور الكاتب بواجباته نحو وطنه وإحساسه بمسؤولياته والتزاماته – وهو – لعظم شعوره بهذه «الالتزامات» – يقسو على أدباء تونس قسوة شديدة ويصفهم بالكسل والتقصير ويرميهم بالعجز والتخلف والتفريط، لأنهم لا يجندون أقلامهم لخدمة أمتهم.

فإذا تجاوزنا فصول الوطنية إلى الفصول ذات النزعة الاجتماعية أو التوجيهية، مثل مقالات «القوى المضاعة» وقربان الحرية (قصة) وغسلاً للعار (مقال) والمرأة والمجتمع (بحث) وغيرها، رأينا لونًا جديدًا من الكتابة لا يصل إلى مستوى الوطنيات، لا من الناحية الفكرية ولا من ناحية الأسلوب الكتابي.

وفي رأيي أن أبا القاسم يجيد الإجادة كلها في الأدب الإنشائي ذي الطابع الحماسي والاتجاه الشعري، وفيه تظهر قوة تعبيره وجودة تصويره، ويتجلّى ابتكاره وتجديده بكل وضوح، أما في المباحث الأدبية والدراسات الاجتماعية فإن قارئه لا يقتنع دائمًا بما يذهب إليه من آراء ويورده من حجج، ولا يرضى في الغالب عن طريقة تناوله للموضوع، ولا منهج البحث الذي يتخذه فيه، ولا أسلوبه في التدقيق والتحقيق وترتيب الأجزاء وإبراز النواحي – ولا شك أن مثل هذه المباحث تستدعي الصبر وطول الأناة، مما لا يناسب أصحاب الأمزجة الاندفاعية والعاطفة الحادة، وهذا ما نراه في مثل مباحثه وفصوله التي بعنوان «القوى المضاعة» و«العلم أم الأدب» و«تراثنا الأدبي في خطر» و«بين الجديد والقديم» وغيرها.

وفي الكتاب فصول أخرى كتبت – كما يذكر المؤلف – في مناسبات مختلفة، وأذيعت أو نشرت في تلك المناسبات نفسها – ومن هذه الفصول محاضرته عن التعليم والمعلم في العراق، وإنسانية محمد قيلت بمناسبة المولد النبوي، وذكرى الخلود وهي كلمة جيدة جميلة من جميع النواحي قيلت بمناسبة إحدى الذكريات السنوية للمرحوم الشابي.

هذا تعريف إجمالي بمحتويات الكتاب ورأينا في بعض هذه المحتويات، أما القلم الذي دبّجها والفكر الذي أملاها فقد تحدث عنهما غير واحد ممن تعرضوا للكتاب أو الكاتب في مناسبات عديدة، وقد أثنى على المؤلف في مقدمة الكتاب جماعة من أعضاء رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ثناءً طيبًا، ونحن نوافق أحد هؤلاء الأعضاء، وهو الأستاذ رضوان إبراهيم، في قوله عن المؤلف: «يتضح في أنفاسه نبرات مهجرية وترانيم مصرية وجرس عربي خالص تتجاوب كلها بألحان الأنشودة الكاملة وتنبئ عما يقرأ، وأين يقيم بحواسه وأين يسبح بروحه ووجدانه، وكيف تمثلت آماله وتبلورت في كتابته فكان صورة متعددة الجوانب للشباب العربي الأصيل، كما أننا نحيّي فيه روحه المتوثب الطموح وحيوية نفسه العارمة وحرارة أسلوبه، وثورته على كل بال من الأوضاع والتقاليد، وكل متحجر من الأفكار والنظام، وكل جامد ساكن من المنظمات والأشخاص».

وإن كان لنا أن نبدي في شأنه رأيًا صريحًا فإننا نفضل أن يدرس أبوالقاسم ميوله وكفاياته بغاية الإخلاص واليقظة، وأن يستخلص من أقوال مقرظيه ما يرى فيه فائدة، ثم يخصص جهوده ويوجهها في ناحية واحدة، ولا يوزعها بين مطالب الكتابة الكثيرة لأن التفوق في كل المطالب متعذر، والإتيان بالجديد المبتكر والطريف الرائع فيها جميعًا أمر غير ميسور. فإذا وجد طريقه اللاحب أمكنه أن يقوم برسالته التي يؤمن بها خير قيام.

صحيفة الصباح - تونس

١٩٥٤/٦/١٨

****

كتاب البعث

أ.د. خليفة التليسي

نداء العمل

لا معنى للنداء ما لم يكن مقرونًا بالعمل. وقد أدرك ذلك ببداهة الأديب العامل الأستاذ أبو القاسم كرو، فأتبع نداءه مشروعًا ضخمًا لم يعرفه الشمال الأفريقي من قبل. وغاية هذا المشروع محددة في اسمه (البعث) الذي يسعى إلى سد الفراغ في ميدان الفكر، وذلك بعث الأقلام الجديدة إلى المشاركة في التعبير عن الواقع الفكري للشمال الأفريقي كمساهمة فعالة في اليقظة العربية، وبعث الكتب القديمة والحديثة التي لم تدركها عناية الناشرين. ولا شك في أن هذا المشروع ينطوي على فوائد متعددة لعل أهمها استغلال الإمكانيات المطمورة المدفونة، التي ساعدت على إغفالها عوامل متعددة أظهرها انعدام التشجيع والعمل على الطبع والنشر المنظم. وهذه السلسلة شعبية الثمن شعبية الأهداف، فهي زهيدة الثمن قريبة إلى نفس القارئ بما تعالج من مشاكل يعيش هو في صعيدها. وبداية عمل هذه السلسلة كتاب للأستاذ كرو يضم محاضرتين ألقاهما بتونس بعد عودته، ويتحدث في الأولى عن النوادي والنشاط الاجتماعي في العراق، ملقيًا نظرة تاريخية في نشأة النوادي عند اليونان والرومان والعرب ثم العصر الحديث، موضحًا ما لها من أفعال في خلق الوعي الاجتماعي، وليس معنى استعراضه للنوادي في العراق أنها قد بلغت جدها من الكمال حتى أصبحت نموذجًا يقتدى به، ولكنه يريد الانتفاع بما في معنى هذه المشاريع ويهيب بكل (من يرى ذلك أو لديه أفكار عن مشاريع أخرى تفيد شعبنا في أي ميدان أن ينشرها للرأي العام، وأحسن من ذلك أن يحققها عملياً في الحياة). أما المحاضرة الثانية فعنوانها (إمكانياتنا الاجتماعية) وهي محاضرة واعية تستعرض استعراضًا دقيقًا واضحًا مراحل كفاح الشعب في سبيل الاستقلال وتحاول اكتشاف

(*) أكاديمي وشاعر وناقد ليبي من مواليد عام ١٩٣٠ بطرابلس الغرب، له العديد من المؤلفات والدواوين الشعرية.

الطاقات الاجتماعية الكامنة في جوهر الأمة. ولم ينس المحاضر الإشارة الى أن الكفاح السياسي قد استغرق كافة المجهودات، وأن الأمة في حاجة إليه حتى تبلغ استقلالها، وتجد الطريق الى تصريف هذه الإمكانيات التي كانت موقوفة على الكفاح، ذلك (لأن الاستقلال بكل أنواعه وعلى مختلف درجاته ليس غاية نهائية يسعى لها شعبنا أو أي شعب آخر يكافح في سبيل حريته واستقلاله، وإنما هو وسيلة لبناء حياة الشعب الحاضرة والمستقبلة، على أساس وطيد من الحرية والكرامة والعمل الدائم، في سبيل توفير الرخاء والتقدم والعدالة الاجتماعية للمواطنين). ويبدو أن نشاط الأستاذ كان منصرفًا إلى المحاضرات، فأضاف إلى هاتين المحاضرتين محاضرة أخرى عن (التعليم التونسي) نشرها في كتاب مستقل، وهي تعطي القارئ فكرة عامة عن التعليم التونسي ورأي الشاب المتحرر في طريقة إصلاحه، ولعل المشتغلين بقضايا التعليم في العالم العربي واجدون فيها كثيرًا من الحقائق الهامة. وحبذا لو تمهل الأستاذ في نشر هذه المحاضرة إلى حين يتمكن من جمع المعلومات الوافية عن موضوعه، ولم ينشرها كما ألقيت دون تحوير أو تغيير..

مع الشابي

وهذا هو الكتاب الثاني من سلسلة كتاب «البعث»، وكاتبه الأستاذ محمد الحليوي، من أخلص أصدقاء الشابي ومن أقربهم الى نفسه، وأكثرهم فهمًا لمراحل حياته وتطوره الفكري، إذ عاشره معاشرة طويلة، كما كانت بينهما مراسلة أدبية ممتعة، تشكل ثروة فكرية تساعد على تفهم عبقرية الشابي، وحبذا لو بادر الأستاذ إلى نشر هذه الرسائل حتى يستفيد من الاطلاع عليها عشاق أدب الشابي.

والكتاب الذي يقدمه الأستاذ عبارة عن كلمات نشرت أو ألقيت في فترات مختلفة عن أدب الشابي، ومن هذه الكلمات كلمة رصينة رائعة يناقش فيها الكاتب صديقه الشاعر في ما ورد في كتابه (الخيال الشعري عن العرب) وهو يختلف معه اختلافًا صريحًا واضحًا يقيمه، على أن الآراء التي وردت في هذه المحاضرة لم يكن الشابي مكتشفها بل كان مسبوقًا إليها من المستشرقين وكتاب المدرسة الحديثة في الشرق، كالعقاد وغيره من أعلام

الأدب الذين تزعموا حركة التجديد، وهو يدفع تهمة الضحالة في الخيال العربي ويرد جمود الخيال عندهم إلى شيوع التقليد، الذي أوقف العبقرية العربية وحد من جموح الخيال، ويتخذ من قوة الخيال عند الشاعر حجة عليه، ولا ينسى أن يسجل على المحاضر روح التحامل التي تبعد به عن البحث الموضوعي.. والأستاذ الكاتب يملك فهمًا ممتازًا للشعر وذوقًا رفيعًا وذلك واضح في كلمته عن الشعر في تونس التي يهاجم فيها شعراء المدرسة القديمة وينكر عليهم شاعريتهم التي يبنونها على أساس المجاملة الزائفة.

وفي الكتاب محاضرة عن أدب الشابي، يستعرض فيها الأستاذ عناصر هذا الأدب، ويشير إلى رسالة الشاعر التي كان يريد الحياة من أجل تحقيقها، ويراها ماثلة في تقديس الشعر، عبادة الطبيعة والسمو بالمرأة، ولا تفوته الإشارة إلى فلسفة الشابي أو نظرته الى الحياة والمراحل التي مرت بها هذه النظرة حتى انتهت في قصائده الأخيرة إلى روح متحررة متمردة ناقمة، وبالجملة فإن هذا الكتاب يضم حقائق مجهولة عن الشاعر، وعشاق الشابي سيجدون فيه كثيرًا من النواحي الغامضة التي تكفّل قلم صديقه الأستاذ الحليوي بإيضاحها، ولا شك في أنهم غير مكتفين من الأستاذ بهذا الكتاب فهو أقدر من يؤلف عن الشابي، ومن حق الأدب عليه ثم من حق هذه الصداقة الأدبية الرفيعة أن تبرز للناس في كتاب يكون دراسة كاملة لهذا الشاعر العظيم.. ولعله فاعل.

ومرة أخرى نحيي في الأستاذ صاحب مشروع كتاب البعث هذه الروح العاملة ونرجو له النجاح والتوفيق في أداء رسالته الفكرية.

صحيفة طرابلس الغرب

عدد ١٩٥٥/١٢/٧

****

حول «صوت الجزائر»

في مشروع كتاب البعث

أ. د. يحيى بوعزيز(*)

لاشك أن الحركة الأدبية قد بدأت ترفع رأسها من حين لآخر في مغربنا العربي مسايرة الأطوار الثورية والنهضات الفكرية.. ومقتفية أثر عجلة التحرر والخلاص من ربقة العبودية «الفكرية» نزوعًا منها نحو المثالية الواضحة والواقعية الرشيدة المجسمة في مختلف المجتمعات الراقية.

ومما يبعث على التفاؤل الصادق إلى جانب هذا، نشاط عدد لا بأس به من شبابنا الناهض في حقول المعرفة ومختلف نواحي مظاهر الأدب، توثبًا نحو الرقي الفكري والازدهار الأدبي، من أجل المساهمة في تنوير السبل للأجيال وتوثيق عرى الصداقة بين الشعوب.

ولا يغرب عن البال أن مثل هذه القفزة لها قيمتها في إحلال المعارف محل الجهالة، وفي رفع مستوى الطبقات الكادحة إلى شيء من النهوض الفكري والتقدم الاجتماعي الكبير، إذ نرى مواكب المعارف تتقدم بسرعة عجيبة في كل الميادين سواء بالجزائر أو بتونس أو بمراكش.

ويعنينا الآن أن نلقي نظرة إجمالية على الحركة الأدبية والنهضة الفكرية في تونس. وبالتالي على قيمتها لدى الأوساط ومفعولها عند الشباب.

وما دامت الوشيجة الثقافية قد تفوق صلة الرحم من جانب أن مفعولها في المجتمع حاد وشديد يسري إلى أعماق القلوب، فلا يضيرنا أن نقول إننا الآن مقبلون – وأقبلنا – على عهد جديد نأمل ونتفاءل كثيرًا أن يكون لنا فيه القدم المعلى في توجيه الشباب ومختلف الطبقات الشعبية الى أسمى غايات الإنسان، بفضل ما ينتشر بينها من مختلف ينابيع المعارف وشتى أنواع الفنون وضروب الآداب.

(*) مؤرخ جزائري من مواليد عام ١٩٢٩م، درّس بجامعة وهران، له اكثر من (٤٠) مؤلفًا، توفي في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٧م بوهران ودفن بها.

غير أن هذا يتطلب منا أن نذكر مبينين: هل هناك في تونس «بحق» مشروع أدبي صحيح يستحق الذكر، نستطيع أن نجني من ورائه ثمار ما نتمناه لهذه البلاد من تقدم ورقي في النهضة الأدبية؟

أجل إن النهضة الأدبية أخذت تنتشر في الأوساط، وأصبح للأدب «العام» حظوة ومكانة لا بأس بها في قلوب الشباب الذين ما انفكوا يحاولون أن يستزيدوا منه ومن قيمه الصحيحة، إلا أن هناك – ويا للأسف – «جفاف» فكري في مفكري هذه الأمة، وتقاعس عن الإنتاج الصحيح وقف دون تقدمهم ورقيهم، ومع هذا فإنهم وإن لم يستطيعوا التوصل إلى تشييد كيان راقٍ للأدب، فقد نجحوا في إقامة الأسس الصحيحة لمجتمع أدبي قوامه الفكر الثاقب والتعمق الكامل والتثبت الحاد، بحثًا عن الوسائل الناجعة التي تغذي العقول بحق وتخصب الحقول الأدبية الجميلة.

وإذا كان هناك من مشروع أدبي صحيح في هذه البلاد، فهو كتاب البعث الذي يعد أساسًا متينًا لتلك النهضة العظيمة وعمادًا ثابتًا لأولئك المفكرين ومعينًا لتلك الآمال الطموحة إلى استقاء الحقائق من ينابيعها الأصيلة.

فكتاب البعث أول مشروع من نوعه صدر وانتشر في مغربنا العربي برهن فيه صاحبه الأستاذ أبو القاسم محمد كرو على مقدرة عجيبة في توجيه جماهير الشباب إلى تبني الأفكار الحرة.. والارتواء من بحار الإنتاج الصحيح.

وكتاب البعث أعظم مشروع أدبي «عام» عرفه مغربنا العربي في عهده الجديد، تعرض لمختلف ألوان الأدب وأنواع المشاكل الاجتماعية. وعديد من المسائل السياسية وتناولها درسًا وتعليقًا. وبحثًا وتنقيبًا.

وكتاب البعث هو المشروع الوحيد الذي عمل منذ نشأته على مواكبة العصر ومسايرة الفكر الحديث، مما أتاح لأجلّة من الكتاب الأفارقة أن يبرزوا أفكارهم النيرة المختلفة في مختلف حلقاته، في شيء من التحرر والوضوح، جعله (كتاب البعث) يسمو إلى الذروة.

ولو كان هذا هو كل ما امتاز به (كتاب البعث) لما فضلناه ولما قلنا فيه شيئًا يذكر، ما دام غيره من «أشباه» المشاريع قد تحلّى به.. ولكن شيئًا آخر أعز وأثمن من كل هذا جعل مشروع كتاب البعث يسمو إلى الذروة، رافعًا على كلا جناحيه مقومات الأدب ومعالم الفكر. هذا الشيء هو التحامه بالثورات التحريرية واهتمامه بالكفاح الشعبي للأمم المغربية. وتبنيه لمبادئ الحياة في ظل راية الحرية وتحت أكمة الاستقلال.. وتوجهه الكامل نحو الميدان؛ ميدان الرشاش والبندقية وساحة العز والشرف، ليساهم في إذكاء الروح التحريرية.. وإشعال نار الوطنية.. وإيقاد شعلة الحرية في نفوس المواطنين الشمال أفريقيين، وليذكر دائمًا بقدسية الكفاح من أجل العيش في كنف الهدوء والرخاء والعدالة والسلام.

وفي حلقته الأخيرة «صوت الجزائر» تجد أيها القارئ العزيز ما يشفي الغليل ويبري العليل، حيث جمعت إلى جانب جغرافية القطر الجزائري مجملة مبادئ الثورة الجزائرية وأقوال الصحف العالمية الكبرى.. ووحشية الفرنسيين في الجزائر.. ووثائق وبلاغات حربية صادرة عن جيش وجبهة التحرير بعضها لم ينشر في غيرها. كما حللت شارحةً بعض حالات الجزائر السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية والفنية وغيرها، مما يرتع فيه المستعمرون الأنذال، في حين حرم منها الوطنيون الجزائريون.

وتمتاز هذه الحلقة «صوت الجزائر» بأنها أول كتاب يعبر عن بلادنا الجزائر الثائرة.. المجاهدة في مغربنا العربي، نال به مشروع كتاب البعث وصاحبه الأستاذ أبو القاسم محمد كرو شرف السابقية وحسن الاختيار وإصابة الهدف الشريف. وحاز نيشان العز والشرف لدى كل مواطن مناضل في سبيل عزة وطنه.

وإليك أيها القارئ العزيز فقرة صغيرة من بعض ما ورد فيها (الحلقة) من البلاغات الحربية والوثائق السياسية لتتأكد من قيمتها: «في يوم ٢٠ جويليه ١٩٥٦ الموافق ١١ من ذي الحجة من أيام عيد الأضحى، هاجم الجنود الفرنسيون قرية «عباد الشريف» بدائرة القرقور شمالي سطيف من عمالة قسنطينة، فالتجا من أفلت من رجالها وشيوخها ونسائها وأطفالها إلى قرية «قمون بني عيسى»، وبعد إحكام الحصار وعزلها الكامل

أهرقوا على دورها ومتاجرها النفط وأحرقوها على من بقي بها من الأحياء، وبقيت النار مشتعلة مدة أربعة أيام والطائرات تروح وتغدو مقنبلة، ثم لم يقرّ لهم قرار حتى اتبعوا اللاجئين الى قرية «قمون بني عيسى» وفعلوا بها وبسكانها الأصليين واللاحقين ما فعلوا بسابقتها، ولم يبقَ بها من ديار إلا رماد ونار وبهذه الطريقة نكّلوا بالقرى الآتية:

سيدي يدير – الماين – أولاد جعفر (وبكل منها آلاف السكان) – واسقا – وبني شبانة – عزيب أيت – سيدي الصديق – تالازار «وقد سبق لهذه القرية أن قنبلت مرات عديدة» – ومزين – وتارقت – بني غبولة – كريمة – بني خلف – وحنية – وبني إبراهيم – والموتن – واقمون – والثعالبة – وفريحة – ومزرراق – والخميس – تاموقرة، كل هذه القرى وهي في دائرة القرقور أو قريب منها حوصرت يوم الجمعة ٢٠ جويليه الموافق لثاني أيام عيد الأضحى وأحرقت وقنبلت وما بقي من أطلالها نسف بالديناميت» .

فأنت ترى أن «كتاب البعث» هو الوحيد (في هذه البلاد طبعًا) الذي استطاع ويستطيع أن ينقل إليك مثل هذه الحقائق المرة عن الجزائر الثائرة.

وإذا كان كتاب البعث قد أدى مثل هذا الواجب. وقام به أحسن قيام، موفيًا لوطنه العربي بما صدع به أول الأمر، من انتهاج حياة فاضلة قوامها الفكر الحر والأدب الصحيح.

وإذا كان كتاب البعث قد عني أول ما عني بالمشاكل الوطنية والمقومات التحريرية قصد النهوض بهذه البلاد اجتماعياً وسياسيّاً واقتصادياً وأدبيّاً من أجل تكوين إطارات عليا في كل الميادين.

وإذا كان صاحب كتاب البعث الأستاذ أبو القاسم محمد كرو قد ضحى بكل ما أوتيه من قوة وغال ونفيس، في سبيل بعث نهضة أدبية أساسها الفكر الحر والحياة الفاضلة.

فهل قمت انت أيها المواطن الكريم بما يلزم نحو هذا المشروع العظيم؟ وهل استقبلته بصدر رحب واقتنيته بكل شغف قيامًا بالواجب الوطني؟ وهل حظي لديك انت أيتها الدوائر المسؤولة بالخصوص بما يلزم، من التقدير؟

إنك أيها القارئ العزيز.. إنك أيتها الدوائر المسؤولة.. إنك أيها الشعب.. لم تقم بما يلزم نحو هذا المشروع ولا عاملته بما يلزم في حين تعرف مزيته عليك وتفوقه على كل المشاريع الثقافية في ربوع هذه البلاد.. في حين تتيقن أنك آخر الأمر لابد راجع إليه.. ومفتقر إلى إنتاجه.

أجل أيها الشباب الناهض إن الواجب الوطني والوشيجة الثقافية يفرضان عليك الالتفات إلى هذا المشروع وتشجيعه. سيما بعد أن لمست التحسن في كل حلقة تصدر منه. إذًا دائمًا هو في نمو وازدهار وتقدم من حيث الأسلوب والفصاحة والأفكار والمظاهر الاجتماعية ومختلف نواحي الحياة الأدبية، بالخصوص إلى حالة جماله في الشكل والألوان.

وعلى الدوائر المسؤولة وبالخصوص «وزارة المعارف» أن تعتني به وتقدم لصاحبه المشرف عليه: الأستاذ كرو يد المساعدة مادياً وأدبياً ما دام يساهم في نهوض هذه البلاد. حتى يستطيع الاضطلاع في المستقبل بما يلزم ويشرف هذه البلاد في حقول المعرفة ومواطن الفكر ونواحي الأدب.

وإني أعتبر أن الاستهانة بهذا المشروع هي خيانة وطنية صرف وعقوق بالمعارف وإجحاف بالحقوق الأصيلة للحياة الفكرية والإنتاج العملي.

وأخيرًا أرجو من القارئ أن يعذرني لأني لم أتناول المشروع من الناحية الأدبية الصِّرف، ذلك أنني ثائر أعشق الثورة وأطمح لتغيير الأوضاع البائدة، وإلى جانب هذا فأنا أحب أن يحيا كل مواطن ثائرًا يتغذى بالمبادئ الثورية بمعنى: يقرأ ثائرًا.. ويشرب ثائرًا.. ويناقش ثائرًا.. ويحلل ثائرًا.. ويحلّق ثائرًا، عسانا نتخلص من رواسب الاستعمار.. وإذا الأمة التي هاضها الجهل وطول التفريق والخذلان تنشر المجد والفتوح بأقصى الأرض فوق العروش والتيجان.. وانطلاق العقول يفتح آفاقًا رحابًا للعلم والعرفان. يقطف القوم من عناقدها الأبكار زاد النهى وبكر المعاني.

صحيفة الصباح - تونس

١٩٥٦/١٢/١٣

****

الكاتب أبوالقاسم محمد كرو
رجل العلم والفضل والوفاء

أ. قاسم الخطاط(*)

أعلن أوائل هذا الشهر عن فوز الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو بالجائزة الأولى في الأدب واللغة والحضارة الإسلامية – مناصفة مع الدكتور جعفر ماجد – وذلك عن كتابه «المغاني والمعاني».

وفي عام ١٩٨٩ حصل الأستاذ أبوالقاسم من رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي، على الوسام الأول للاستحقاق الثقافي. وبتلك المناسبة قرر أصدقاء أبوالقاسم وأحباؤه، تنظيم حفل فني على شرفه بدار الثقافة ابن خلدون يوم ١٩٨٩/١٢/١٥، وتلقيت دعوة للمشاركة فيه، فأعددت كلمة ضمنتها بعض ذكرياتي مع هذا الصديق الوفي في بغداد، قبل أربعة وأربعين عامًا، لكن الحفل تأجل وظلت تلك الذكريات مطوية.

واليوم بمناسبة حصوله على جائزة وزارة الثقافة، رأيتها مناسبة طيبة لأتوجه إليه بالتهنئة، وإلى وزارة الثقافة بالتقدير والعرفان، ولأتحدث عن تلك الذكريات المطوية.

في عام ١٩٤٨ كنت رئيسًا لتحرير جريدة «العراق اليوم» الأسبوعية ببغداد، وحدثني صديق عزيز عن مناضل تونسي يتوقد حماسة وحيوية ونشاطًا يعمل على التعريف بقضية الشعب التونسي وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي، وطلب مني أن أستقبله وأتعرف عليه وأنشر له مقالاته.

وظننت أنني سأستقبل رجلاً كبير السن، وإذا بي أفاجأ بشاب في الرابعة والعشرين من عمره، يدخل مكتبي وبيده اليسرى مجموعة من الجرائد والمجلات. وانطلق يتحدث عن تونس بطريقة محببة تشد سامعه إليه، وبعد خمس دقائق أحسست كأنني

(*) أديب وصحفي عراقي، كان عام ١٩٤٨ رئيسًا لتحرير جريدة «العراق اليوم» وهو العام الذي بدا فيه الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو دراسته بكلية دار المعلمين العالية ببغداد وتخرج فيها عام ١٩٥٢.

أعرف هذا الشاب منذ عشرات السنين، لقد كان ذلك الشاب هو أبوالقاسم محمد كرو الذي التحق بالصف الأول بكلية دار المعلمين العالية ببغداد في ذلك العام ١٩٤٨، ثم تخرج فيها بعد ذلك عام ١٩٥٢.

ورغم مرور أربع وأربعين سنة على ذلك اللقاء الأول، فما زلت أرى في وجه أخي «أبوالقاسم»، وجه ذلك الشاب المناضل الذي لا يعرف اليأس والكلل.

ومع أنه كان طالبًا في كلية يحتاج الطالب فيها إلى كل وقته حتى يستطيع متابعة الدروس والتحضير لها، فإن أبا القاسم كان يكتب المقالات في الصحف، ويلقي أحاديث في إذاعة بغداد، ويلقي محاضرات في كل مناسبة تسنح له في نطاق الجامعة أو في الملتقيات والمنتديات، وفي الاحتفالات بالمناسبات الوطنية، مع ما يتطلبه ذلك من اتصالات ومقابلات وزيارات للصحف وللشخصيات الأدبية والسياسية والعلمية. والعجيب أنه مع كل هذا النشاط المتعب، كان يؤدي واجبه كطالب جامعي على خير وجه، وكان من المجدين المتميزين المتقدمين في دراستهم.

وخلال السنوات الأربع التي قضاها طالبًا في الكلية، استطاع أن يشارك في إنشاء «جمعية الثقافة العربية» في بغداد، وانتخب أمينًا عامًا لها منذ إنشائها عام ١٩٥١ حتى تخرج في الكلية، وخلال عمله في التعليم الثانوي ببغداد حتى غادر العراق عام ١٩٥٢.

وفي خلال دراسته صدر له في بغداد عام ١٩٥١ كتاب بعنوان «ماي شهر الدماء والدموع في المغرب العربي»، وقد صدرت طبعة ثانية لهذا الكتاب في تونس عام ١٩٥٦.

وكانت مقالاته الوطنية النارية تثير السفارة الفرنسية في بغداد، فتقدم احتجاجاتها عليها إلى الحكومة العراقية، وتتصل بالسفارة البريطانية في بغداد تطلب منها التدخل لدى السلطات العراقية لمنع نشر مقالاته في الصحف.

وما زلت أذكر مقالاً نشر له يوم ١٩٥١/٧/١٩ في جريدة «اليقظة» العراقية البغدادية لصاحبها الأستاذ الكبير المرحوم سلمان الصفواني، وكان يقول: «المغرب العربي باستيل فرنسي يضم (٢٨) مليونًا من العرب».

السفارة الفرنسية في بغداد أقامت الدنيا وأقعدتها بسبب هذا المقال، وقدمت احتجاجًا قويًا إلى السلطات العراقية، لكن أبا القاسم ظل يكتب مقالاته الوطنية، وظلت الصحف العراقية تنشر ما يكتبه من مقالات، وهكذا كان أبوالقاسم أول سفير للشعب التونسي لدى الشعب العراقي.

وفي عام ١٩٧٧ عندما كنت مديرًا لمعهد المخطوطات العربية، الذي تشرفت برئاسته مدة اثنتي عشرة سنة، وخلال عملي الدائب للنهوض به بعد أن أصابه الشلل والجمود لسنوات طويلة، فكرت في تشكيل لجنة استشارية من شخصيات علمية رفيعة المستوى، تحل محل مجلسه الأعلى الذي توقف نشاطه منذ سنوات، وكان اسم أخي الأستاذ أبوالقاسم بين الطليعة من أسماء العلماء الذين تشكلت منهم اللجنة. وقد ساهم بمقدرة متميزة وبكفاءة عالية في أعمال هذه اللجنة التي أنشئت عام ١٩٧٧ وظلت تمارس نشاطها رغم العراقيل التي أقيمت في طريقها وفي طريق المعهد، حتى جاء عام ١٩٧٩ وانتقل المعهد إلى تونس مع الجامعة العربية ومؤسساتها، وتوقفت اجتماعات اللجنة وتوقف نشاط المعهد حتى تم نقله إلى الكويت في أبريل ١٩٨١.

وظل الأستاذ أبوالقاسم يمارس نشاطه العلمي والأدبي بهمة الشباب وحماستهم حتى نال تقدير أرفع المؤسسات العلمية العربية فاختير عضوًا مراسلاً لمجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٧٢، وعضوًا مراسلاً لمجمع اللغة العربية في الأردن عام ١٩٨٠، وعضوًا مراسلاً لمجمع اللغة العربية في بغداد عام ١٩٩٠.

وخلال حياته الحافلة بالجليل من الأعمال، شارك في نشاط العشرات من المؤسسات والجمعيات الثقافية والأدبية في تونس وفي الوطن العربي بمشارقه ومغاربه، وتولّى المسؤولية في العديد من الدوائر، وشارك في العشرات من المؤتمرات والملتقيات.

وفي مطلع عام ١٩٧٩، جئت إلى تونس لأول مرة، بدعوة من وزارة الثقافة، للمشاركة في الندوة الإسلامية التي عقدت في القيروان بمناسبة المولد النبوي الشريف، فوجدت الأستاذ أبوالقاسم يتولّى مسؤولية الندوات والملتقيات في اللجنة الثقافية القومية، ورأيت

كفاءته العالية التي استطاع بها أن يجعل من تلك الندوة، والندوات السنوية التي تلتها، تظاهرة عربية إسلامية ترفع رأس تونس عاليًا.

أما مؤلفات «أبوالقاسم» ودراساته وبحوثه، ومقالاته وأحاديثه الإذاعية، فتذكرنا بالتراث الضخم الذي تركه علماء هذه الأمة وأعلامها.

إن رصيد أبوالقاسم يتألف من ثلاثين كتابًا مطبوعًا، وخمسة عشر كتابًا مخطوطًا معدة للطبع، وخمسين دراسة وبحثًا نشرت في كتب مشتركة، وفي مجلات تونسية وعربية، وألف حديث إذاعي في إذاعة تونس والإذاعات العربية، وحوالي خمسمائة مقالة نشرت في صحف ومجلات تونسية وعربية وهناك الكتاب الذي يسميه «العمر»(*) الذي يتضمن مذكراته وذكرياته.

وكما عرف أخي أبوالقاسم بالعلم والفضل في أرجاء الوطن العربي من مغربه إلى مشرقه، فقد عرفه الناس بالوفاء النادر لكل من اتصلت بينه وبينهم الصداقة والأخوّة والمودة.

إن حياة هذا العالم الجليل، الأديب المؤرخ، المحقق الناقد «أبوالقاسم محمد كرو»، تحتاج إلى كتاب كامل ضخم، أما هذه الكلمة القصيرة فهي تحية إكبار وإعجاب ومحبة، أوجهها إلى الرئيس زين العابدين بن علي، على إعطائه القدوة والمثل في رعاية وتكريم المخلصين العاملين في خدمة تونس الخضراء، وفي خدمة الوطن العربي الكبير، وفي خدمة هذه الأمة العظيمة وتراثها الحضاري، من التونسيين والعرب.

(صحيفة الصباح - تونس - عدد ٢٨ - جانفي ١٩٩٢)

****

(*) صدر هذا الكتاب في ستة مجلدات عام ١٩٩٨ بعنوان (حصاد العمر).

الباحث الكبير أبو القاسم كرو، يهدي إلى كلية الآداب التونسية

حصاد العمر وخزانة المعرفة (١٣٠٠٠ كتاب)

أ. د. أحمد الطريبق(*)

إن علاقتي بالباحث الكبير، أبوالقاسم محمد كرو، تعود إلى بداية السبعينيات، كتتويج للرابطة الوجدانية التي ربطتني بسميّه الشاعر «أبوالقاسم الشابي» بعد منتصف الخمسينيات. ومنذئذٍ، والصداقة بيننا لا تزداد إلا قوة وصفاء. هي عقود ثلاثة – تقريبًا، فيها من زاد المعاد، ومن نفاضة الجراب، ومن جونة العطار، ما يكفي لتحبير عشرات الصفحات عن حياة الرجل، عن سعة أفقه، عن عروبته، عن مغربيته الشاملة، عن الأسرار الثقافية التي يحتفظ بها، وعن خصال إنسانية نادرة وعن ..... وعن ....

وبدوري فإني أحتفظ بهذا الزاد إلى زمن يحفز فيَّ شهوة الكتابة والتسجيل: فعلى قارعة الطريق عوائق، وعلى شاطئ الحياة أمواج المد والجزر، وفي القاع أصداف ومحارات، وبين الرمال أرخبيلات وجزر خالدة.

والرجال، كالجزر، وكالأصداف، والنساء كذلك أرخبيلات وجزائر مرجان وفي الحياة – حياةُ الأناسيّ – عناصرُ باقية لا يلحقها فناء إلا بفناء الوجود، لأنها من طينة التجارب، ومن معدن الأصالة، ومن سفر التكوين الحضاري، إلى جانب عملية الصقل المستديمة بإكسير المعرفة، والذي هو النسغ الأبدي للكتابة والإبداع.

وأبوالقاسم محمد كرو، وجه مشرق، داخل المرايا المتجاورة، تلك التي أتبصَّرها، وأبصر فيها نهر الحياة المتجدد على الدوام، كما أتملّى من خلال الإشعاع فيها الانشداد الكلي إلى شمس المعرفة، مضاء عزيمة، وصدق رسالة، وإخلاص فداء.

(*) أكاديمي مغربي من مواليد طنجة عام ١٩٥٤م. عضو اتحاد كتاب المغرب.

والرجل، إلى جانب هذا وذاك، قد حباه الله، الذاكرة اليقظة، وكأنه «حي بن يقظان» يجتاز مسالك الثقافة والكتابة، على هدي منها، وهي تمور بحرارة الذات، غير منفصلة عن مدار العقلانية المنيرة.

ها إنني أجدني منساقًا إلى ما في النفس من نزوع البوح، ومن رغبة في إرخاء حبل المكاشفة النبيلة، وقد نسيت «الحدث» الذي هو النازلة الخيرة، تلك التي عمل لها، أبوالقاسم محمد كرو، طيلة سنوات، تفكيرًا، وتشريعًا، وإعدادًا وتهييئًا.

وإن الذين يعرفون الرجل، كعلم سامق، في دنيا العلم والمعرفة.. مشرقًا ومغربًا - يتصورون عالم الكتب الذي كان يصول فيه ويجول، كما يتصورون امتداد الصحبة بينه وبين الكتاب، اقتناءً ومودةً واشتهاءً، والرجل كما يعلم الجميع، تحمل المسؤولية الثقافية، بالإرشاد والتوجيه، كما كان فاعلاً فيها، بالتأليف والنشر. وطيلة عقود.

من هنا تأتي المفخرة التي خصَّ بها أبوالقاسم كرو، خزانة كلية الآداب بـ(منوبة) التونسية، حيث أهدى لها خزانته العامرة بالنفائس والنوادر والوثائق، هذه المكتبة تتضمن (١٣) ألف كتاب، وألفي دورية تمت فهرستها في مجلد من (٤٠٠) صفحة. (٥٠) في المائة منها كتب مهداة وهي مجلدة. كما أن هذه المكتبة تحتوي على مطبوعات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالمكتبة أيضًا، مصادر نشرتها المطبعة الرسمية التونسية منذ عام ١٨٦٠ وإلى جانب هذا التكشيف لما في الخزانة العامرة، فهي تحتوي على زهاء (٢٠٠٠) عنوان حول الشاعر أبوالقاسم الشابي.، والذي سخر له الباحث جزءًا كبيرًا من حياته العلمية، وبهذه المناسبة، انتظم برحاب الكلية مساء الجمعة ١٢/٣/١٩٩٩، حفل تكريمي للباحث التونسي الكبير أبوالقاسم محمد كرو، حضره وزير التعليم العالي وشخصيات من عالم الثقافة والفكر، وإلى جانب كلمة الوزير الرسمية تناول الكلمة السيد عميد الكلية د.محمد عبدالهادي الطرابلسي، والأستاذ عبدالسلام المسدي، والأستاذ جمعة شيخة، ود.كمال عمران، وممثل عن الطلبة الباحثين.

وبعد ذلك، جاء دور الأستاذ الكبير أبوالقاسم محمد كرو، (المولود بقفصة، في ١٩٢٤/٧/١)، فألقى كلمته المؤثرة البليغة بالعبر وخبرة الرجل الحكيم: «إن كلمة ثناء واحدة في حياتي، أفضل من مائة كتاب تصدر بعد وفاتي»(*) ومما زاد في حرارة الكلمة وفي قوة تأثيرها على الحاضرين، المفاجأة/ الوصية: «إني أوصي بأن لا تقام لي خطب تأبين يوم وفاتي، وبأن لا ينتظم لي موكب الأربعين» وما أصعبها من وصية، لأن الحق فيها مزدوج الانتماء: بين الوطن، وبين الذات الموصية. وإن تونس الخضراء ليس في مقدورها أن تمارس لعبة النسيان على رجل سقى أرضها باخضرار المعرفة وعراقة التاريخ، وجذّر في تربتها عروق الوفاء، وبذور الحرية.!؟.

والعبرة من الحدث الكبير، درسٌ لهذا الجيل الجديد، في زمن العولمة وإزهاق الأرواح الخيرة: بالعقوق والنسيان. كما أن مثيل الحدث يتكرر هنا وهناك وهنالك على امتداد خريطة الوطن العربي والإسلامي. وفي هذا السياق، لا أنسى الكلمة البليغة التي جاءت استفسارًا مني للأستاذ المرحوم العلامة عبدالله كنون: «إذا لم أحبس مكتبتي، وأنا على قيد الحياة، فإن مصيرها بعدي شذر مذر» واللفظ له، بلغة أهل الحديث. ومن باب الإقرار بالوفاء، فإن صنيع عبدالله كنون الحسني – وهو الصديق الوفي للباحث التونسي أبوالقاسم كرو، قد ترك أثره الحميد، على النفوس وكان حافزًا للهمم الكبيرة والكريمة.

ومن هذا المنطلق، ومن عوامل أخرى، يجب الاهتمام بالخزانات الخاصة وبالمكتبات المحبسة على أهل العلم، وإلا سيكون التكريس المستمر لسياسة العقوق، في حق الذين أنكروا ذواتهم، واسترخصوا أعزّ ما يملكون في حياتهم، فهل نحن فاعلون؟

بارك الله في عُمرِ صاحب «حصاد العمر» أبوالقاسم محمد كرو، الصديق والإنسان، والعالم والباحث، والمغربي الكبير القلب، والواسع الوجدان العربي.

(صحيفة العلم الثقافي – المغرب)

١٩٩٩/٤/١٠

****

(*) كلمة قالها فولتير المفكر الفرنسي.

التونسي أبوالقاسم محمد كرو

يكشف «أسرار» عبدالوهاب البياتي

الشاعر «النرجسي» أنكر بعض ماضيه وعادى أصدقاءه

أ. محمد علي اليوسفي(*)

الباحث التونسي أبوالقاسم محمد كرو يعتبر سجلاً ومرجعًا للثقافة العربية ولـ «أسرارها» خصوصًا. وهو عوَّد قرّاءه على كشف المزيد من خفاياها في مؤلفاته التي فاقت الخمسين عملاً، فضلاً عن المخطوط منها.

وفي كتابه الجديد «عبدالوهاب البياتي بين الذكريات والوثائق» (دار المعارف، سوسة - تونس، ١٢٨ص) يكشف عن بدايات علاقة «المشاكسة» بين عبدالوهاب البياتي وتونس، وكذلك علاقاته بغيره من الشعراء، خصوصًا بدر شاكر السياب ولميعة عباس عمارة ومحمد مهدي الجواهري، وصولاً إلى نزار قباني ومحمد الفيتوري وسواهم.

ونظرًا إلى طول تجوال المؤلف في المشرق العربي، ودراسته في بغداد منذ نهاية الأربعينيات في دار المعلمين العالية (١٩٤٨ - ١٩٥٢) فهو زامل البياتي وعايش الأصداء التي تركها السياب بعد تخرجه: «عرفت السيّاب قبله إذ كانت أشعاره تملأ الكلية على رغم أنه تخرج فيها قبل ذلك بعام وعُيِّن أستاذًا في المدينة (الرمادي) نفسها التي سيعين فيها البياتي عند تخرجه في العالية ١٩٥٠. وكان البياتي يومئذٍ طالبًا في فرع الآداب واللغة العربية «السنة الثالثة» عندما التحقتُ بالفرع نفسه في سنتي الأولى ١٩٤٨».

ويلح الأديب والباحث أبوالقاسم محمد كرو على «التوجه القومي» للبياتي في تلك المرحلة، وذلك على العكس مما يذهب إليه الناقد رجاء النقاش في قوله إن البياتي منذ بداياته الأولى انتمى سياسيّاً إلى اليسار. أما السياب فهو «الذي كان وقتها شيوعيّاً

(*) روائي ومترجم وشاعر وناقد تونسي من مواليد مدينة باجة التونسية عام ١٩٥٠م، مارس الكتابة الصحفية وله مؤلفات ودراسات كثيرة في الشعر والرواية والسير والتراجم والفنون والرحلات.

متطرفًا.. وعندما عاد السياب في سنوات لاحقة قوميّاً، كان البياتي قد أصبح يسارياً متحولاً».

ويذكر المؤلف أنه طلب من البياتي سنة ١٩٤٩ أن يشارك بقصيدة للاحتفال بزعيمين سياسيين تونسيين حلاً في بغداد وهما الحبيب ثامر ويوسف الرويسي. لكن الاحتفال لم يتم بسبب تدخل حكومة العراق وطلبها من الزعيمين التونسيين مغادرة البلاد، على رغم أن دعوتهما لا تمس بشؤون البلاد الداخلية بل كانت موجهة ضد المستعمر الفرنسي لتونس. كتب البياتي القصيدة وظلت لدى المؤلف. وهو ينشرها في كتابه هذا، مشيرًا إلى أن البياتي قد أسقطها مع قصيدة أخرى، من ديوانه الأول «ملائكة وشياطين».

القصيدة الأولى بعنوان «من بغداد إلى تونس» وقد أوردها أبوالقاسم محمد كرو بخط البياتي، ومطلعها:

لِمَنِ العنادلُ في الخمائل تسجعُ
وكواكبُ الليلِ المؤرّقِ تسطعُ؟

ويختم أبياتها التسعة والعشرين بقوله:

دينُ العروبة ثورةٌ بدمائه
ومنازلُ الصحراء حلمٌ ممتعُ
حلم إذا ما الليلُ اتعبه السُّرَى
غنّتْ عرائسُه لمن لم يهجعوا

ويعزو المؤلف إسقاط هذه القصيدة، وقصيدة أخرى بعنوان «أقوى من المستحيل» إلى تنكر البياتي، في تلك المرحلة، إلى انتمائه القومي.

وهذه القصيدة الثانية نظمها البياتي سنة ١٩٥١ وأهداها إلى ساطع الحصري بعد «استصدار أمر بالعفو عنه وإرجاع كل حقوقه إليه بما فيها إعادة الجنسية العراقية إليه ودفع معاشات التقاعد عن كل المدة التي غاب عنها» وهي قصيدة عمودية أيضًا، جاءت في خمسة عشر بيتًا ومطلعها:

عـــروبةٌ اقــــوى من المســـــتـــــحـــيلْ
نــادتـكَ بــالأمــسِ فـكــانَ الــرَّحـــــــيــلْ
أيـن جـنــاحـــــاك؟ فـــــــغــــابـاتـنـا
عــبـــر الضُّــحى يرتعُ فـــيـــهـــا النّخـــيل
طــاحـــــــونـةٌ كـنّـا ولــمّـــــــا نـزلْ
يـشـــــدّهـا بــالـشـــــمـس ثـورٌ هـزيـل
قــــــالوا: شـــعـــــوب الأرض فـي ثـورةٍ
فــمـــــا لـهـــذا الشـــعـب غــــافٍ ذليل

ولا يخفي أبوالقاسم كرو انتقاداته الموضوعية للبياتي كما فعل جلّ الذين كتبوا عنه بعد رحيله.

ففي مناسبة أولى دعي البياتي إلى زيارة تونس «تحت تأثير تلك القصيدة» فزارها لأول مرة سنة ١٩٧٢ «وأكرمته البلاد التونسية حسب شهادته الخطية» (يوثقها المؤلف) ويضيف: «على رغم أنه لم يعاملها بالمثل، مما يطول شرحه ويعرف بعضه الملحق الثقافي العراقي يومئذٍ (عامر ناجي)...» ويذكر أن البياتي زار مدينة «الكاف» لكنه غادرها من دون أن يلقي أشعاره «على رغم أن الدعوات لحضور الأمسية كانت قد وزعت فعلاً على الناس».

وعاد البياتي إلى زيارة تونس «التي أحبها وأحب نساءها» كما يقول المؤلف، في السنة التالية ١٩٧٣ بدعوة من اتحاد الكتّاب غير أنه رفض إلقاء شعره برفقة الشاعر محمد مهدي الجواهري، في حين أن هذا الأخير وافق على ذلك. فكان احتجاج المؤلف وهو يواجه البياتي، طريفًا «لماذا دُعيتَ إذًا؟ هل لمقابلة النساء فقط».

ثم ينتقل المؤلف إلى البرهنة على أن البياتي لم يكن من مؤسسي الشعر الحديث «وإنْ كان من زعمائه الكبار» ويستدرك «كان يمكن أن يكون البياتي الشاعر الكبير فعلاً لولا كرهه الشديد لغيره من الشعراء خصوصًا المجيدين منهم أمثال محمد مهدي الجواهري ونزار قباني وبلند الحيدري ونازك الملائكة ومحمد الفيتوري».

وتحت عنوان «الإفراط في حب الذات» يغمز المؤلف باتجاه كتّاب عراقيين آخرين قائلا: «ونرجسية البياتي قلّده فيها بعض العراقيين الذين صار الجلوس معهم مزعجًا لهم وللجالسين، إذ يفرطون في الحديث عن أنفسهم إلى حد أنك إذا لم تتحدث عنهم أو عن أعمالهم أكثر من خمس دقائق يتضايقون منك وينفضون من حولك...» لذلك يلمح إلى أنه قد يتناولهم في مرات لاحقة!

ويذكر أبوالقاسم محمد كرو أنه بيّن في وقت مبكر تأثر البياتي الواضح بالشاعر التونسي أبي القاسم الشابي خصوصًا في ديوانه الأول «ملائكة وشياطين» وكان البياتي «يعترف بهذا إلى سنة ١٩٥١ ولكنه كغيره من الشعراء تنكّر للشابي ولمن تأثر بهم».

ويختم المؤلف هذا القسم من كتابه مستخلصًا النتائج التي ذكرنا بعضها سابقًا. ويضيف إليها أن المنفى عند البياتي كان اختيارياً، وأنه كان «يميل إلى حياة المنافي ويستطيبها كما يستطيب طلب الجنسيات المختلفة (لبنان، تونس، الأردن، وغيرها...).

ويتضمن كتاب «عبدالوهاب البياتي بين الذكريات والوثائق» كما يدل عنوانه، وثائق عدة مهمة تحتل أكثر من ثلثي الكتاب، وتجمع بين رسائل للبياتي وقصائد بخط يده، ومجموعة من الصور، منذ أيام الدراسة في دار المعلمين العالية، لعدد من الكتاب والشعراء العرب.

ولا يفوتنا في النهاية، نقل هذا الهامش الذي أورده المؤلف نقلاً عن خالد محمد خالد «في أحد كتبه الأولى» إذ «يفرق بين الأنانية، فيجعلها قسمين، أنانية عمياء وهي لا تفكر مطلقًا في غيرها مهما كانت الأسباب، وأخرى مستنيرة وهي التي تأخذ حقها ولا تمدّ يدها إلى حقوق الآخرين».

صحيفة الحياة - لندن

العدد ١٣٥٤٩ - ٢٠٠٠/٤/١٦

****

الكاتب أبوالقاسم محمد كرو

بعد أن أهدى مكتبته الضخمة:

هدية بـ (١٤) ألف نسخة من مؤلفاته إلى التلاميذ

أ. محمد بن رجب(*)

بلغت النسخ التي أهداها الباحث والكاتب أبوالقاسم محمد كرو من مؤلفاته أو من المؤلفات التي نشرت بإشرافه أكثر من (١٤) ألف نسخة، بينها بالخصوص موسوعته «حصاد العمر» في ستة مجلدات وقد طبعها عام ١٩٩٨، و«موسوعة الشابي» مجلدة وبها ستة أجزاء مطبوعة منذ عام ١٩٩٤، و«شعراء المغرب» بقلم «أبوالقاسم الشابي» وتحقيق «أبوالقاسم محمد كرو» وكتابه «عبقرية الحداد» المطبوع عام ١٩٩٩ في ذكرى ميلاده فضلاً عن كتب أخرى أكثرها مجلدة تجليدًا فاخرًا مثل «آثار الشابي وصداه في الشرق» و«العرب» و«ابن خلدون» و«كفاح وحب» في طبعته الثالثة عام ١٩٩٤ وغيرها من المؤلفات.

وقد تم فعلاً نقل جميع الكتب إلى مخازن وزارة التربية، ويجري الآن إعدادها للتوزيع على المعاهد الثانوية في أقرب وقت لتستفيد منها الأجيال الحاضرة.. والأجيال القادمة لأنها بالفعل كتب مهمة تستبطن تجربة (٥٥) سنة من الكتابة المستمرة المعتمدة على معرفة واسعة تكونت لديه من دروسه ومطالعاته وسفرياته العديدة فضلاً عن المسؤوليات التي تولاها في تونس وخارج تونس.

ولأن الهدية ذات قيمة ثقافية وعلمية فإني أرى من الضروري إقامة ندوة وطنية كبيرة حول الكاتب «أبوالقاسم محمد كرو» في تونس تكون خاصة بالأساتذة في المعاهد الثانوية وتلاميذها ليتعرفوا عليه مباشرة وهذه الندوة هي الهدية القيمة التي يمكن إسنادها له وتعتبر كلمة شكر على هذه الجهود التي يبذلها لفائدة التلاميذ والطلبة والأساتذة.

والجدير بالذكر أن الأستاذ «أبوالقاسم محمد كرو» كان قد أهدى مكتبته الضخمة التي تحتوي على أكثر من (١٢) ألف عنوان من بينها مئات العناوين لمراجع ومصادر جدّ

(*) ناقد وصحفي ثقافي تونسي.

هامة، أهداها إلى كلية الآداب بـ(منوبة) تقبلتها منه وزارة التعليم العالي بسعادة وفخر وقد خصصت لها الكلية جناحًا في رحابها يحمل اسم صاحب المكتبة تخليدًا له.

كما نظم عميد الكلية آنذاك الأستاذ محمد الهادي الطرابلسي ندوة علمية حول كتابات كرو وشخصيته الثقافية شارك فيها الكثير من الباحثين أذكر من بينهم الأساتذة عبدالسلام المسدي وكمال عمران وجمعة شيخة، وقد صدرت مداخلاتهم في كتاب أشرف على نشره الأستاذ الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي جاءت فيه أيضًا مجموعة المقالات التي حررها أصحابها حول هذه المناسبة الطيبة.

ويواصل أبوالقاسم محمد كرو جهوده في التأليف والحضور الثقافي لإعلاء «الكلمة الثقافية التونسية في كل المحافل العربية التي تعرفه وتعتز به».

فقد طبع آخر كتاب له في زهاء (٤٠٠) صفحة يتضمن (٤٠) صورة نادرة، وعنوان الكتاب «طه حسين والمغرب العربي» وهو يغطي لأول مرة علاقة طه حسين بأقطار المغرب العربي (تونس والجزائر والمغرب) تناول أيضًا علاقاته مع إيطاليا وإسبانيا في عهدهما الإسلامي وكيف حاول طه حسين نشر العربية وتأسيس معاهد لها في الجزائر وطنجة منذ عام ١٩٥٠ ولكن الفرنسيين المستعمرين رفضوا الاقتراح ومع ذلك أسس معهد مدريد ليشع بإنتاجه وأعماله على شمال أفريقيا.

وفي الكتاب أيضًا كثير من محاضرات طه حسين ومقالاته عن المغرب والجزائر وتونس، لذلك حُقَّ للمؤلف تسمية كتابه «طه حسين والمغرب العربي»، وللعلم فقد تلقى أبوالقاسم محمد كرو رسالتي شكر من الرئيس زين العابدين بن علي والملك محمد السادس عن هذه الجهود للتعريف بالأدب التونسي والأدب المغربي.

وما ننهي به هذا الموضوع هو أن للمؤلف كتابين جديدين هما: «حوار وشعراء»، و«سليمان الحرائري» صدرا قبل أيام مما يؤكد أن الرجل يواصل العمل بحماس كبير وفي الطريق مفاجآت أخرى.

(صحيفة الصباح - تونس)

٧ فبراير ٢٠٠٢

****

«الأميرة نازلي» وبعد؟

أ. سمير العيادي(*)

شكرًا وألف شكر للأستاذ الجليل أبي القاسم محمد كرو... شكرًا وتحية تقدير لعطائه المتواصل في خدمة الأدب ورواد الأدب والفكر ورواد النهضة عمومًا في بلادنا من أبنائها ومن الوافدين عليها مريدين فاعلين ومتفاعلين.. فها قد مَنَّ علينا في غضون هذه السنة بمؤلف جديد صادر عن دار المغرب العربي بتونس، يعرفنا فيه بواحدة من أهم الشخصيات التي لعبت دورًا خطيرا في نضج الحركة الفكرية والسياسية لدى المصلحين الشبان في مطلع القرن العشرين ألا وهي (كما يفيد عنوان الكتاب) «الأميرة نازلي فاضل رائدة النهضة النسائية في مصر وتونس».

لقد كنا نسمع عن هذه المرأة ذكرًا لها باهتًا في حديث المؤرخين والباحثين والكتّاب، ولا ندرك إلا كونها عندما قدمت إلى تونس وتزوجها خليل بوحاجب، ابن الشيخ سالم بوحاجب (والذي كان له شأن ورفعة مكّناه من تولي منصب الوزير الأكبر في الثلاثينيات) فتحت صالونا أدبياً، جمعت فيه أعلام الفكر والأدب والسياسة، ولعبت دورًا لم يكن أحد قادرًا على تحديده في إذكاء فكرة الانتصار إلى الدفاع عن المرأة وحقها في التعليم والتطور، ولم أدرك أنا ذاتي، أحقية هذه السيدة في البحث والتحليل والتعريف بها في أي عمل تأريخي أو أدبي أو درامي، إلا حين حدثني أخي وصديقي الأديب الروائي الفاضل رضوان الكوني، عن مشروع له في كتابة مسلسل يصور الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية في تونس، من مطلع القرن العشرين إلى نشوب الحرب العالمية الأولى تقريبًا. ولم أظفر بعلم آخر حتى فوجئت بكتاب الأستاذ الكبير أبي القاسم محمد كرو فأقبلت عليه بشغف وفضول.

(*) قاص وروائي ومسرحي تونسي من مواليد عام ١٩٤٧، شغل عدة مسؤوليات منها مستشار ثقافي ومدير لمهرجان قرطاج. توفي بشهر مايو ٢٠٠٨م.

وتبين عندئذٍ – لكل قارئ نبه – أن الأميرة نازلي هي ابنة مصطفى فاضل، الذي كان من المفروض أن يرتقي العرش بمصر بعد أخيه الخديوي إسماعيل، لولا تنكر هذا الأخير وتقديم ابنه محمد توفيق، ففر الرجل إلى اسطنبول حيث لقي الحظوة والإجلال وتولّى الصدارة العظمى، مخلفًا في القاهرة مكتبة تكاد كتبها لا تحصى وهي التي أصبحت دار الكتب المصرية، وقد عني هذا الأمير العالم عناية فائقة بتربية ابنته وتلقينها علومًا عصرية وأفكارًا تحررية تقدمية، حذقت استغلالها في حياتها فناضلت من أجل أن تنهض المرأة بالمجتمع العربي، إذا وجدت سندًا يمكنها من تناول أسباب العلم والمعرفة والتحرر حتى تعيش مع الرجل وتتنفس نسائم الحداثة والتقدم.

كانت تفعل ذلك منذ مصاحبتها لزوجها الأول خليل شريف باشا سفير الخليفة العثماني في عدة عواصم أوروبية، ولما توفي بعلها عادت إلى القاهرة وفتحت صالونها ونطقت جهرًا بأفكارها، حتى أنها كانت محرضة لقاسم أمين على أن يتخلّى عن أفكاره التي تحط من شأن المرأة المصرية وتدعوها إلى ملازمة بيتها والامتناع عن أي دور في الحياة العامة، ففعل، وخرج إلى الناس بكتابيه المعروفين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة».

وشاء القدر أن تفد الأميرة نازلي إلى تونس في زيارة إلى أختها فتعرفت على أحد رواد النهضة ببلادنا، ألا وهو الشيخ سالم بوحاجب، وعلى نجله خليل بوحاجب الذي تزوجته رغم أنه كان يصغرها سنًا. ولعبت نفس الدور الدي لعبته بالقاهرة مذ وجدت السبيل ممهدًا بما كتبه المصلحون منذ أواخر القرن التاسع عشر، وفي مطلع القرن العشرين بصفة خاصة عن ضرورة تعليم المرأة كما فعل حسن حسني عبدالوهاب مثلاً، وعن تحرير المرأة ورفع الحجاب الذي كان يغمطها حقها في النظر إلى الحياة المتطورة كما فعل عبدالعزيز الثعالبي، وظل صالونها ملتقى المفكرين والمتحدثين من أمثال البشير صفر الذي دعته إلى فتح مدرسة للبنات. وظلت هي محل تقدير العارفين بها، رغم الريبة التي نشأت في عقول بعض الناس في «السرايا» وفي مصالح المخابرات، وفي أذهان من كان لا يرى في المرأة المثقفة إلا مارقة كافرة سافرة صنيعة الاستعمار. وفي سنة ١٩١٣ توفيت الأميرة نازلي مخلفة أثرًا كالوشم، بل كالدليل الذي به اهتدت من بعدها نساء تونسيات عديدات.

لذلك، إذ اثنيت على الجهد الذي بذله أستاذنا أبوالقاسم في تعريفنا بهذه المرأة الرائدة وتقديم جميع الوثائق والشهادات حول عملها الجليل، فإني - في العنوان - تساءلت: أين من يبذل مثل هذا الجهد ليعرفنا بحقيقة وعمق تحليل بمن أخذن منها المشعل في بلادنا وكابدن العناء والتعنيف بسبب مواقفهن ونداءاتهن ونضالاتهن، من أمثال منوبية الورتاني وحبيبة المنشاري وتوحيدة بن الشيخ وزكية الفراتي، وبصورة خاصة بشيرة بن مراد التي تستحق أن يكتب في شأنها بحث تاريخي موثق في مستوى ما قامت به من جليل الأعمال، وهي ابنة مجد وكرم. فهل لدى مراكز البحوث (والكريديف خاصة) خبر؟

جريدة الصباح - تونس

٢٠٠٢/١٠/٢٩

****

أبو القاسم محمد كرو

أ. نور الدين بالطيب(*)

في بادرة مفاجئة أعلن الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو اعتزاله الكتابة، بعد أن بلغ الثمانين من العمر، وبعد أن أصدر ثمانين كتابًا، وهذه أول مرة يعلن فيها كاتب تونسي اعتزاله الكتابة، وهو الثاني عربيًا بعد محمد حسنين هيكل.

لن ادخل في مساءلة لهذا القرار، ولكن توقف أبي القاسم كرو عن الكتابة خسارة حقيقية للثقافة التونسية، فهو باحث من طراز عالٍ لم يترك عالمًا منسيًا إلا وبحث عن أخباره وأعماله وأصدر كتابًا عنه، وعن طريقه اكتشفنا الطاهر الحداد وأبا القاسم الشابي وغيرهما من أعلام الثقافة التونسية في كل عصورها.

لم يكن الأستاذ كرو مجرد كاتب بلا موقف، بل كان دائمًا منتصرًا للتجديد مؤمنًا بالأصوات الجديدة منحازًا لتونس، وحين نعود إلى سلسلة كتاب البعث التي أصدرها في الخمسينيات حال عودته من المشرق، نكتشف حجم الجهد الذي بذله هذا الرجل في خدمة الثقافة التونسية.

توقّف الأستاذ أبوالقاسم محمد كرو عن الكتابة بعد أن أغنى المكتبة التونسية بأعمال عن أعلام الفكر والسياسة، فإلى جانب تجربته الأدبية عايش عددًا من رموز الحركة الوطنية من بينهم المرحوم الدكتور الحبيب ثامر، الذي خصه بكتاب عن حياته ومسيرته السياسية يعد من بين مراجع الحركة الوطنية.

توقّف عن الكتابة وفي بيانه شيء من الألم والمرارة، هذه المرارة التي تسكن للأسف الكثير من قلوب الكتاب الذين قدموا للثقافة التونسية وواجههم الآخرون بالجحود والنكران.

(*) شاعر وصحفي تونسي.

لن نقول للأستاذ أبوالقاسم محمد كرو عدْ إلى الكتابة لأنه اختار الانقطاع عن قناعة، لكننا نقول له مد الله في أنفاسك. لقد قدمت للثقافة التونسية الكثير وآن للفارس أن يرتاح.. ألم تكن فارسًا في المعارك الأدبية؟ ويكفيك أنك أهديت مكتبتك العظيمة إلى كلية الآداب بمنوبة لتستفيد منها أجيال تونس الشابة.

(صحيفة الشروق - تونس ٢٠/٢/٢٠٠٣)

****

كرّو الحكيم

أ. صالح الحاجة(*)

لا أدري بالضبط متى بدأ حبي للأستاذ الكبير أبوالقاسم محمد كرو... إنه حب قديم مقيم، بل لعله ولد معي ولا أعرف له سببًا محددًا ولا تاريخًا محددًا.

وقد ظللت أتابع مسيرة هذا الرجل ورحلة كفاحه الثقافي والأدبي طويلاً.. وهو كفاح طويل وصعب أثمر الثمرات وأنجز الإنجازات وأضاف الإضافات، وها إننا اليوم أمام موسوعة ثقافية وتاريخية وأدبية كبيرة تمثل ركنًا أساسياً من أركان الثقافة الوطنية.

لقد أهداني أمس كتابه الجديد «أبحاث ومقالات» فاكتشفت صفحة أخرى من كفاح وعمل وجهد هذا الرجل، الذي ازددت اقتناعًا بعد اطلاعي على هذه الصفحة بأنه لم يضيع عمره في التافه من الأشياء، وأفنى أيامه وأعوامه في العمل والفعل.

إن حياته كانت عبارة عن قراءة وتأليف وبحث ونقاش، وكان مثل الصياد الماهر يلهث وراء الحقائق والمعلومات والوثائق والصور النادرة، ولذلك فهو يملك اليوم ثروة معلوماتية ووثائقية قد لا تملكها المراكز المختصة.

إنني أقدم هذا العملاق التونسي الذي من حقنا في تونس أن نفتخر به إلى الأجيال الشابة والصاعدة، لكي تتعلم منه وتنحو نحوه وتسير في طريقه وتعود إلى تراثه وتعكف على دراسته.

إنه نموذج طيب جدير بأن يكون قدوة لهذه الأجيال، فتنسج على منواله وتتعلم منه الجدية والانضباط والاجتهاد والصبر والإصرار على النجاح والتفوق.

ليت أجيالنا تتعلم من كرو وأمثاله من العظماء والكبار والعمالقة، الذين ارتقوا بتونس وجعلوا منها قلعة علم ومعرفة وثقافة، فتواصل هذه الأجيال رحلة الكفاح والنجاح.. ولا تصاب بالإحباط ولا تشغل نفسها بالقشور على حساب الأصل الذي يرتقي بالشعوب.

(صحيفة الصريح - تونس ٢٠٠٤/١/٢٧)

****

(*) صحفي تونسي معروف ومؤسس جريدة الصريح ومدير تحريرها سابقًا.

المؤرخ التونسي أبوالقاسم محمد كرو
يعلن توقفه عن الكتابة

أ. عبدالصمد العشاب

في بادرة غير مسبوقة – في ما نعلم – أعلن الأستاذ مؤرخ تونس وعضو المجامع اللغوية العربية توقفه عن الكتابة بصفة نهائية. وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب، لأنه صادر عن مثقف كبير، وعالم محيط بالفكر العربي، ومؤلف لأكثر من ستين كتابًا في مختلف مناحي الثقافة والفكر العربي، وكاتب مجدّ في الصحف والدوريات العربية. ولكن الذي دعاه لهذا الموقف، عبر عنه في آخر مقالة نشرها بملحق إحدى الصحف الصادرة بتونس يوم الجمعة ٦ فبراير ٢٠٠٤، قال الأستاذ كرو: «طوال عمري كنت لا أخشى شيئًا كما أخشى أدعياء القلم وكذلك أدعياء الدين، أو الذين لا يحبون وطنهم إلا إذا أغدق عليهم المنافع أو منحهم مكاسب وأرباحًا وفيرة، أي إذا وجدوا فيه رغد العيش، أما غيره فليس وطنًا لهم، وهكذا لن يكونوا وطنيين مطلقًا»، ثم يضيف: «والذين يتعمدون إخفاء الحقائق وتجاهل التاريخ، والذين لم يخلقوا ليكونوا كتابًا أو مؤلفين، والذين هم (ناقة الله وسقياها) في كل ميدان»، وعدّد الأستاذ كرو من هذه النماذج ما نلمسه منتشرًا بيننا في المجتمع العربي كالداء يستشري في كل مكان.

لقد ضاقت نفس الكاتب المقتدر بهذه النماذج، فتخلّى عن الانتساب إلى الكتابة والكتّاب، ولكنه أحرج كثيرًا من الكتاب. ونحن إذ نقدم هذا النعي قبل أوانه نهمس في أذن الكاتب بأنه الشخص الذي لن يُنسى، ولا يمكن للقلم العربي أن يجحد فضله على الثقافة العربية، والبحث في تاريخ تونس، وعطفه، وبذله الكبير، من أجل العلم والفكر،

فهو الذي وهب مكتبته العامرة بالذخائر لكلية آداب جامعة منوبة بتونس، وهو الذي أسس مؤسسة علمية تحمل اسمه، ويصرف عليها حالياً من ماله الخاص.

فتحية لصديق المغرب والمغاربة، ونشدّ على يده بعزم وقوة، ونقول له سواء اعتزلت الكتابة أم لم تعتزل. فأنت دائمًا ستبقى المثقف الصريح الملتزم والله معك.

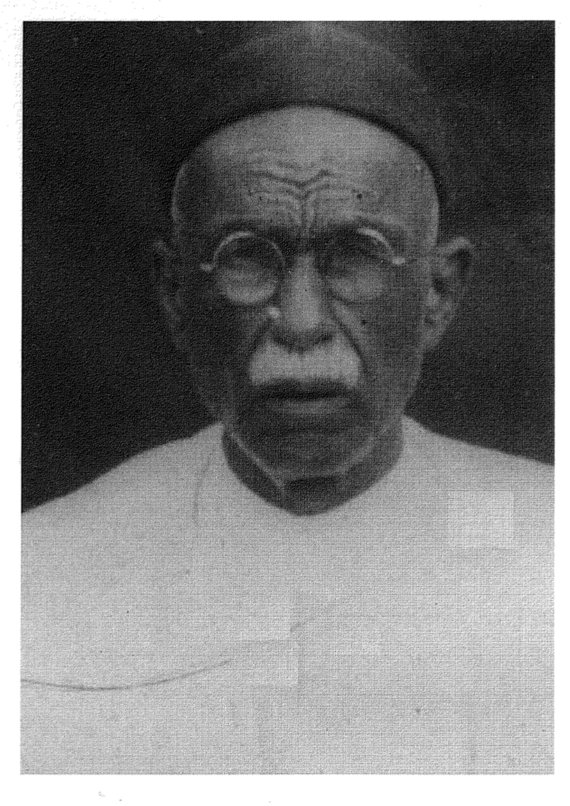
(صحيفة الشمال - طنجة - المغرب
العدد ٢١٠ - ٨ مارس ٢٠٠٤)

****

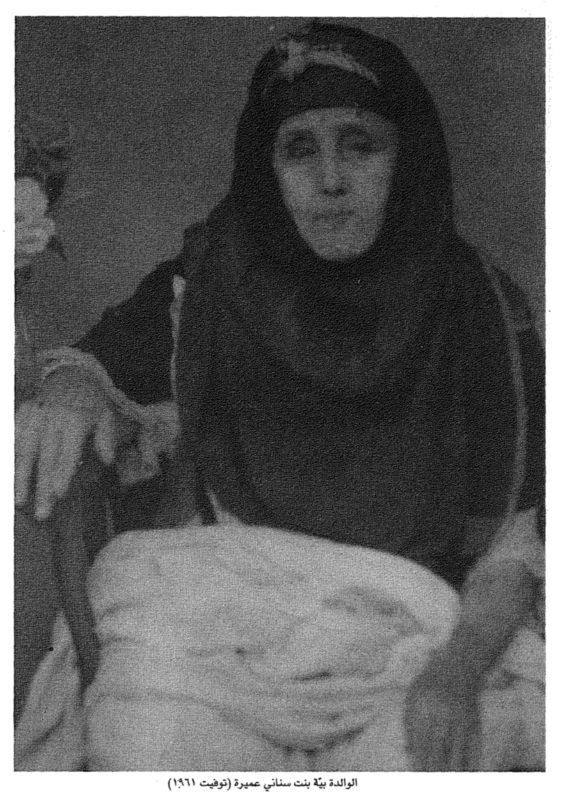
القسم الرابع

أبو القاسم كرّو في صور

مع العائلة



الوالد محمد بن عمر كرّو (توفي ١٩٥٠)



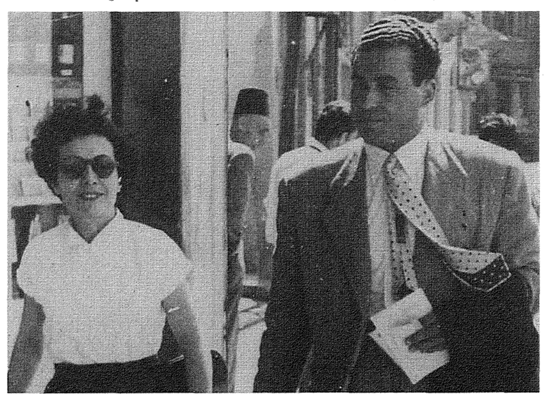
الوالدة بيّة بنت سناني عميرة (توفيت ١٩٦١)



الخطيبة عام تخرجها في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٥٢ حاملة شهادة الليسانس في التاريخ



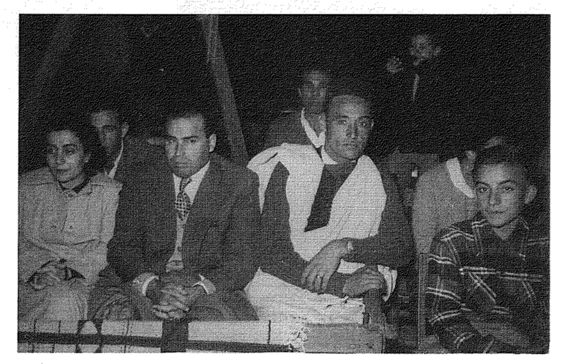
الخطيبة مديحة رشيد مشرفية عام ١٩٥٢
(من لبنان)



مع الخطيبة التي صارت زوجته في عام ١٩٥٢ وأبوالقاسم يحمل روبها الجامعي في شارع من شوارع بيروت



في ساحة الشهداء عام ١٩٥٢: أبوالقاسم إلى اليمين وتقف إلى جانبه أم خطيبته سلمى صعب
وإلى جانبها ابنتها الطبيبة جمال والخطيبة مديحة



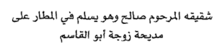
أبو القاسم وزوجته في سيرك عالمي بطرابلس الغرب عام ١٩٥٤



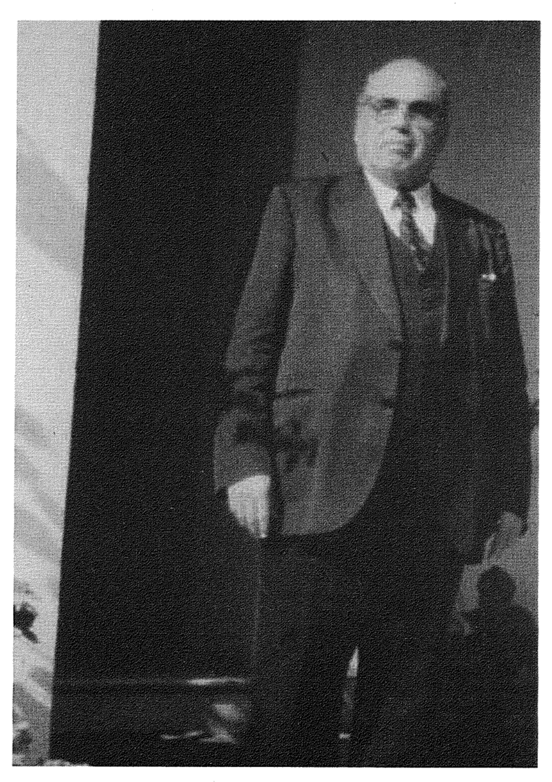
أبو القاسم وزوجته بطرابلس الغرب عام ١٩٥٢



مع شقيقه القاضي والشاعر
الأستاذ صالح كرو في المطار القديم
يوم عودته ١٩٥٤/٩/٢٧



شقيقه المرحوم صالح وهو يسلم في المطار على
مديحة زوجة أبو القاسم



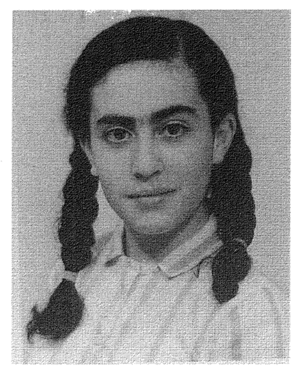
أبو القاسم في مدخل بيته

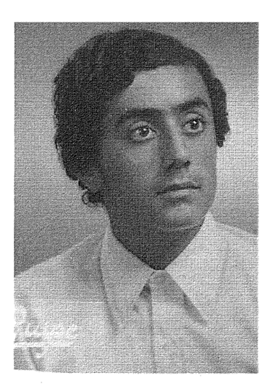


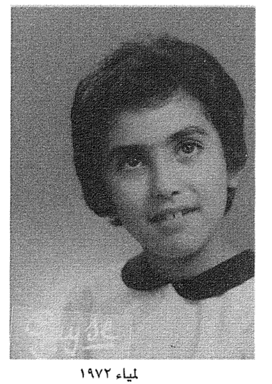
مديحة: الأم



أبوالقاسم كرو: الأب


منى ١٩٦٨


خلدون ١٩٧٣


لمياء ١٩٧٢



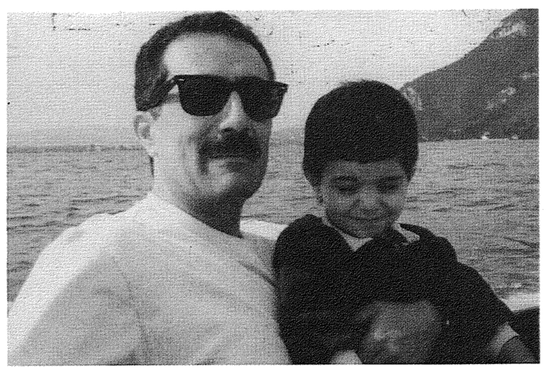
ابنته الأولى منى في بيتها بأمريكا حيث هاجرت في عام ١٩٧٥ وكانت تحمل شهادة الليسانس (الإجازة) في التاريخ



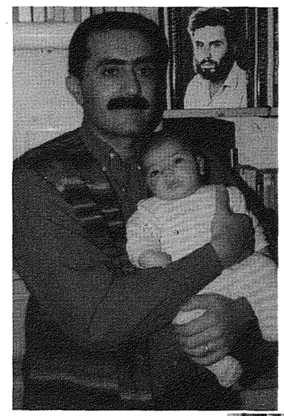
ابنته الأولى منى قبل أن تقود الطائرة بأمريكا



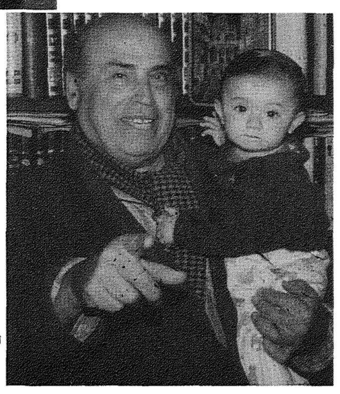
خلدون يوم عرسه وزواجه من يمينة عام ١٩٩٢



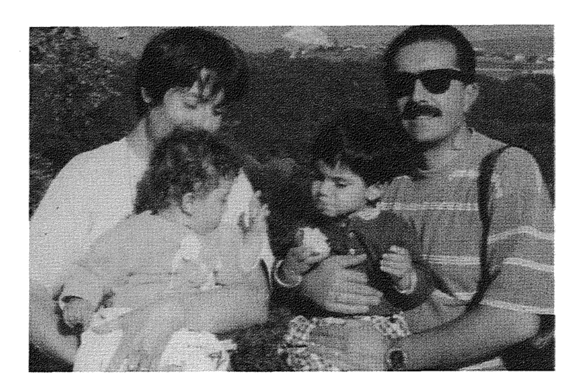
الدكتور خلدون مع ابنه نديم عام ١٩٩٦



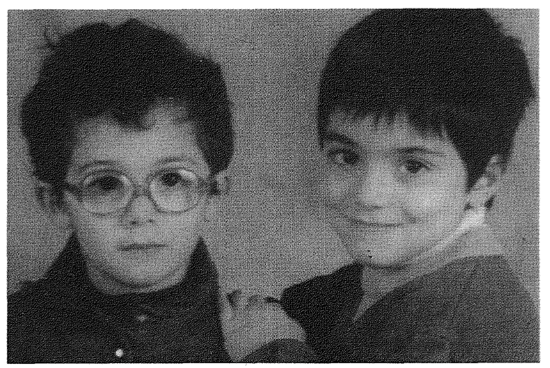
الدكتور خلدون مع ابنه نديم عام ١٩٩٤



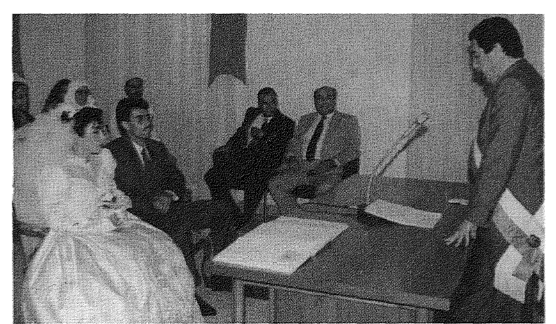
أبوالقاسم الجد في جناح من مكتبه
مع حفيده سليم



الدكتور خلدون نجل الأستاذ كرو عام ١٩٩٦ مع زوجته وابنيه نديم وسليم



الحفيدان نديم وسليم بباريس عام ١٩٩٨

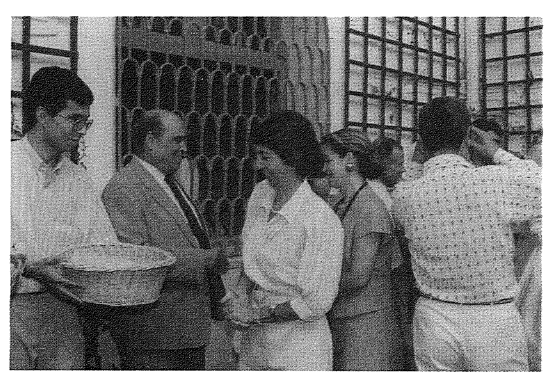


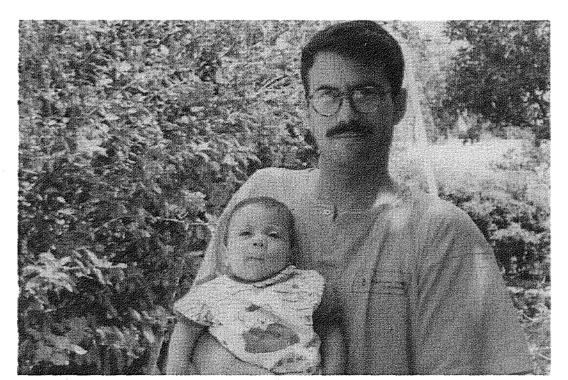
لمياء كريمة الأستاذ كرو وعريسها عادل صالح يسمعان معًا خطاب ضابط الزواج بلباسه الرسمي عن زواجهما وفق القانون الرسمي وقد ظهر إلى يمين الصورة أبوالقاسم أب لمياء وصالح أب عادل كشاهدين



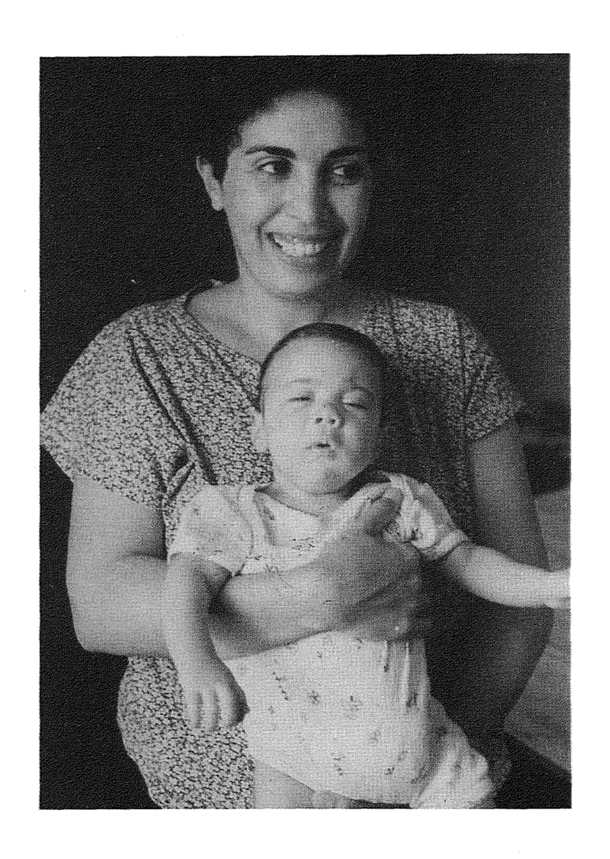
أبو القاسم في بلدية تونس (العاصمة) يوقع على مكتب البلدية عن زواج ابنته لمياء لعادل البديوي يوم ١٩٩٠/٧/٧

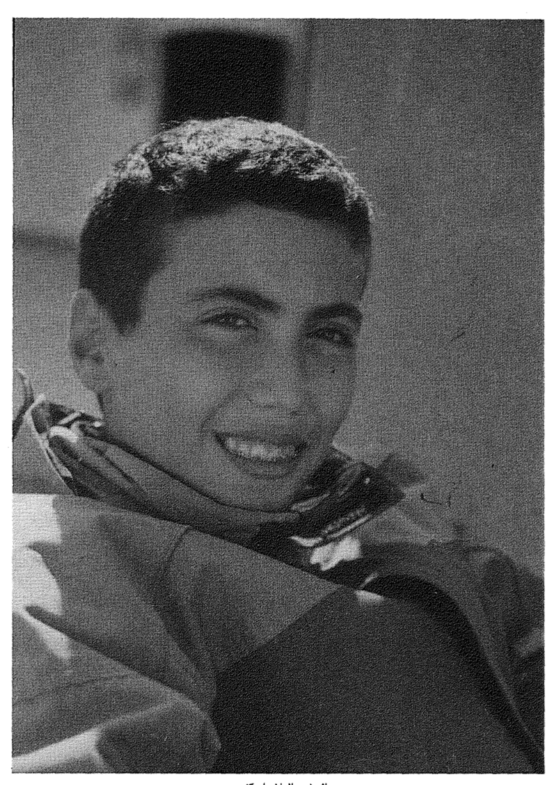

من الصور العائلية


من صور العائلة



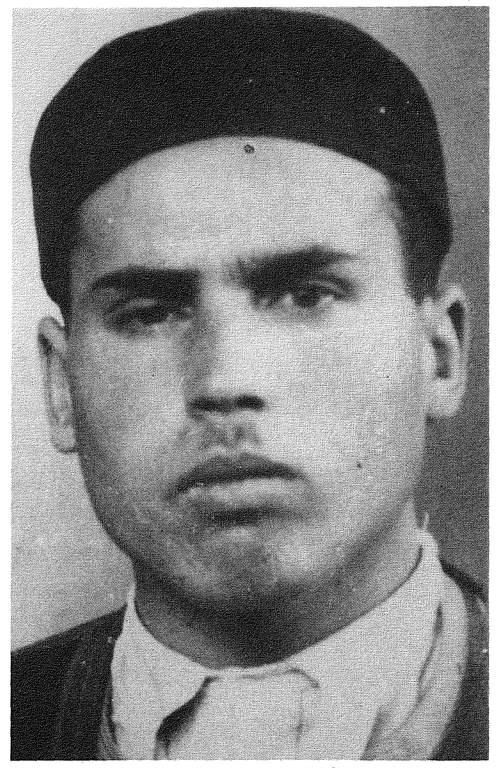
من الصور العائلية





الحفيد اليافع اسكندر

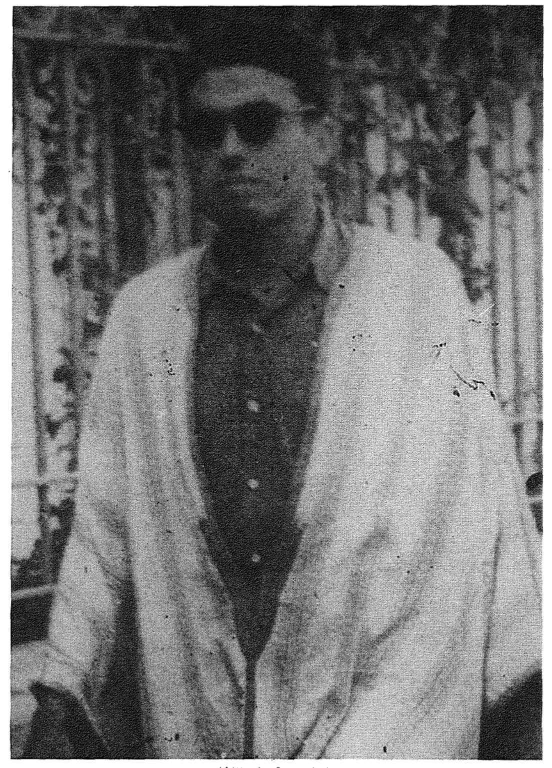
من صور مراحل التكوين



أبوالقاسم في شبابه ١٩٤٢



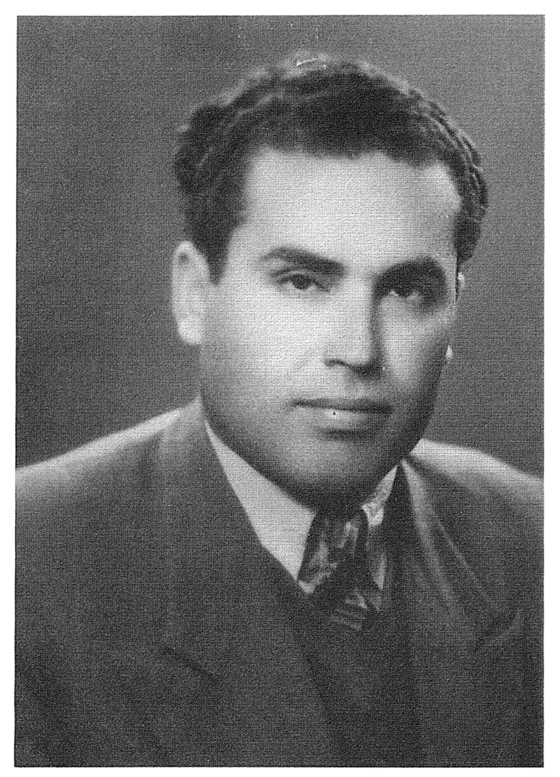
أبوالقاسم عام ١٩٤٧ في عز شبابه



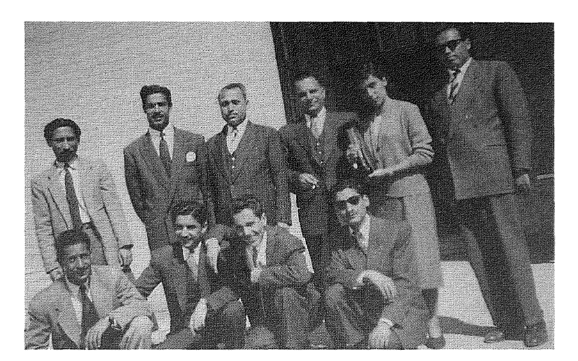
في نهج رومة بتونس ١٩٤٧



أبوالقاسم طالبًا في الكلية العسكرية ببغداد ١٩٤٨



أبوالقاسم في بغداد عام ١٩٥١

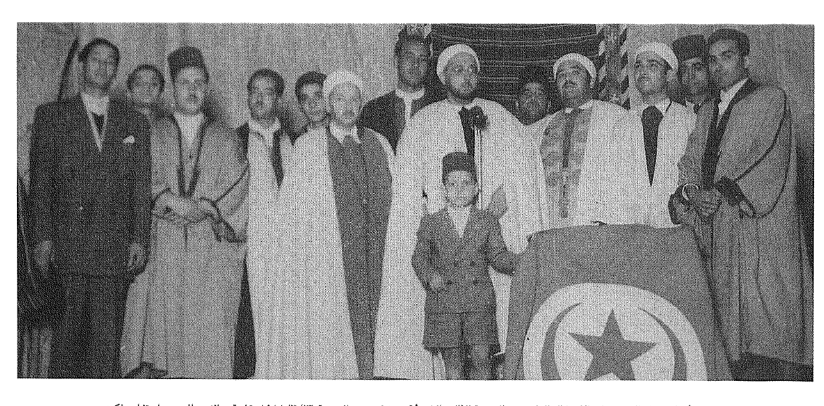


مع مجموعة من زملائه أثناء فترة التطبيق في المتوسطة الغربية ببغداد ١٩٥٢/٣/٣١

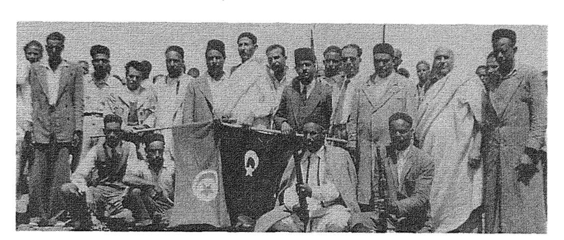


أبوالقاسم كرّو في الوسط يحمل شهادة الليسانس بعد تخرجه

مع العرب وفلسطين



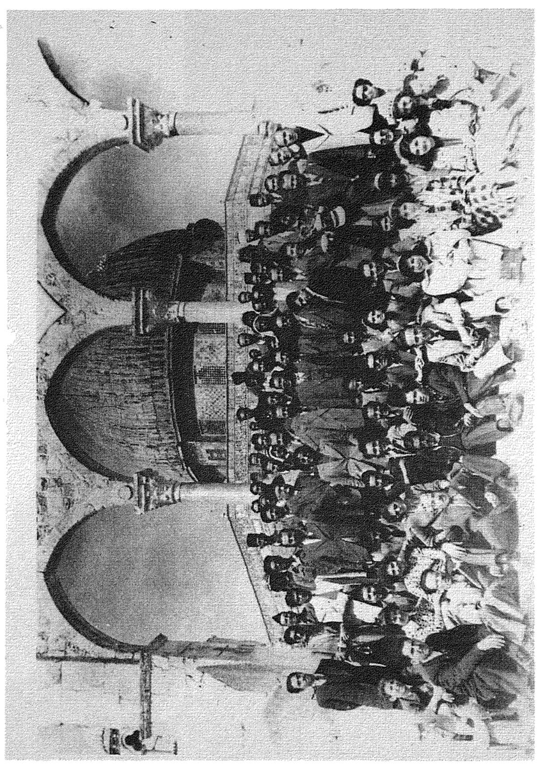
أخذت هذه الصورة في الاحتفال العام بعيد العروبة الثالث الذي أقيم بتونس يوم الجمعة ١٩٤٨/٣/٢٦ بقاعة - النورماندي - احتفاء بذكرى تأسيس الجامعة العربية: والأشخاص من اليمين إلى اليسار: أبوالقاسم محمد كرو - الكاتب العام للجمعية المذكورة، طالب، الحبيب بالخوجة، الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور، علي الجندوبي، الشيخ محمد المختار بن محمود، محمد الصغير الشابي - رئيس الجمعية، الهادي بالقاضي، أحمد شقيق الحبيب بالخوجة، الشاعر مصطفى خريف، خير الدين بيرم، طالب، ميمون كسيرة، وطالب.



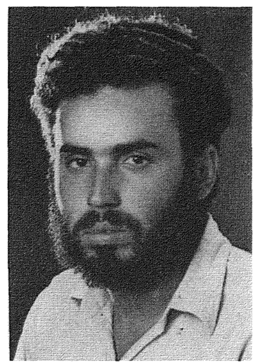
مع بعض المتطوعين التونسيين لفلسطين



الوطني التونسي المقيم في بنغازي عمر
الهمامي وهو يخطب يوم ١٩٤٨/٥/٢٠
في بعض المتطوعين التونسيين
لفلسطين وبينهم أبوالقاسم



أبوالقاسم في مارس ١٩٥١ بمدينة القدس أمام قبة الصخرة مع وفد يتألف من أكثر من ٥٠ طالبًا وطالبة من دار المعلمين العالية ببغداد، وقد ظهر أبوالقاسم في الصف الأول بين الواقفين رقم (٦) وهو يرتدي نظارات سوداء



أبوالقاسم عام ١٩٤٩ بعد خروجه من السجن من أجل فلسطين في بغداد حيث قضى ٢٩ يومًا
وأطلق سراحه بعد صدور البراءة من المحكمة العسكرية



مع صالح جواد الطعمة أول اليمين ثم أبوالقاسم ثم صديقه الأديب عيسى الناعوري

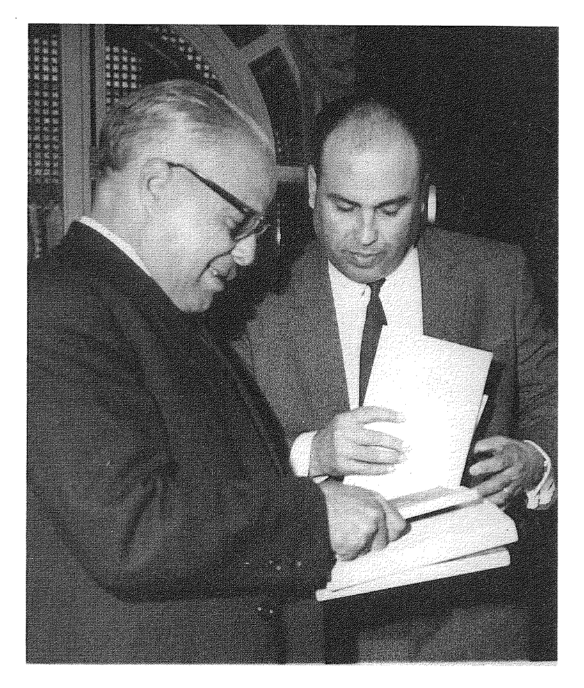
مع الشابي



أبو القاسم مع وزير التربية الأديب محمود المسعدي ١٩٥٩
في معرض أقامه عن الشابي وخلفهما د. أحمد عبدالسلام



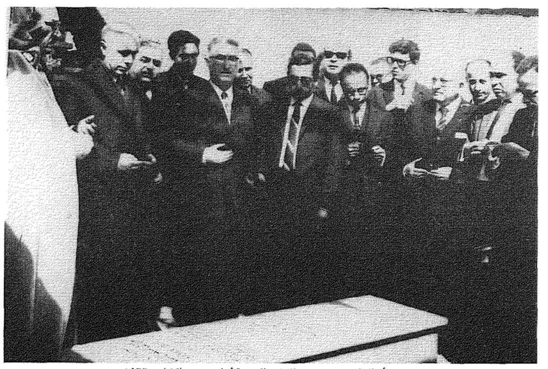
يلقي محاضرة عن أبي القاسم الشابي
أمام الوالي والوفود العربية بتوزر



رئيس الجمهورية السابق الحبيب بورقيبة بقصر قرطاجنة عام ١٩٦٦
وأبوالقاسم يقدم له كتبه عن الشابي



أبو القاسم يحاضر وإلى جانبه والي توزر وأحد أصدقاء الشابي

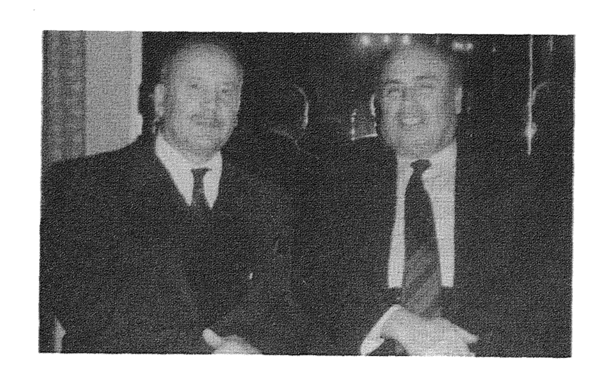


أبوالقاسم بين جموع الوفود العربية أمام ضريح الشابي ١٩٦٦



من اليمين: خليفة التليسي ثم أبوالقاسم .. وغالي شكري وعبدالحميد الشابي
شقيق الشاعر الشابي يخطبون في توزر

في المجامع اللغوية



أبو القاسم وإلى جواره د. عبدالكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية في الأردن



في أول مؤتمر لمجمع اللغة العربية في القاهرة برئاسة طه حسين، حضر أبوالقاسم مؤتمره لأول مرة بعد تعيينه عضوًا مراسلاً في عام ١٩٧٢ وكان حضوره عام ١٩٧٣



صورة أبوالقاسم في النادي الدبلوماسي بالقاهرة عام ٧٣ بين زملائه أعضاء المجمع العاملين وهم من اليسار: الأستاذ عبدالله كنون (المغرب) ود.عدنان الخطيب (سورية)، وسعيد درويش (مصر).



د. حامد عمّار مع أبوالقاسم أثناء تناول القهوة

الرحلات



أبوالقاسم في طريقه إلى رمز الشهيد المجهول (ببغداد) وقد ظهرت أمامه الشاعرة الدكتورة سعاد الصباح ١٩٨٩



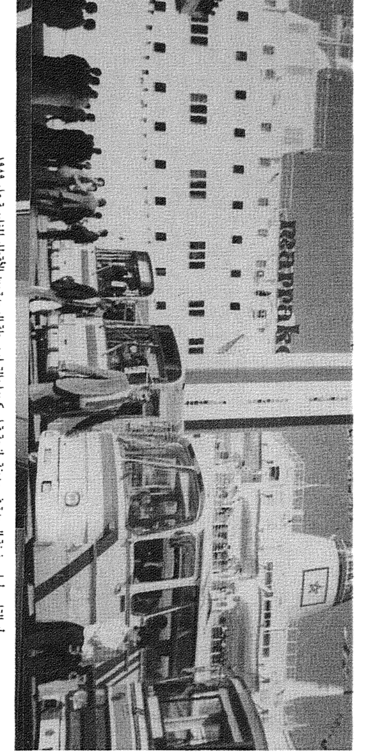
أبوالقاسم مع شريكه الجامعي التونسي في الرحلة الإسبانية



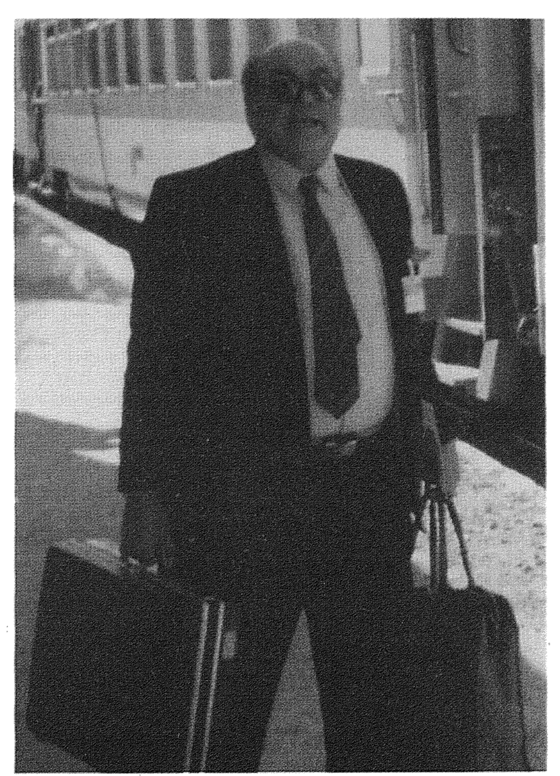
أبوالقاسم في لندن (إذاعة B. B. C) ١٩٦٨ مع المذيع سعيد العيسى



أبوالقاسم في القاهرة ديسمبر ١٩٦٩ وتبدو السيدة أم كلثوم ويوسف وهبي



أبوالقاسم أمام سفينة الوحدة في مدينة طنجة قبل ركوبها والقيام برحلة الوحدة بين الأقطار المغاربية عام ١٩٨٩



أبوالقاسم في فاس قبل ركوب قطار خاص إلى مدينة طنجة حيث تنتظر جميع الوفود سفينة الوحدة

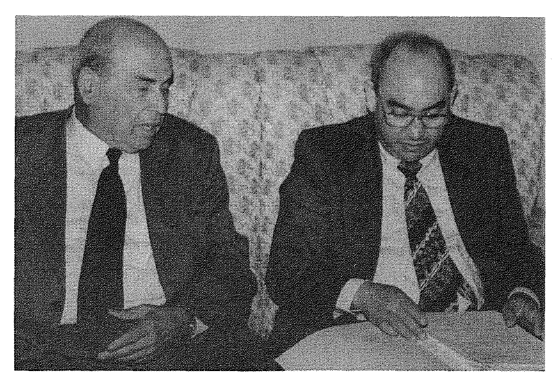
حفلات التكريم



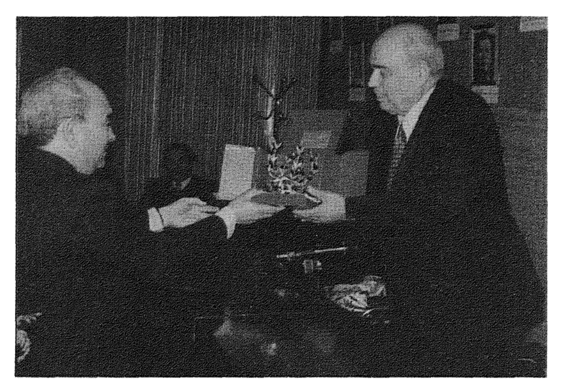
أبوالقاسم في حفل أقيم له بنادي القلم بتونس ١٩٥٤ إثر عودته إليها بعد غياب دام (٧) سنوات وقد ظهر رئيس النادي (محمد العروسي المطوي) يخطب في افتتاح هذا الحفل في فندق سان جورج.



أبوالقاسم يلقي كلمة في الحفل التكريمي الذي أقيم له في ١١ نوفمبر ١٩٥٤


عميد كلية الآداب بمنوبة الدكتور محمد الهادي الطرابلسي يقرأ عقد الهبة في صالون أبي القاسم


وزير التعليم العالي المرحوم الدالي الجازي وهو يلقي كلمته في حفل التكريم



هدية العمادة يقدمها العميد وهي شجرة زيتون من الفضة



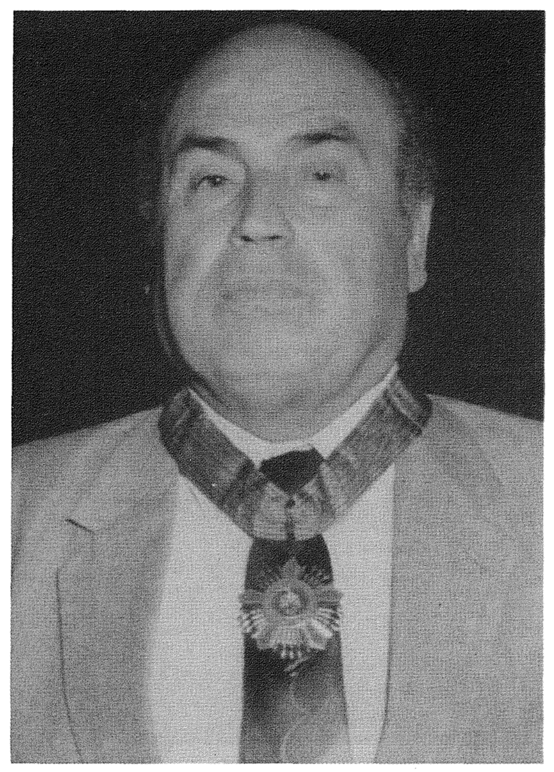
هدية المكتبة: تقدمها عواطف حميّد المسؤولة عن جناح أبي القاسم كرّو بكلية الآداب



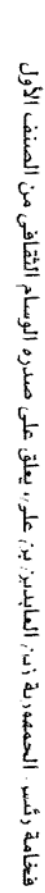
في صالون عميد كلية الآداب بمنوبة يوم تكريم أبوالقاسم لإهدائه مكتبته الخاصة. ويبدو في الصورة: محمد الميلي ود. محمد الهادي الطرابلسي ثم الدالي الجازي وزير التعليم العالي وقتئذٍ.

الأوسمة

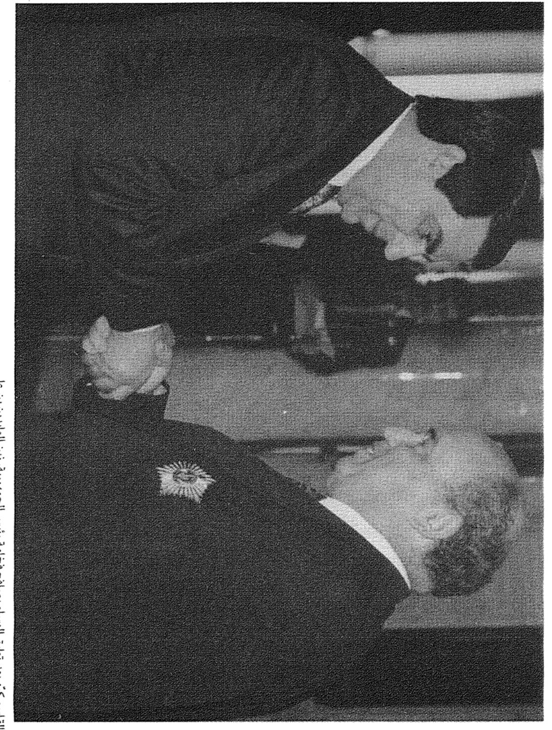
صور مع فخامة رئيس الجمهورية



أبوالقاسم وهو يرتدي وسام الجمهورية



فخامة رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي، يعلق على صدره الوسام الثقافي من الصنف الأول



أبوالقاسم كرّو بعد تعليق الوسام يصافح فخامة رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي



عام ١٩٨٩ في بهو القصر الرئاسي، وقد ظهر أبوالقاسم في الصف الأول وذلك بعد تعليق الوسام على صدره وعن يمينه ابن أبي القاسم الشابي الذي أخذ الوشاح نيابة عن والده



أبوالقاسم وقد سلّمه فخامة رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي جائزة الدولة التقديرية في الأدب

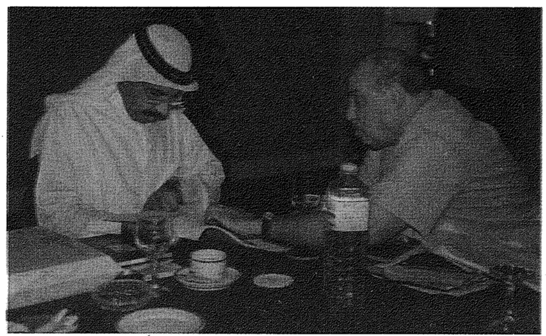


مع فخامة رئيس الجمهورية، زين العابدين بن علي. الصورة تحمل توقيع فخامته ، عام ٢٠٠٣.

بعض صوره المتعلقة بمؤسسة

جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري



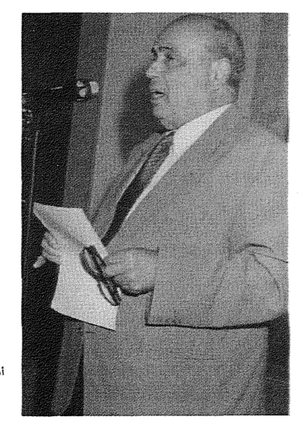


أبوالقاسم مع الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين، في اجتماع مجلس الأمناء بالقاهرة



الأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين أثناء توزيع المعجم يتوسط الأمين العام للمؤسسة ووزير الثقافة التونسي - أبوالقاسم في أقصى اليمين يتلو أسماء المشاركين في المعجم


في قصر النجمة الزهراء بسيدي بوسعيد الأستاذ البابطين في مقدمة كبار المدعوين قبل توزيع المعجم على الشعراء التونسيين

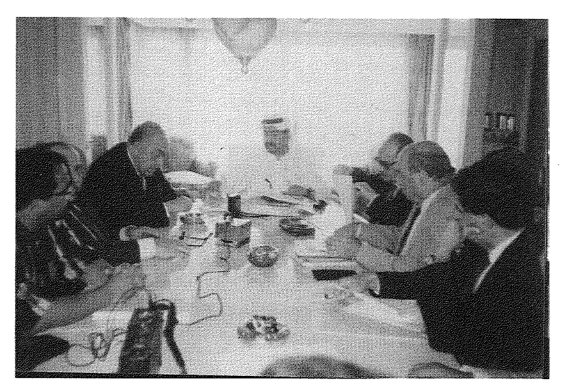

أبوالقاسم يلقي كلمة أثناء دعوة المشاركين التونسيين في المعجم



في فندق شيراتون الجزيرة بالقاهرة. أبوالقاسم مع عبدالعزيز السريع الأمين العام للمؤسسة



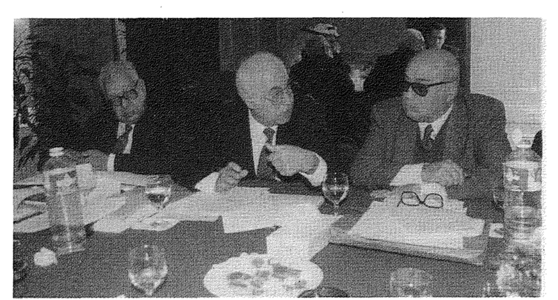
أبوالقاسم على نهر النيل في بيت الأستاذ عبدالكريم سعود البابطين بالقاهرة، وعن يمينه أ. عبدالعزيز السريع



مجلس الأمناء ويبدو أبوالقاسم ضمن أعضائه مجتمعًا برئاسة عبدالعزيز السريع الأمين العام للمؤسسة



في القاهرة عام ١٩٩٢، من اليسار: د. إبراهيم عبدالله غلوم، د. محمود مكي، د. علي الباز، أبوالقاسم كرو عبدالعزيز السريع، د. مصطفى هدّارة، د. محمد زكي العشماوي. ومدير مكتب المؤسسة في القاهرة أحمد العشري.



أبوالقاسم إلى اليمين ثم الدكتور علي عقلة عرسان ثم الدكتور محمود مكي في اجتماع مجلس الأمناء

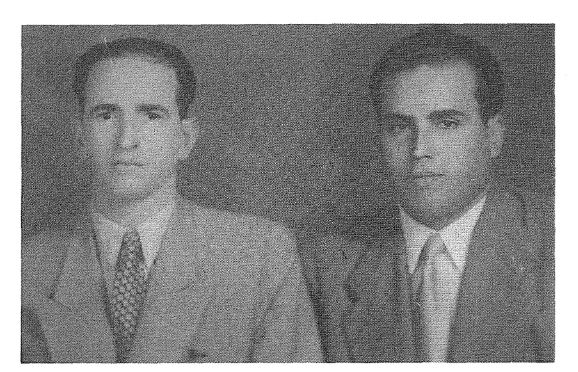


د. علي الباز، أ. صدقي حطاب، أ. عبدالعزيز السريع، أ. عبدالكريم البابطين، أ. أبوالقاسم كرو، أ. عبدالعزيز سعود البابطين، د. محمد مصطفى هدارة، د. علي شلش، أ. بول شاؤول، د. علي عقلة عرسان، د. منيف موسى، د. هاني العمد

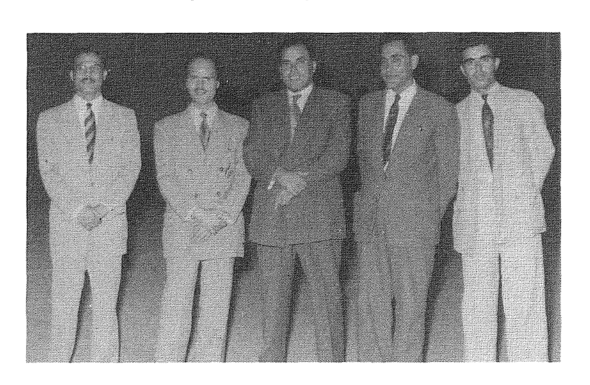


منوعـــات





أبو القاسم مع المرحوم يوسف الرويسي مدير مكتب المغرب العربي بدمشق ١٩٥٢



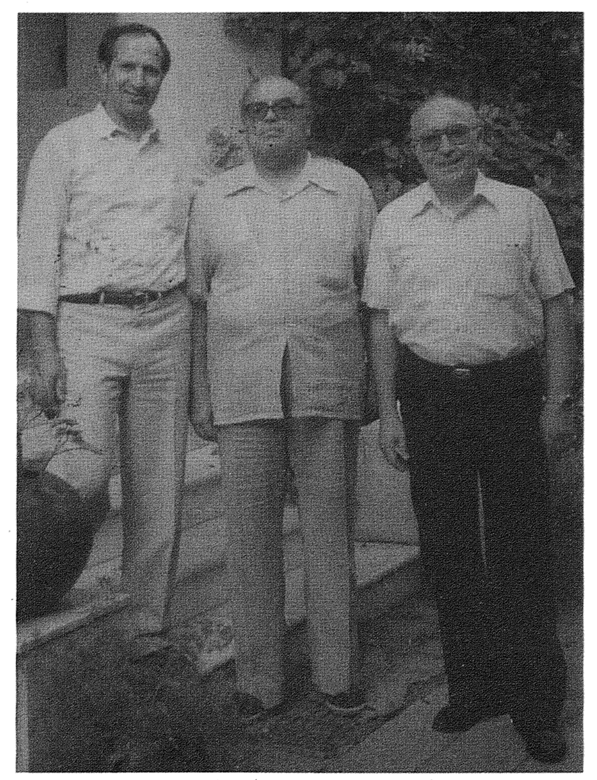
في طرابلس الغرب عام ١٩٥٣ من اليمين محمد الصالح الغريني - عبدالرحمن بن خليفة، أبو القاسم كرو، محمود الشعبان، عبدالله علوفه



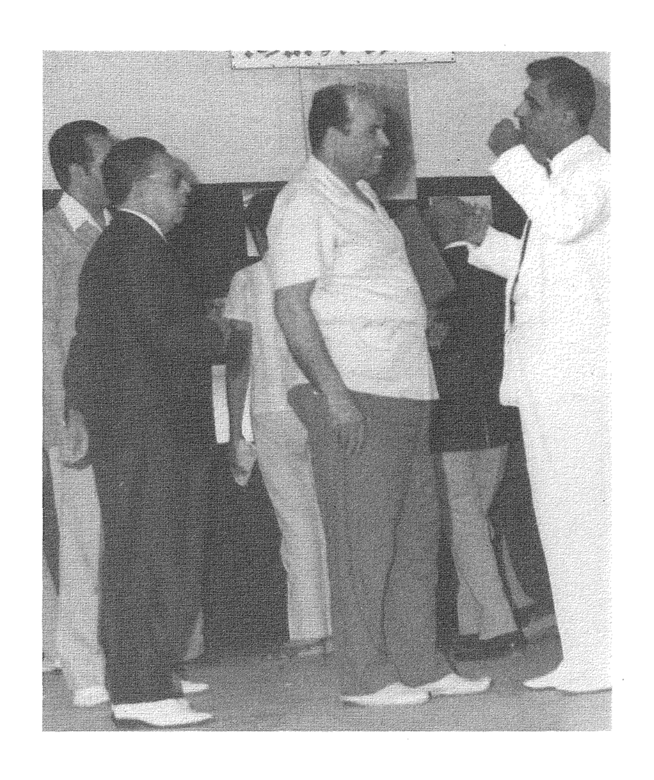
أبوالقاسم يرد على الهاتف بمكتب الحزب في طرابلس عام ١٩٥٤



أبوالقاسم في مكتب بمكتب الحزب عام ١٩٥٤ وإلى يساره المناضل على الحويج
وإلى يمينه المناضل الشاذلي الحسومي



أبوالقاسم بين الشاعرين المغربيين: علي وأحمد الطريبق في بيته



أبوالقاسم وأمامه الشاعر الكويتي فاضل خلف وخلفه الشاعر الجزائري مفدى زكرياء.
في مدخل دار الثقافة ابن رشيق بتونس

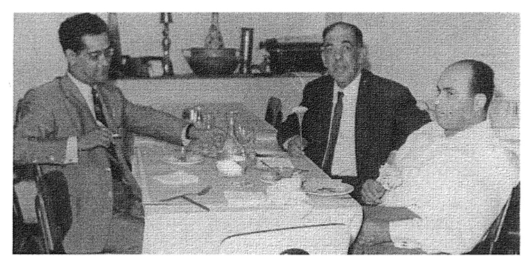


في حديقة والد أبي القاسم بقفصة عام ١٩٦٠ مع صديقه المرحوم عبدالعزيز عشمش الذي يظهر في الوسط وعن شماله صديق له



مع خليفة التليسي في تونس ١٩٧٣

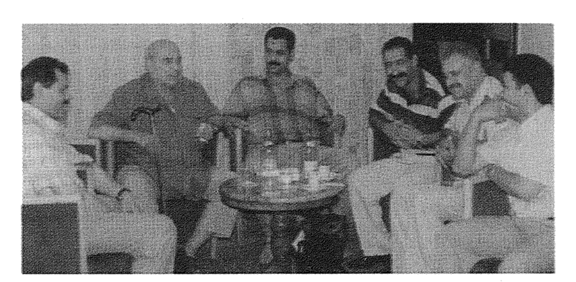
أبوالقاسم يلقي محاضرة (العرب في المغرب العربي) في البحرين عام ١٩٨٢



في مطعم ڤينيس بحلق الوادي يوم ١٦/٩/١٩٦٦.
مع محمود أصلان في الوسط، رشاد ثريا في اليسار، أبوالقاسم كرو إلى اليمين



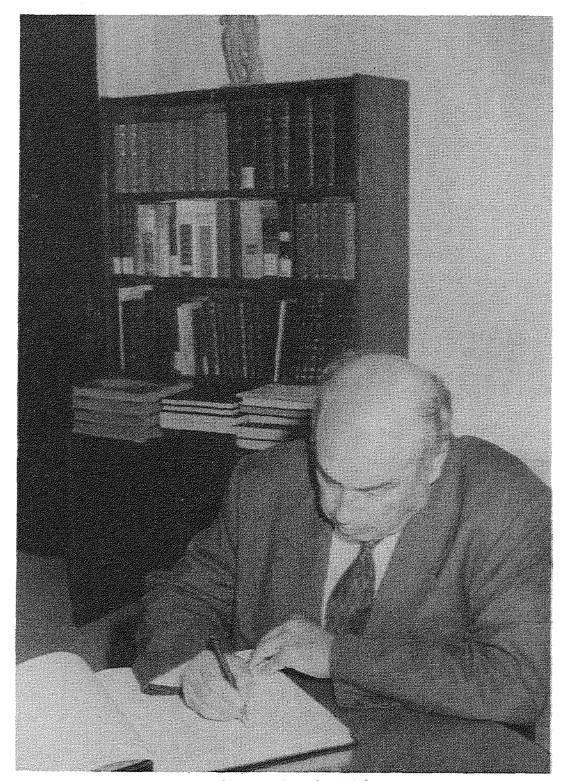
أبوالقاسم في توزر ومعه أحد أبناء المنطقة باللباس التقليدي



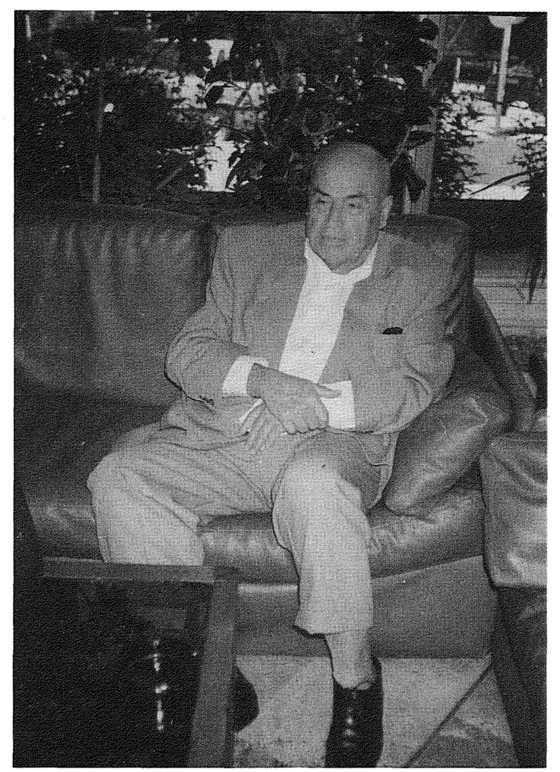
من اليسار إلى اليمين: عبدالسلام لصيلع، أبوالقاسم كرو، شمس الدين العوني، صلاح الدين الحمادي
سوف عبيد، محمد المي (٢٠٠٢ نزل الهناء الدولي)



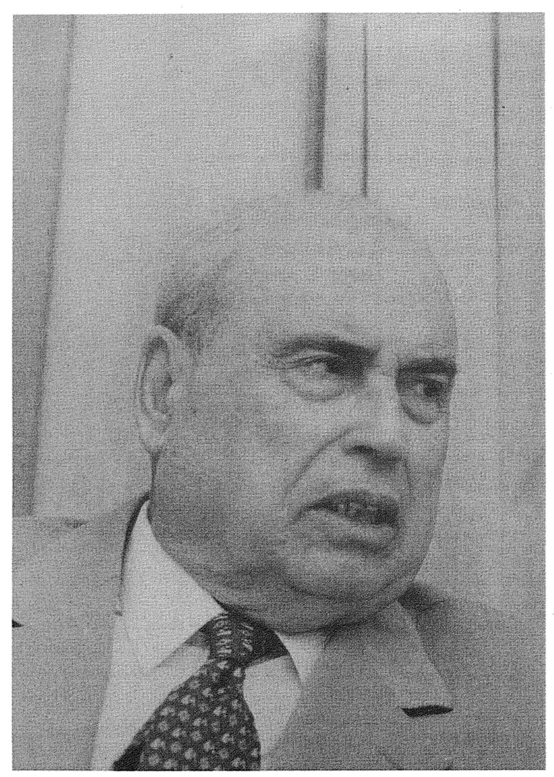
غرة نوفمبر ٢٠٠٢ من اليمين: يوسف رزوقة، أبوالقاسم، حسونة المصباحي



أبوالقاسم يكتب وخلفه جزء من مكتبته



أبوالقاسم في حلب عام ١٩٩٨



أبوالقاسم في شيخوخته

المحتوى

● القسم الثاني: الرسائل والشعر

● القسم الثالث: أبوالقاسم كرّو في الكتب والدوريات (مقالات مختارة ١٩٤٨ - ٢٠٠٤)

■ في الكتب

■ في الدوريات

****



الناشر

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الكويت 2008